

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

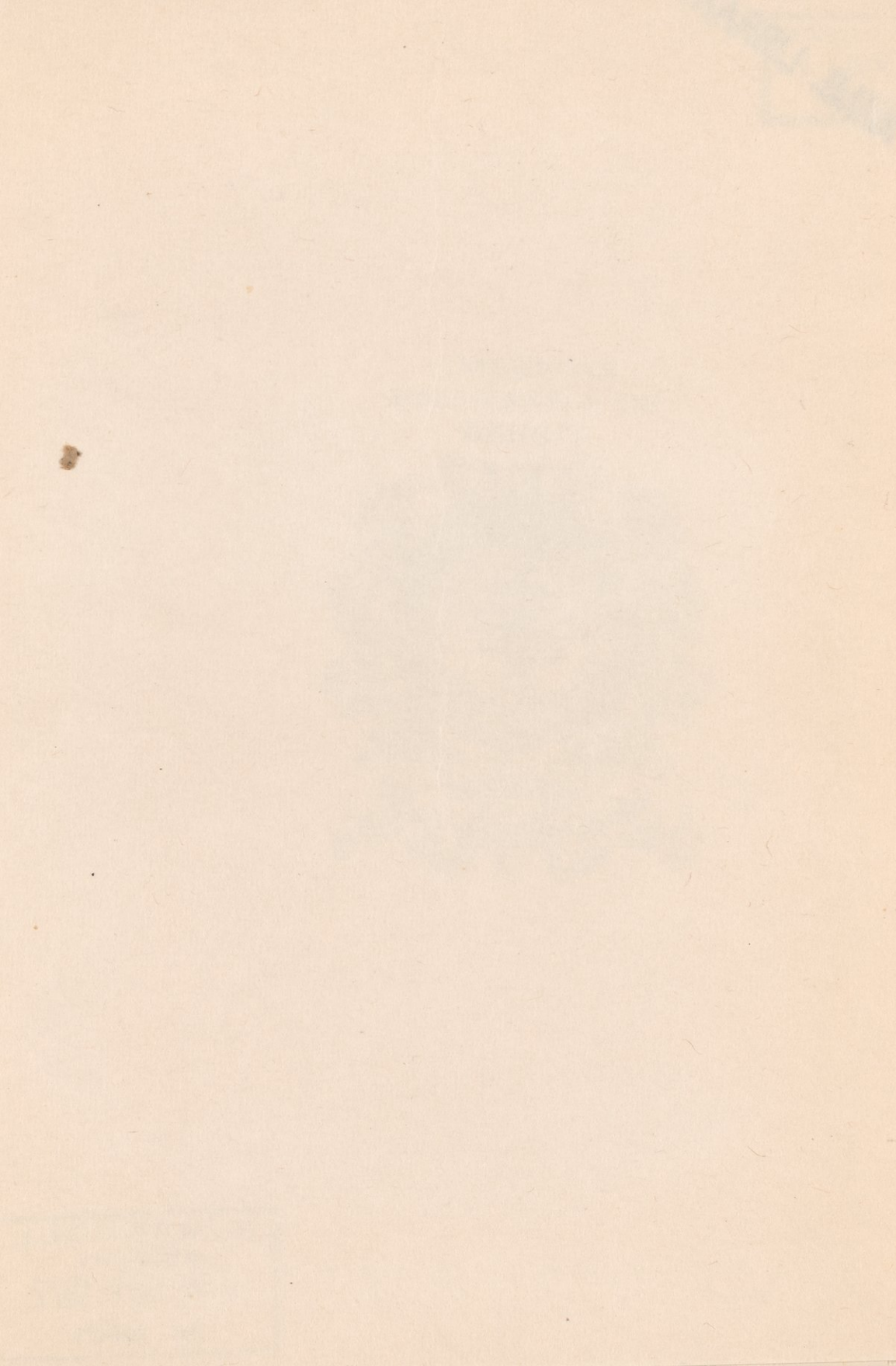


LIBRARY

N. MAKHOUL
BINDERY

28 SEP 1972

Tel. 260450



نارنجی

نساء صغيرات

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك

نساء صغيرات

٣

تأليف

لويزا م. الكوت

ترجمة

أمينة السعيد

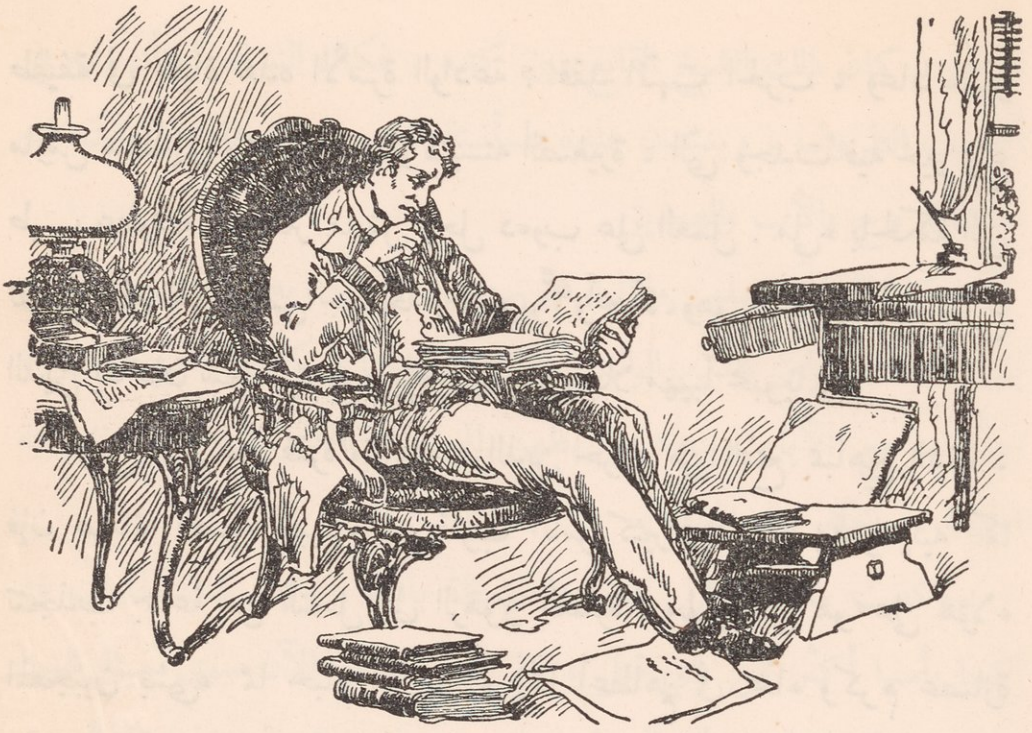
منزى الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

١٩٥٥

تأليف
الصور الملونة والرسوم من عمل لويس جامبور
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حق نشر الصور من صاحب هذا الحق

This is a translation of Chapters XXIV to
XXXIV from Little Women by Louisa M. Alcott.
Color prints and drawings by Lois Jambor
reproduced by special permission of Copyright
owner. Copyright 1947 Crosset and Dunlop.



الفصل الرابع والعشرون

ثرثرة

من المستحسن أن نستهل هذا الفصل من القصة بجديث عن أسرة مارش ، حتى نذهب إلى زفاف ميج ، وقد نسينا كل أثر للماضي . وإذا اعترض أحد من الكبار على ما تفيض به القصة من عواطف وغزل ، فسندرد قول مسز مارش : « وماذا تنتظرون غير ذلك ، ولى أربع فتيات مرححات يصاحبهن فتى جذاب في ريعان الشباب ؟ » وعلى أى حال مهما اعترض الكبار ، فإن الشباب لن يعترض على مغامرات الهوى في هذه القصة . والواقع أن السنوات الثلاث التي انقضت ، لم تحدث سوى تغيرات

طفيفة في حياة هذه الأسرة الوداعة : فقد انتهت الحرب ، وعاد مستر مارش سالماً إلى بيته الحبيب وكنيسته الصغيرة ، التي وجدت فيه خير راع طيب عطوف . ومستر مارش رجل دعوب على العمل . مليء بالحكمة التي تفضل المعرفة ، تفيض جوانحه رحمة وبراً وأخوة ، وهو يتميز بالتقى والورع الذين يدعمان شخصيته ، ويجعلان منه رجلاً مهيباً محبوباً .

وعلى الرغم من فقره ونزاهته ، الذين حرماه من التمتع بمباهج الدنيا ، فإن صفاته الطيبة حبيت فيه قلوب أناس كثيرين ، فانجذبوا إليه كما تنجذب جماعة من النحل إلى الزهور العطرة . ولم يبخل هو على هؤلاء المعجبين بشيء مما حباه الله به ، إنما أعطاهم في سخاء وكرم عسارة تجاربه الشاقة خلال حياته البالغة خمسين عاماً . وقد وجد الشباب المتطلع في هذا العجوز الأشيب الوقور ، قلباً فتيماً لا يقل عن قلوبهم حرارة ، وكان النساء المثقلات بالهموم ، يلجأن إليه بأحزانهم ، فيجدن منه حنان الصدر وصواب النصيح . وكان المذنبون يعترفون لهذا الرجل التقي بذنوبهم ، فيلومهم على ما بدر منهم ، ثم يقودهم إلى بر السلام النفسي . وكان ذوو المواهب يجدون فيه نعم الرفيق ، أما أهل الطموح فكانوا يأخذون عنه طموحه الشريف ، وحتى أصحاب الأغراض الدنيوية كانوا يعترفون بجمال آرائه وصدقها ، وإن كانت لا تحقق لهم كسباً مادياً .

وكان يبدو ظاهراً أن إدارة البيت إنما هي في يد النساء الخمس الممتهلات حيوية ونشاطاً ، ولكن الحقيقة الخافية أن رأس الأسرة المفكر ، وقلبها

الموجه ، كان ذلك الشيخ القابع بين كتبه ، فكان النساء يلجأن إليه في أعصب الظروف ، وينشدن عنده طمأنينة النفس وهدوءها ، ويجدن فيه حنان الزوج والأب والصديق .

وكان البنات يسلمن مقاليد قلوبهن إلى الأم ، ويعهدن بزمام نفوسهن إلى الأب ، ويولين هذين الوالدين اللذين يكدان ويكدحان من أجلهن ، حباً ينمو مع الأيام ويزداد ، فيربطهن إليهما برباط وثيق جميل ، تنعم به الحياة ، ويخلد بعد الموت .

وكانت مسر مارش كعهدها نشيطة باشة ، وإن كان المشيب قد كسا رأسها أكثر من ذي قبل ، ولم يكن لها هم الآن سوى تهئية شئون ميح ، وقد شغلت هذه المهمة وقتها ، حتى حرمت المستشفيات والبيوت — التي ما زالت تعج بالجرحي والأرامل — من زياراتها وعطفها الأموى . أما چون بروك ، فقد لبى داعي الوطن ، فالتحق بالجيش مدة عام ، ولكنه جرح في نهايته ، فأعيد إلى بلاده ، ولم يسمح له بالقتال ثانية ، ولذلك لم يزين صدره بأوسمة أو نياشين ، رغم أنه كان يستحقها جزاء تضحيته بحبه ومغامرته بحياته ، وهما أثمن ما لديه في الوجود . وخضع چون لما قضى عليه به من تسريح ، وكرس نفسه للعناية بصحته ، والاستعداد لعمل يمارسه ، ولأعداد بيت الزوجية لميح . ولقد أبى عليه استقلاله وتواضعه أن يقبل العروض السخية التي قدمها له مستر لورنس ، وأثر قبول وظيفة أمين مكتبة ، قانعاً بمرتبها الصغير ، الذي يكسبه بكده وكدحه

عن المغامرة بمال يقترضه من مستر لورنس .

وراحت ميج تصرف وقتها بين العمل والانتظار ، وقد نمت فيها شخصية المرأة ، وازدادت خبرتها بشئون البيت ، كما بعث الحب فيها جمالا على جمال ، فأصبحت بهجة للأنظار . وكانت ميج ، ككل فتاة في مثل سنها ، ذات مطامع وآمال ، فعز عليها أن تكون بداية حياتها الجديدة متواضعة متقشفة . وكان نيد موفات قد تزوج بسالي جاردنر ، وأصبح من العسير على ميج أن تقارن أحوالها المعيشية البسيطة ببيتهما الجميل ، وعربتهما الفاخرة ، وهداياهما الكثيرة ، ومظاهرهما الفخمة . وكم تمت أن يكون لها مثل ما لصديقتها ، ولكن الغيرة لم تلبث أن انحسرت تماماً حين لمست مدى الجهد البالغ الذي يبذله چون في تهيئة بيت صغير عامر بالحب والإخلاص . وحين جلست معه ذات يوم تحت الشفق الجميل ، تتحدث عن مشروعاتهما الصغيرة ، بدا لها المستقبل أكثر إشراقاً وجمالاً ، حتى نسيت فخامة حياة سالي ، وأحست أنها قد أصبحت بسعادتها أغنى فتاة في العالم .

وانقطعت چو عن خدمة العمه مارش ، لأن العجوز أغرمت بآمي إلى حد كبير ، وجعلت تغريها على البقاء معها ، بإعداد دروس خاصة لها على أيدي أمهر الرسامين . وانهزمت آمي أمام هذا الإغراء ، وعاشت مع السيدة العجوز ، وكانت تكرر أوقات الصباح لخدمة عمّتها ، وبعض الظهر لمسرّاتها ، ووفقت في ذلك توفيقاً طيباً . أما چو فقد عملت

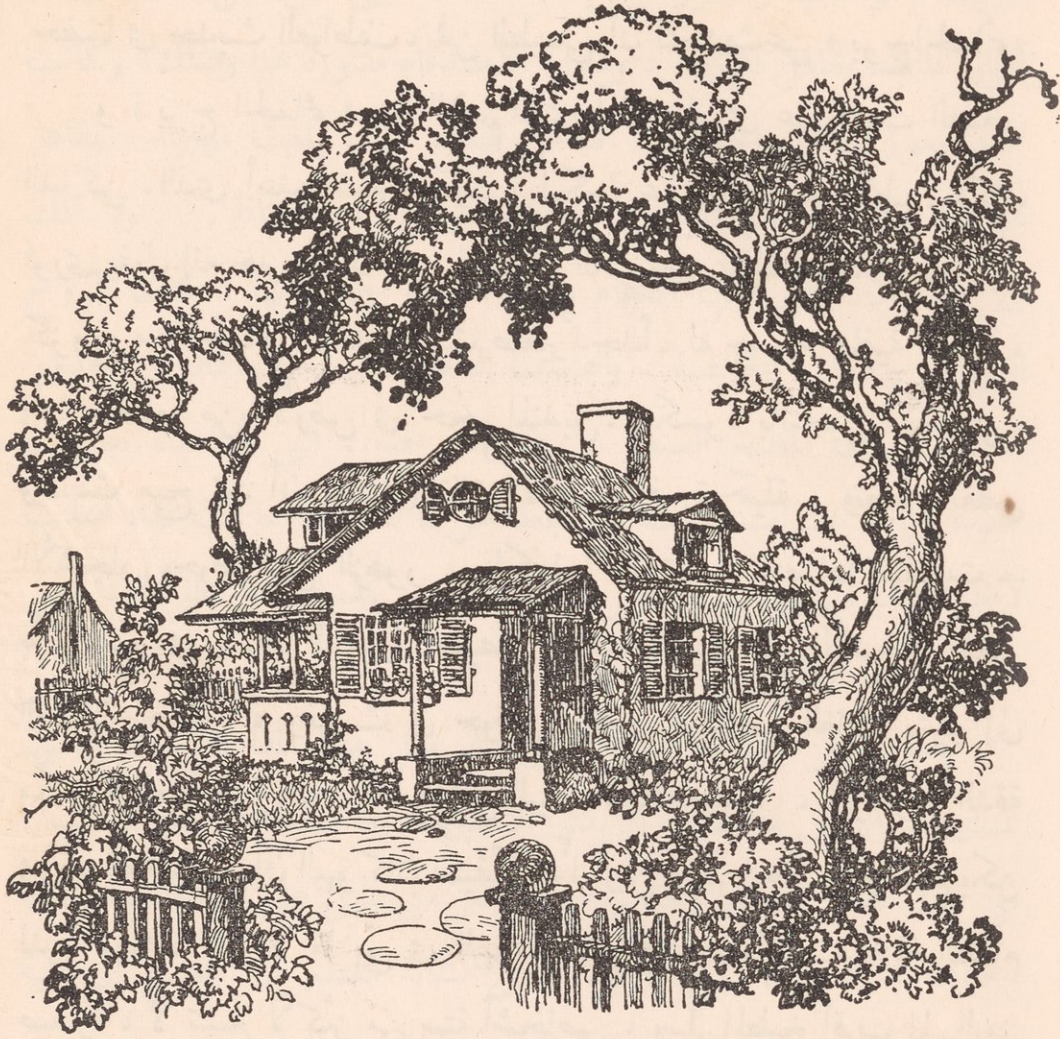
على تقسيم وقتها بين دراسة الأدب ، وبين معونة بث ، التي ظلت وقتاً طويلاً تعاني من آثار مرضها الشديد . ولم تكن بث عاجزة عن العمل ، ولكنها لم تستطع أن تسترد نشاطها وتورد خديها ، ورغم ذلك ظلت ملك البيت الحارس ، وصديقة أهلها الوفية ، وكانت تقوم بواجباتها منفعمة القلب بالأمل والسعادة .

وكانت چو تفخر بأنها قد أصبحت امرأة ذات دخل ، بفضل ما تنشره لها مجلة « سبريد أيجل » لقاء دولار عن كل عمود في الصحيفة . وكان نشاطها الكتابي ينحصر في تأليف قصص غرامية تصوغ موضوعاتها بمنتهى المهارة والبلاغة ، ولكن فكرة جديدة اختمرت ذات يوم في رأسها المتوقد ، فراحت تملأ بتلك الفكرة صفحات وصفحات من أوراقها الخاصة ، ثم تحتفظ بها في غرفتها المنعزلة ، راجية أن تخلد بها اسم أسرة مارش ، وترفعه إلى سماك المجد والفخار .

أما لوري فقد واظب على الذهاب إلى الكلية إرضاء لجدّه ، ثم لم يلبث أن أغرته كبرياؤه بالاجتهاد ، فتصدر صفوف زملائه . وكان الفتى أثيراً عند أقرانه ، لمواهبه وأخلاقه وثرائه ، وكذلك لقلبه الطيب الذي كثيراً ما جلب له المتاعب في سعيه إلى معونة غيره . وكان لوري معرضاً لأن يفسده التدليل كما أفسد كثيرين غيره من الشباب الموهوبين المترفين ، ولكن الأقدار شاءت أن تحصنه ضد عوامل الشر بفضل الرجل الطيب العجوز مستر مارش ، الذي أخذ على عاتقه أن يوفر له أسباب النجاح ،

وأيضاً بفضل أمومة مسز مارش التي رعته وسهرت عليه كأنه أحد أبنائها ، هذا إلى إحساسه بأن أربعاً من الفتيات البريئات يحببنه ، ويؤمن به في قرارة قلوبهن .

ولما كان لوري مرحاً بطبعه ، فقد حلا له أن يأخذ بأساليب الغزل والعبث ، ومال إلى التأنق والتظرف ، وأفرد في طلب المرح والتسلية ، وانقاد إلى الاستهانة ، فكان يتكلم باللغة العامية ، ويستعمل في أحاديثه ألفاظاً دارجة ، مما عرضه لعقوبة الفصل أكثر من مرة . وكانت أساليبه في دفع العقاب ، أن يعترف بخطئه نادماً مستغفراً ، أو يتذرع بقوة الإقناع التي وهبه الله منها قسطاً عظيماً . وفي الواقع أن لوري كان يفخر بقدرته على التملص من ورطاته الكثيرة ، فيشير إعجاب الفتيات الأربع بقصص انتصاراته على العرفاء الغاضبين ، والأساتذة المتورين ، والغرماء الناقمين . وكانت الفتيات يعتبرن لوري وأصدقائه أبطالاً ، لا تمل الأذن من سماع قصص مغامراتهم ، وكانت بسمات هؤلاء الأصدقاء الأبطال تدفء صدور البنات ، كلما أتى بهم لوري معه إلى البيت في عطلاته المدرسية . وكانت أمي أكثر الفتيات نصيباً من هذه البسمات ، وأوفرهن حظاً من عناية الفتيان واهتمامهم ، وذلك لتفوقها عليهن في فهم أسرار الفطنة والحاذبية ، ورعايتها الدائمة لحسنها وأناقها . وكانت ميج غارقة في شئون حبها لحن ، فلم تلتفت إلى أحد من هؤلاء الفتيان . وكان الحجل المتمكن من بث يبعدها عن الشبان المرحين ، ويجعلها تقنع بالنظر الصامت إليهم ، وكلها



عجب من جرأة آمى معهم . أما چو فكانت بطبعها لا تميل إلى التكلف والتزمت ، فراحت بطريقتها المعهودة تسعى إلى تقليد عبارات هؤلاء السادة ، وأساليبهم من الحديث . وكان الفتیان جميعاً يميلون إلى چو ، ولكن واحداً منهم لم يقع في غرامها ، على العكس من آمى ، التى تفتحت

قلوبهم جميعاً لحبها ، وكثرت تنهداتهم على محراب حسنها . وما دمنا قد خضنا في حديث العواطف ، فمن الطبيعي أن نتحدث عن « برج الحمام » . و « برج الحمام » هو الاسم الذي أطلقه لورى على البيت الصغير الداكن ، الذى أعده مستر بروك ، ليكون عش الزوجية الأول . وكان لورى يقول إنه خير مكان يضم الحبيين الكريمين ، ولقد دخلاه متعانقين كزوج من الحمام . وكان البيت صغيراً جداً ، له حديقة خلفية ضيقة ، وأمامه قطعة من الأرض فى حجم المنديل ، مكسوة بالنعجيل الأخضر . وكانت ميج تود أن تقيم فى تلك الأرض نافورة جميلة ، وتغرس بعض الأشجار وحوضاً من الزهور ، ولكنها اكتفت - اقتصاداً للنفقات - بأن تضع فى مكان النافورة أصيصاً ضخماً ، وفى محل الأشجار بعض العيدان الصغيرة ، وغرست فى حوض الزهور عوداً من الغاب يشير إلى مكان البنور المزروعة . أما داخل البيت فكان جذاباً ، ولو أردنا الدقة فى وصفه نقول : إن البهو كان ضيقاً جداً ، ومن حسن حظ ميج أن لم يكن لديها معزف ، وإلا ما بقى فى البهو موضع لتقديم . وكانت غرفة الطعام صغيرة ، لا تتسع لأكثر من ستة أشخاص ، وسلم المطبخ أقرب إلى الرمز منه إلى الحقيقة ، ولكن ميج ما لبثت أن اعتادت هذه الأوضاع ، مؤمنة بأنه ما من شئ فى هذه الدنيا يبلغ حد الكمال . وكان الأثاث والمفروشات مختارة بنوق سليم ، فبدا البيت جميلاً لا عيب فيه ؛ حقيقة أنه كان يخلو من الموائد المغطاة بالمرمر والمرايا الضخمة ، والستائر الثمينة ، ولكن الأثاث

البسيط ، والكتب والصور الجميلة ، كانت تغنى عن كل ذلك . وكان بجوار النافذة حامل للأزهار ، وهدايا الأصدقاء منشورة هنا وهناك ، وكانت كلها رموز مودة وإخلاص : فما من صانع مهما بلغت مهارته ، بقادر على أن يطرز الستائر الموسلين ، كما طرزتها يد آوى الفنانة . . . ولا كان فى الإمكان تنظيم مخزن الطعام ، كما نظمته چو وأمها ، بتلك الروح الطيبة ، والأمانى الخالصة ، والتمنيات السعيدة . . . ولا كان فى مقدور أحد أن يرتب المطبخ الصغير ، كما رتبته حنة ، التى أعادت تصنيف طحونه وأوانيهِ عشرات المرات ، لتجعله مريحاً للنظر . أما بث فقد أعدت لأختها ذخيرة وفيرة من المفارش والأكياس ، كفتها سنين طويلة ، حتى عيد زواجها الفضى .

ولعل الذين يستأجرون من يطرز لهم مثل هذه المفارش ، لا يحسون بمدى الفارق بين ما تصنعه الأيدى الأجيّرة ، وما تصنعه الأيدى الحبيبة ، فى ذلك العش الصغير وجدت ميج أكثر من دليل على العواطف الجميلة الجياشة ، إذ كان كل ما فيه — من نشابة الفطير فى المطبخ إلى آنية الزهور فى البهو — ينطق بالمحبة العائلية ، والوفاء الخالص .

ومرت بالأسرة أوقات سعيدة ، انقضت فى رسم خطط المستقبل ، وزيارة الأسواق لشراء لوازم البيت الجديد . وكم وقعت أخطاء مضحكة ، وكم انطلقت ضحكات عالية ، أثارها لورى بطريقته الفكاهية فى مساومة التجار . . . فبالرغم من أنه شارف على التخرج فى كليته ، فقد ظل مرحاً

كما كان شأنه في صباه . ودأب الصديق الوفي على أن يحضر في زيارته الأسبوعية ، بعض أشياء تفيد ربة البيت ، منها حقيبة ملائ بمشابك غريبة للغسيل ، ومنها أيضاً كسارة للبندق تحطمت عند أول تجربة . . وكان من بين هداياه طلاء للسكاكين أفسد معدنها ، ومكنسة ثبت بالاستعمال أنها تنزع وبر السجاد وتترك الأقدار عليها ، وصابون قصده به مهمة الغسل ، فإذا به يسلخ الأيدي التي تستعمله . وأحضر لها ذات يوم نوعاً من الصمغ ، ثم اتضح أنه لا يلصق بشيء إلا بأصابع المشتري المخدوع ، وكذلك أحضر لها غلاية للماء يحتمل أن تنفجر في أية لحظة .

وعبثاً حاولت ميج أن تشيه عن تقديم هذه الهدايا ، ولكنه كان مصرّاً على إعطاء أصدقائه كل ما هم في حاجة إليه ، ولذلك ظل يفاجئهم كل أسبوع بنزوة جديدة لا تحقق الغرض المقصود منها .

وأخيراً تم إعداد البيت الجديد ، واكتملت لوازمه حتى الصابون ، فقد حرصت أمي أن تضع الصابون الملون في الغرف ، كل بما يناسبها ، كما قامت بث إعداد مائدة الطعام لأول وجبة يتناولها العروسان في بيتها الجديد . سألت مسز مارش ابنتها ، وهي تتأبط ذراعها ، عند دخولهما مملكة ميج الجديدة :

— أراضية أنت ، وهل تشعرين بالسعادة ، وهل تحسّنين بأن البيت بيتك ؟

قالت هذا وقد ضمت الفتاة إليها في حنان بالغ ، فأجابت ميج وهي

تنظر إلى أمها نظرة غنية بالمعاني :

— إني راضية كل الرضا يا أماه ، ولساني يعجز عن وصف سعادتي وهنائي ، فشكراً لكم جميعاً .

قالت أمي ، وهي تتجول في غرفة الاستقبال ، بحثاً عن مكان مناسب تضع فيه التمثال البرونزي .

— لو كان لديها خادم أو خادمان ، لصار الأمر على ما يرام .
أجابت ميج في هدوء :

— لقد تحدثت وأمي في هذا الشأن ، وسوف أجرب اقتراحها أولاً ، وما دامت « لوتي » قد تعهدت بقضاء حاجاتي الخارجية ، ومساعدتي هنا وهناك ، فلن يبقى بعد ذلك سوى أعمال بسيطة تردُّ عني الملل والكسل .
قالت أمي :

— إن لدى سالي موفات أربعة من الخدم .

فقاطعتها چو ، وكانت تلبس مرولة زرقاء ، وتقوم بتلميع مقابض الأبواب لآخر مرة :

— لو كان لميج أربعة خدم ، لضاق بهم البيت ، واضطر السيد والسيدة للمبيت في خيمة بالحديقة .

قالت مسر مارش :

— إن سالي زوجة رجل ثري ، وبيتها الكبير الأنيق في حاجة إلى خدم كثيرين ، ولكن ميج وچون يبدآن حياة متواضعة ، ويقتني أنهما سيجدان

فى عشهما ، سعادة أصحاب القصور . وأعتقد أن الخطأ كل الخطأ فى انشغال الفتيات بالزينة والثروة ، عن أداء الأعمال التى تملأ الفراغ فى بدء حياتهن . حين تزوجت كنت أتمنى أن تبلى ملابسى ، أو تتمزق ، حتى أشعر بلمدة العمل فى إصلاحها ، بعد أن أضناني الملل وضاق صدرى بتافه الأعمال .

قالت ميج :

— ولماذا لم تدخلى المطبخ لتجربى حظك فى الطهى ؟ تقول سالى موفات إنها تتسلى أحياناً بصنع بعض الأطعمة ، ولكنها تفسدها ، فيضحك الخدم منها .

قالت الأم :

— وهذا ما فعلته بعد فترة ، فقد دخلت المطبخ لا لأهو ، إنما لأتعلم من حنا كيف أصنع الأشياء ، حتى لا يضحك منى الخدم . وكانت تسلية فى بداية الأمر ، ثم لم تلبث الظروف أن تغيرت ، وجاء اليوم الذى أصبحنا فيه غير قادرين على استئجار الخدم ، وعندئذ حمدت الله على تجارب الماضى التى مكنتنى من أن أخدم بيتى بنفسى ، وأصنع طعاماً صحيحاً لبناتى الصغيرات . أما أنت يا ميج ، فتبدئين من حيث انتهت أمك ، وستفيدك الدروس التى تتلقينها اليوم ، عندما يثرى چون ، ويصبح رجلاً عظيماً . من واجب ربة البيت مهما كان بيتها فخماً عظيماً ، أن تلم بأسرار العمل فيه ، حتى تؤدى رسالتها بإخلاص وأمانة .

استمعت ميج إلى نصائح أمها في احترام بالغ ، شأن السيدات
المهمات بأحاديث البيوت وأدواتها . قالت :

— أجل يا أماه ، ولست أشك في صواب ما تقولين .

وسارت ميج بجانب أمها ، وصعدت معها السلم إلى الدور العلوى ،
ثم نظرت إلى خزانة البياضات وقالت :

— أتعرفين يا أماه أن هذه أحب غرفة إلى نفسى فى البيت الصغير

كله ؟

وكانت بث تقوم بترتيب المفارش والبياضات فوق الرفوف ، وهى
تحس بنشوة من السرور أمام المجموعات المختارة ، فلما سمعت قول ميج ،
ضحكت وقد تذكرت قصة لا تخلو من الفكاهة ، وكانت قصة العمه
مارش التى تهددت ميج ، عندما صممت على الزواج من بروك ، وصاحت
بها قائلة : « إذا تزوجت من هذا البروك ، فلن أعطيك قرشاً واحداً من
مالى . ولكن غضب العجوز لم يلبث أن هداً بعد وقت ، فندمت على سابق
وعيدها ، وتحيرت كيف تتخلص منه ، وهى التى تعودت أن تتمسك
دائماً بكلمتها . وهداها فكرها إلى حل يرضيها ، فكان أن أمرت مسز
كارول أم فلورنس ، بشراء كمية كبيرة من المفارش الثمينة ، ثم كلفتها
بأن تقدمها هدية إلى ميج . ولكن السر لم يخف طويلا ، وعرف أفراد
الأسرة أن العمه هى صاحبة الهدية ، وكان من دواعى تفككهم ، تظاهر
العجوز بالجهل ، كأن المفارش الثمينة لم تشت من مالها ، ثم إصرارها على

حرمان الفتاة العاصية من ممتلكاتها ، اللهم إلا الآلىء القديمة ، التى سبق أن وعدت بها أول عروس فى العائلة .

قالت العمّة مارش ، وهى تقلب المفارش الحريرية وتفحصها بعين الخبرة :

— إنه ذوق بديع يسرنى أن أراه فى البيت الجديد . لقد كان لى صديقة شابة لا تملك غير ست ملاعات للسرير ، ولكنها كانت تعزى نفسها عن هذا النقص بوفرة ما لديها من طاسات لغسل الأصابع .
قالت ميج فى رضا :

— ليس عندى طاسة واحدة ، ولكن هذه المجموعة من المفارش تكفينى طول حياتى ، على حد تعبير حنا .

وصاحت چو من الطابق السفلى ، تعلن قدوم لورى ، فنزل سيدات الأسرة للقائه إذ كانت زيارته الأسبوعية حدثاً هاماً فى حياتهن الهادئة .
وكان لورى قد أصبح فتى فارع الطول ، عريض المنكبين ، وكان آتياً من الطريق وقد ارتدى معطفاً فضفاضاً وقبعة واسعة ، ولم ينتظر أن تفتح له البوابة الصغيرة ، بل قفز من فوق السور المنخفض ، وتقدم نحو مسر مارش يصفحها بحرارة ويداه مبسوطتان :

— ها أنا ذا قد جئت يا أمّاه ، وكل شىء على ما يرام .

وكانت السيدة قد ألقت عليه نظرة فيها تساؤل عامر بالحنان ، فأجابها بما مضى من الكلام مطمئناً ، وعيناه الحميلتان تفيضان بالمرح والسرور .

قال لورى وهو يعطى ميج طرداً ملفوفاً ، ويشد صغيرة بث مداعباً ،
ويحرق فى مرولة چو الكبيرة ، وينظر إلى آمى فى ابتهاال ساخر :
— هذه لمسز بروك ، مع تهنئة الصانع وتحيته ... تمنياتى لك يابث ...
ما أبهى منظرک يا چو . . . أما أنت يا آمى فجمالک أكثر من أن يتوافر
لسيدة واحدة .

ثم جعل يصافحهن واحدة بعد واحدة ، قالت ميج :

— أين چون ؟

قال :

— ذهب يعد الترخيص لحفلة غد .

وسأله چو ، وكانت رغم بلوغها التاسعة عشرة من عمرها ، لا تزال
تصر على الاهتمام بأخبار الرجال :

— من فاز فى المباراة الأخيرة يا تيدى ؟

قال :

— فريقنا بالطبع ، لیتک كنت معنا لتری ما حدث .

سأله آمى ، وهى تبسم ابتسامة ذات مغزى :

— وكيف حال مس راندل الجميلة ؟

فضرب لورى صدره بيده ، وتهجد بحرارة ، وقال :

— أشد قسوة من ذى قبل . ألا ترين ذبول وجهى لحنائها ؟

قالت بث ، وهى تنظر إلى اللقافة باهتمام :

— أسمعنا آخر نكتة يا لورى ، وأنت يا ميج افتحى هذه اللقافة

لنرى ما فيها .

وفك لورى أربطة اللقافة ، وأخرج منها لعبة على شكل حارس يحمل

جرساً . فضج البنات بالضحك . قال الفتى :

— إنها شىء مفيد للبيت فى حالة الحريق ، أو عند وجود اللصوص ،

فحينما يغيب چون يا ميج ، وتشعرين بالخوف ، ما عليك إلا أن تدفعى

بهذا الجرس إلى النافذة الأمامية ، فيوقظ رنينة الجيران فى لحظة خاطفة .

فكرة جميلة ، أليس كذلك ؟

وهز الجرس يجربه ، فانطلق منه رنين عال يكاد يصم السمع ، فأسرعت

البنات إلى آذانهن يغطينها بأيديهن . قال :

— إنه رمز اعترافى بجمالك الكثيرة يا ميج ، والحديث عن الاعتراف

بالحميل يذكركنى بأنك مدينة بالشكر لحنا ، لأنها أنقذت كعكة العرس

من الدمار ، فقد رأيتها ، وأغرانى شكلها الجميل بانتزاع قضمة كبيرة

منها ، ولكن حنا تصدت لى ، ودافعت عن الكعكة دفاع الأبطال .

فقالت ميج بلهجة الأم العجوز :

— إن تصرفاتك الصببانية تدهشنى يا لورى ، ألا تكبر أبداً ؟ !

أجاب الفتى ، وقد كاد رأسه العالى يمس الثريا المدلاة من السقف :

— إنى أبذل جهدى يا سيدتى ، ولكنى لا أستطيع أن أنمو أكبر

من هذا ، وأخشى أن الستة الأقدام التى بلغتها طولا ، هى أقصى ما يمكن

أن يصل إليه رجل في هذه الأيام السيئة .
ثم قال معقبا :

— إن تناول الطعام في هذا العش المزدهر الجميل انتهاك لقداسته ،
ولما كنت في منتهى الجوع ، فأنا أقترح تأجيل الجلسة .
قالت ميج ، وهي تسير مبتعدة :

— أنا وأمي سننتظر عودة جون ، ولا يزال أمامنا بعض الأشياء التي
تحتاج إلى التنسيق .

وقالت أمي ، وهي تضع قبعة جميلة فوق خصلات شعرها الذهبي :
— أما أنا وبث فسندهب إلى كيتي براون لنحضر مزيداً من الزهور
لحفلة غد .

فالتفت لوري إلى چو وقال :

— تعالى معي يا چو ، ولا تدعيني وحدي ، فأنا في غاية الإنهاك
والتعب ، وليس في مقدوري أن أذهب إلى البيت دون مساعدة . لا تخلعي
مرولتك فإنها غاية في الأناقة .

ولم تأبه چو لكلامه ، ومدت له ذراعها يتكئ عليها في سيره المنهك ،
ثم قالت :

— تيدي ، لي معك حديث جدي عن حفلة غد : أريد أن تسلك
سلوكاً حسناً ، ولا تقطع الزينات المعلقة ، ولا تفسد شيئاً مما أعدناه ،
فهل تعدني بذلك ؟

قال :

— وهلا تريدن أن أفرح أيضا ؟

قالت :

— المجال لا يسمح بالمزاح ، فيجب أن نكون جادين .

قال :

— لا أستطيع أن أكون جاداً أبداً ، فليس الجد من طبعى بل من طبعك أنت .

قالت :

— ثم أرجوك أن لا تنظر إلىّ فى أثناء الحفل وإلا ضحكت .

قال :

— لن ترينى فى أثناء الحفل ، لأنك ستكونين مشغولة بالبكاء ، وسوف تغشى الدموع عينيك فلا تتبينين شيئاً مما حولك .

قالت :

— أنا لا أبكى أبداً إلا فى المصائب الكبرى :

قال بابسامة ذات مغزى :

— كأن يذهب صديق إلى الكلية مثلاً ؟ !

قالت :

— لا تكن مغروراً ، فما بكيت لرحيلك إلا تضامناً مع أخواتى .

قال :

— أصبت يا چو ، ولكن خبريني بالله عليك ، كيف كانت أحوال جدى هذا الأسبوع ؟ أكان طيباً هادئاً ؟
قالت فى حدة :

— جداً . . ولكن لم هذا السؤال ؟ هل وقعت فى مأزق وتريد أن تعرف وقع الأمر عليه ؟

وتوقف لورى عن المسير ، وقد بدا عليه الألم ، قال :
— أعتقدين يا چو أننى كنت أجرو على النظر إلى أمك ، إذا كان فى الأمر شىء ؟
قالت :

— لا . . لا أعتقد ذلك .

وارتاحت نفسه للهجتها الصادقة ، وقال وهو يواصل سيره :
— إذاً لا تبالغى فى الشك ، فلست أريد من جدى سوى بعض المال .
قالت :

— إنك تسرف فى إنفاق المال يا تيدى .

قال :

— إنى لا أنفق شيئاً ، ولكن النقود تذهب قبل أن أشعر بوجودها .
قالت چو بجرارة :

— إنك سننى كريم ، لا ترد عن بابك محتاجاً ، وليس من طبعك أن ترفض رجاءً لأحد . لقد سمعنا بما فعلته لصديقك هانشو ، ولن تجد

من يلومك إذا كنت تنفق مالك في مثل هذه الوجوه الكريمة .

قال :

— لقد خلق هانشو من الحبة قبة ، وما كنت ترضين لى أن أترك صديقاً يلقي بنفسه إلى التهلكة من أجل جنميات قليلة . إنه فتي نبيل ، يساوى عشرات من أمثالنا نحن الكسالى المترفين ، أفكان يصح أن أتخلي عنه فى محنته ؟

قالت :

— كلا بالطبع ، ولكنى لا أرى جدوى فى شرائك سبعة عشر صدارا ، وما لا يحصى من أربطة العنق ، ثم قبة جديدة فى كل مرة تعود إلى البيت . ظننت أنك جاوزت مرحلة المبالغة فى التأنق ، وتخلصت من آثارها الغرور ، ولكن الداء يعاودك أحيانا فى أشكال متجددة ، كأن تصنف شعرك كالعبيد ، أو تلبس سترة ضيقة أو تختار قفازات برتقالية اللون ، أو تسير بحذاء عجيب الطراز . لو كانت هذه « المودات » القبيحة رخيصة النفقات ما قلت شيئا ، ولكنها تكلفك مالا كثيرا ، وهو أمر لا يسر .

وانفجر لورى ضاحكا ، ومال رأسه إلى الوراء ، فسقطت قبعته الواسعة على الأرض ، وداست عليها چو ، وقد انتهر فرصة هذه الإهانة ، فراح يمدح مزايا الملابس الحشنة الجاهزة ، ثم قال وهو يطوى القبة ويدسها فى جيبه :

— دعى الوعظ والإرشاد، فقد نلت كفايتي من النصائح هذا الأسبوع وأحب أن أمتع نفسي بالهدوء حين أعود إلى البيت . أعدك بإصلاح شأني ، حتى يرضى عني الأصدقاء .

فقلت چو في عنف :

— اترك شعرك ينمو ، أتركك في سلام . أنا لست أرسقراطية ، ولكني لا أحب أن يراني الناس مع رجل يشبه المصارعين .

ولم يكن لورى مغروراً بطبعه ، وإن كان قد ضحى في سبيل الأناقة بشعره المجمع الجميل ، فقال يقنعها :

— الشعر القصير يناسب الحياة الدراسية ، ولذلك ارتضيته . ثم خفض صوته ، وقال بلهجة الأخ الأكبر :

— على فكرة يا چو ، لقد غرق پاركر الصغير حقيقة في حب أمي ، وأصبح يقرض فيها الشعر ولا يمل من الحديث عنها ، وأحياناً يشرد باله من أجلها بشكل يدعو إلى القلق . ألا ترين من الأفضل أن يقضى على عواطفه هذه في مهدها ؟

وبدا الاستنكار على چو ، كأنما أمي وپاركر ليسا في أوائل الحلقة الثانية من عمرها . قالت :

— طبعاً ، يجب أن نقضى على هذه العاطفة ، فنحن لا نريد زواجا جديدا في الأسرة قبل مضي سنوات . ترى ماذا يظن هؤلاء الأولاد بنا ؟ رحمتك يا رب !!

وهز لورى رأسه أسفاً على ضيعة الأخلاق فى هذا الزمن ، ثم قال :

— إن الوقت يمر سريعاً ، ولست أدرى إلى أى نهاية نسير . إنك

ما زلت طفلة ، ولكن دورك آت عن قريب ، وسوف نبقي بعدك وحدنا ،
ولا رفيق لنا إلا الحزن والنحيب .

قالت :

— لا تخف ، فشكلى أبعد ما يمكن عن الجمال ، وإن يرغب أحد فى

الزواج بي ، وهى نعمة من الله ، إذ لا بد أن تبقى فى البيت عانس من
أفراد الأسرة .

فقال لورى ، وهو يسترق النظر إليها ، وقد صعد الدم إلى وجهه

الأسمر :

— إنك لا تعطين أحداً فرصة التودد إليك ، ولا تهتمين بإظهار النواحي

اللطيفة فى شخصيتك ، وإذا لاحظ صديق هذه النواحي من تلقاء نفسه ،

وأبدى إعجابه بك ، تقابلينه ببرود ، ثم تبعدينه فى عنف ، كأنك شوكة
لا يصح أن ترى أو تمس .

قالت تغير الموضوع وقد بدا التحدى فى وجهها :

— دعك من الحديث فى هذا الموضوع ، فأنا لا أميل إليه ، وعندى

من المشاغل ما يقينى التفكير فى مخافات العواطف ، وأعتقد أن فصم عرى

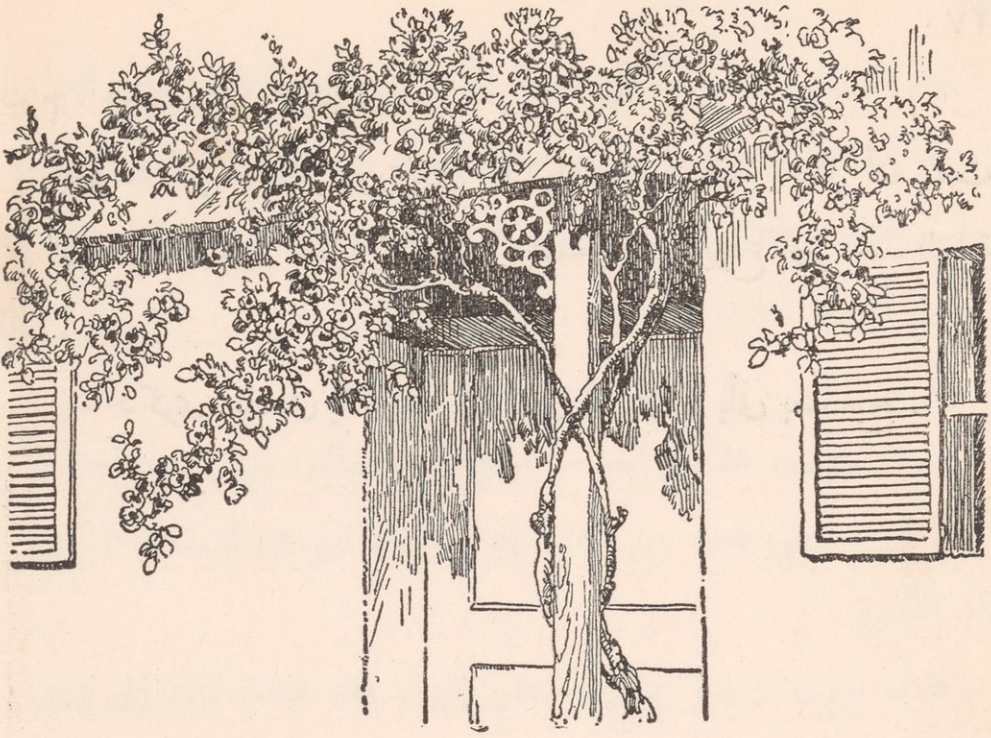
الأسرة بهذه الطريقة أمر فظيع ، كفانا ما حدث بزواج ميج ، فقد

أصبحنا ولا حديث لنا إلا عن الحب والمحبين . ليس فى نيتى أن أخاصمك

اليوم ، فخير لنا أن نتكلم في أمر آخر .

ومهما تكن مشاعر لورى في تلك اللحظة ، فقد اختار أن ينفث
عما في نفسه بصفير طويل هادئ . وعندما وقف يودع چو عند البوابة
قال :

— اذكرى كلماتي يا چو ، وتذكري أن دورك يأتي بعد ميچ .



الفصل الخامس والعشرون

الزفاف الاول

كانت ورود الصيف الزاحفة فوق مدخل البيت ، مزدهرة متفتحة ، تستقبل شمس الصباح في نشوة ، وقد غمرها السرور مثلما غمر الأصدقاء والجيران . والحق أن هذه الورود كانت نعم الجار والصديق ، وقد احمرت حدودها انفعالا ، وهي تتمايل مع النسيم ، وكل منها تهمس في أذن الأخرى بما رأت . وأطل بعضها من نوافذ غرفة الطعام ، حيث تقام وليمة العرس ، وتسلق بعضها الجدران لينظر من النوافذ العليا إلى الشقيقات وهن يساعدن العروس في ارتداء ملابسها ؛ أما بعضها الآخر فكان يميل تحية للقادمين

والذاهبين في حديقة البيت ورواقه وبهوه . واشتركت الورود كلها — من المتفتحة اليانعة إلى البرعم الصغير — في نشر عبيرها العطر ، احتفالاً بزواج السيدة النبيلة ، التي طالما أحببتها ورعتها .

وكانت ميج في هذا اليوم أشبه بوردة من هذه الورود ، وجهها يسطع بما في قلبها من إحساسات حلوة ، وسعادتها تضيء عليها من الرقة والحسن والحاذبية ما يتحدى أروع آيات الجمال . وما كان جمالها في حاجة إلى معونة الحرير أو الدنتلا أو زهور البرتقال ، فكانت تقول : « لا أحب أن أبدو اليوم على غير طبيعتي ، ولا أريد زفافاً من الطراز الحديث ، ويكفيني أن يراني أحبائي وأعزائي ، كما اعتادوا أن يروني دائماً . »

ولقد صنعت ميج ثوب زفافها بنفسها ، وحاكت فيه أمالها الناعمة وغزلها البريء ، كما قامت أخواتها بتصفيف شعرها الجميل ، وقنعت العروس من الزينة بزنبقات بيضاء جاءتها هدية من چون .

ولما أكملت زينتها ، صاحت أمي وهي تتأملها بسرور بالغ : — إنك تبدين كما كنت دائماً ، أختنا الحبيبة ميج ، وقد ازدادت جمالاً وبهاءً ودلالاً ، فدعيني أقبلك ، إذا كان هذا لا يفسد ثوبك . قالت :

— وهذا يرضيني تمام الرضا ، فعانقني وقبلني واحدة فواحدة ، ولا تأبهن بثوبي ، فبودي لو كثرت التجاعيد فيه بسبب حبكن العظيم .

وفتحت ميج ذراعها لشقيقاتها ، فلذن بصدرها مشرقات الوجوه ،
واستنفذ العناق فترة ، أحس الفتيات فيها أن حبها لحن لم ينل من حبها
لهن ، ولم يضعف قليلا أو كثيراً من إخلاصها لأستها .
قالت :

— سأذهب لأساعد چون في وضع رباط عنقه ، ثم أجلس مع أبي
بضع دقائق في المكتبة .

وأسرعت تؤدي الواجبين ، ثم راحت تتبع أمها حيث تذهب ، مدركة
أنه على الرغم من الابتسامة التي تعلو وجهها ، فإن الحزن يعتصر قلبها ،
لخروج أول طائر من عشها ، والألم يغشى نفسها لقرب فراق ابنتها .
ولنتهز فرصة انشغال الفتيات بتزيين أنفسهن ، وتنظيم هندامهن ،
فتحدث قليلا عما فعله مرور الأعوام الثلاثة ، من تغير في مظهرهن
الخارجي : كان شعر چو قد طالت خصلاته وغزرت واسترسلت ،
وأصبحت ملائمة لرأسها الصغير وعودها الفارع ، وكانت مفاصل ساقيها
قد قويت ، فاستطاعت أن تحمل ثقل جسمها في سهولة ويسر ، ولكن
بغير رشاقة . واصطبغ خدها بنضرة الشباب ، ولمع في عينيها بريق هادئ ،
ولان لسانها الحاد في هذا اليوم ، فلم يعد ينطق إلا بالألفاظ الرقيقة .

وكانت بث قد ازدادت ذبولا ونحولا ، وهدأت كثيراً عما كانت
عليه من قبل ، واتسعت عيناها الحميلتان الرحيمتان ، وانبعثت منها نظرات
ليس فيها أثر للحزن ، وإن كانت تدعو إلى الإشفاق . وكانت مستبشرة

بمآثلها للشفاء ، لا تشكو ولا تتذمر ، ولكن نظراتها تلك ، كانت مرآة صادقة لآلام دفينه ، تحاول أن تخفيها عن أهلها .

وكانت أمى زهرة الأسرة اليانعة ، فقد اكتملت أنوثتها ونضجت ، رغم أنها لم تنزل فى السادسة عشرة من عمرها . ولم تكن جميلة فى الواقع ، ولكنها كانت على قسط كبير من الجاذبية والرشاقة ، ينبعث حسننها الحقيقى من حركاتها ، وتكوين يديها ، وانحناءات جسمها ، وتموج ثوبها ، وتهدل شعرها . ولم تكن أمى تدرك مدى جاذبيتها ، التى تفوق الجمال ، فظلت على عهدھا حزينة ، لأن أنفھا لم يتحول إلى الشكل الرومانى الذى تشهيه ، وكذلك لاتساع فمھا وبروز ذقنها ، وكانت هذه التقاطيع التى تضيق بها ، هى مبعث سحرھا الفياض ، ولكنها لم تلتفت إلى هذه الحقيقة ، وراحت تعزى نفسها بنعومة بشرتها ، وزرقة عينيها ، وغزارة شعرها الذهبى . وارتدت الفتيات الثلاث أفضل ثيابهن الصيفية ، وكانت مصنوعة من الحرير الفضى الداكن ، وحلين شعورهن وصدورهن بالورود الحمراء ، فبدون فى ذلك اليوم الخالد ، جميلات مشرقا بغير تصنع أو إفراط فى الزينة .

وكانت مراسيم الزفاف بسيطة ، وكل ما فى الحفل طبعى ، وأحوال البيت تسير فى طريقها المعتاد ، حتى انزعجت العممة مارش ، حين رأت العروس تهرول إلى لقاءها مرحبة ، والعريس يشب بيديه إكليلا من الزهور ، ثم شاهدت الأب يصعد السلم وقد تأبط زجاجتين من النبيذ . وراعته هذه

التصرفات المستهجنة ، وضايقتها أن يخرج أقاربها على المألوف ، فصاحت بالعروس وأهلها تقول :

— والله إن تصرفاتكم أعجب ما يكون . أما أنت يا فتاة ، فما كان ينبغي أن تظهرى أمام المدعوين إلا فى اللحظة الأخيرة .
فقلت مبيج :

— إني لا أستعرض نفسى يا عمى ، ولن يأتى من ينتقد ثوبى ، أو يقدر تكاليف عرسى ؛ وسعادتى أعظم من أن أقيم وزناً لما يقول الناس عنى أو يظنون بى . إني أحتفل بزواجى على أسلوبى الخاص .
ثم التفتت إلى چون ، الذى كان مشغولاً بتثبيت إكليل الزهور ، وقالت :

— إليك مطرقتك يا عزيزى چون .
ثم أسرعته إليه تساعدته فى عمله الذى كان يجب أن يقوم به عريس موقر ، ولم يقل مستر بروك لمبيج « شكراً » ، ولكنه حين انحنى لياخذ المطرقة قبل العروس الصغيرة خلف الباب ، ونظر إليها نظرة مؤثرة ، جعلت العمة مارش تخرج مندليها ، وتمسح به الدموع التى غمرت عينيهما .

وعلا صوت ارتطام ، صاح بعده لورى وضحك ، ثم قال مستنجداً :
— يا للسماء !! لقد قلبت چو الكعكة مرة ثانية .
وساد البيت هرج قصير ، انتهى بوصول وفد من الأقارب والأصحاب .



واحتل مستر مارش والزوجان الشابان مقاعدهم تحت أقواس الزهور والورود

وعندما ازدحمت الغرفة بالمدعوين ، وعلا رأس لورى فوق رعوس
الموجودين ، دهمست العمة العجوز فى أذن آمى تقول :

— لا تدعى هذا الشيطان الصغير يقترب منى ، فهو يضايقنى أكثر
مما يضايقنى البعوض .

أجابت آمى :

— لقد أخذنا عليه وعداً بالهدوء ، وفى مقدوره أن يكون عاقلاً إن
أراد .

وتسللت إلى الفتى تحذره ، ليحتاط لنفسه من غضب التنين العجوز ،
ولكن التحذير أغراه بمعاكسة العمة ، فسار خلفها يتودد إليها ، حتى
ضاقت به أشد الضيق .

ولم يكن هناك موكب للعرس ، ولكن حين احتل مستر مارش
والزوجان الشابان مقاعدهم تحت أقواس الزهور والورود ، والتفت الأم
والأخوات حول ميج ، كأنما كرهن أن يتخلين عنها ، ساد صمت عميق ،
ثم بدأ الأب يتلو الطقوس ، وكان بالغ التأثير حتى تخاذل صوته مراراً ،
مما أكسب الموقف جلالاً ووقاراً . واضطرب العريس ، وارتجفت يده ،
وتتم بإجاباته فلم يسمعه أحد . أما ميج فقد نظرت إلى عيني زوجها مباشرة ،
وأجابت فى صوت رقيق : « سأفعل » ، وقد بدت آية فى الثقة والطهارة ،
مما أثلج صدر أمها ، ومس قلب عمتها العجوز .

وأحست چو برغبة شديدة فى البكاء ، ولكنها كانت تعلم أن عيني

الورى الماكرتين ترقبانها فى خليط من السرور والانفعال ، فكبتت دموعها ،
وتغلبت على أشجانها ، وبذلك خرجت من الموقف المؤثر منتصرة .

وظلت بث طول الوقت تخفى وجهها وراء كتف أمها ، أما آى فقد
وقفت مثل تمثال رشيق ، وكانت الشمس تلقى عليها شعاعاً ذهبياً مس
جبينها الناصع ، وأضاء الزهرة التى تحلى شعرها .

وما إن تمت المراسيم حتى صاحت ميج تقول :
— القبلة الأولى لأى .

ثم انحنى وطبعت على شفيتها قبلة حارة من أعماق قلبها . وكانت
العروس خلال الدقائق التى تلت عقد الزواج ، أشبه بوردة متفتحة
الأكام ، فأحاط بها الحاضرون يغمرونها بالقبل ، ويتقاضون منها حقوق
المحبة كاملة . ولم يتخلف عن واجب التهئة أحد ، من مستر لورنس
العجوز إلى حنا التى أقبلت تعانقها ، وهى تجهش بالبكاء فى صوت
مسموع ، وتقول :

— فليباركك الله يا عزيزتى مائة مرة ، إن كعكة الزفاف لم تصب
بسوء ، وكل شىء على ما يرام .

وعلى أثر ذلك انفض الحفل ، وترددت عبارات التهئة على كل لسان ،
وانطلقت ضحكات المرح مدوية ، فكانت أصدق صدى للفرح الذى
يملاً القلوب . ولم يشمل الحفل تقديم الهدايا ، لأن الهدايا كانت قد أرسلت
قبل ذلك إلى البيت الصغير ؛ ولم يكن هناك أيضاً إفطار بالمعنى الصحيح ،

ولكن كعكة العرس والفاكهة المزينة بالزهور ، كانت تملأ المكان . وقد ابتسم مستر لورنس والعمة مارش ، وهما كتفئهما ، حين دارت عليهما الكئوس ، فلم يجدا فيها سوى شراب الليمون والقهوة ، ولم يتكلم أحد في موضوع الشراب ، حتى ظهر لورى أمام العروس ، وبين يديه صينية محملة بالطعام ، وفي وجهه سيماء الحيرة والتساؤل ، وأصر الفتى على خدمة العروس بنفسه ، ثم همس فى أذنها يقول :

— هل هشمت چو زجاجات الشراب كلها ؟ أظن أننى رأيت بعضها هذا الصباح ، أو لعلى أكون قد توهمت ذلك ؟
فقلت ميج :

— لا . . . لست واهما ، فقد تفضل جدك وأهدانا خير نبيذه ، وكذلك فعلت العمة مارش ، ولكن أبى احتفظ بقدر قليل منه لبث ، وأرسل الباقي إلى معسكرات الجنود . وأظنك تعرف أن أبى لا يقر شرب النبيذ إلا فى حالات المرض ، وأمى تكره أن تقدم الحمر فى بيتها .
وكانت ميج تتكلم فى جد ، وكانت تتوقع أن ترى لورى يقطب جبينه أو ينفجر ضاحكاً من قولها ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، إنما نظر إليها برهة ثم قال :

— إنى أحترم هذه المبادئ القديمة ، ولقد شاهدت للخمر أضراراً كثيرة ، تجعلنى أتمنى لو كان للنساء كلهن هذا التفكير السليم .
قالت ميج بلهجة يشوبها القلق :

— أرجو ألا تكون قد تعلمت هذه الحكمة عن تجربة شخصية .
قال :

— لا . . . أؤكد لك ، ومع ذلك لا تفرطى فى حسن ظنك بى ،
فليس زهدى فى الخمر عن إيمان بل عن مزاج لا يميل إليها . لقد نشأت
فى بيئة ينساب فيها الشراب كما ينساب الماء بلا أدنى ضرر ، ولكنى لم
أتعلق به من تلقاء نفسى ، أما إذا قدمتها لى فتاة جميلة فهل ترين أن
أردها ؟

قالت :

— إن لم تردها من أجل صالحك ، فليس أقل من أن تردها إكراماً
لنا . تعالى إلى جانبي يا لورى ، وعدنى أن تقلع عن الخمر ، أكمل
جميلك ، واجعل من هذا اليوم أسعد أيام حياتى .

وتردد الفتى لهذا الطلب المفاجئ الخطير ، وكانت ميج تعلم أنه
يحترم وعوده مهما كانت النتيجة ، وكانت تشعر بقوتها ، وتحب أن
تستخدمها لخير صديقها ، فنظرت إليه فى صمت ، وقد أشرق وجهها
سعادة وإيماناً . قالت بابتسامة حلوة .

— إن اليوم يومى ، فلا يصح أن ترفض لى طلباً .
ولم يقوى لورى على الرفض ، فأجاب مبتسماً وهو يصافحها بإخلاص
وحرارة :

— أعدك يا مسز بروك .

قالت ميج :

— أشكرك شكراً كثيراً ، كثيراً جداً .

ورفعت چو يدها بكوب من عصير الليمون ، تحيي لورى بابتسامة الرضا والاستحسان ، وصاحت به تقول :

— فلنشرب نخب عزيمتك القوية طول العمر يا تيدى .

وشربوا نخب العهد الذى قطعه لورى على نفسه ، وحافظ عليه بإيمان على الرغم من المغريات الكثيرة . وقد انتهزت الفتيات بحكمتهن الفطرية هذه اللحظة السعيدة ، فأدين لصديقهن خدمة جليلة ، ظل يشكرهن عليها طول الحياة .

وبعد الغذاء تفرق المدعوون فى جماعات صغيرة ، يسرون فى البيت والحديقة ، ويمتعون أنفسهم بالشمس المشرقة فى الداخل والخارج . وتصادف أن وقفت چو وميج معاً وسط رقعة مغطاة بالحشائش الخضراء ، فطرات لذهن لورى فكرة لطيفة كانت خير ختام لهذا الحفل البسيط . صاح بالحاضرين قائلاً :

— فليمسك المتزوجون كل بيد الآخر ، ويدور الزوجان حول العروسين راقصين كما يفعل الألمان ؛ أما العزاب ، فيرقصون أزواجاً خارج الحلقة .

ثم أمسك بيد آمى ، وجعل يرقص معها بنخفة ورشاقة ومرح ، فحذا الباقون حذوهما دون اعتراض . وبدأت الحلقة بمسرح ومسرح مارش ، ثم



بالعم والعمة كارول ، وانضم الآخرون سريعا ، حتى سالى موفات ، فبعد أن ترددت قليلا ، دفعت ندى إلى الحلقة ، واشتركت فى الرقص . وكان ألطف ما فى هذه اللعبة المرحية أن تقدم مستر لورنس من العمة مارش العجوز ، يدعوها إلى مراقبته ، فما كان منها إلا أن تأبطت عصاها ، وهبت فى نشاط ترقص حول الزوجين . ودار الرقص فى الحلقة ، وانتشر الشباب فى أرجاء الحديقة ، كأنهم فراشات جميلة تفرح فى ظهيرة يوم من أيام الصيف .

وأخيراً تعب الراقصون ، فركنوا إلى الراحة وهم يلتقطون أنفاسهم ، وكان هذا خير ختام للحفلة المفاجئة ، التى جاءت دون سابق إعداد .

قالت العمة مارش لميج ، وهى تهم بالانصراف :

— أرجو لك كل الخير يا عزيزى ، أرجو لك الخير من صميم قلبي ،

ولكنى أعتقد أنك ستندمين على هذا الزواج .



ثم قالت للعريس ، وهو يقودها إلى العربة :
 — لقد فزت بكثير ثمين أيها الشاب الصغير ، فبرهن على أنك جدير به .
 وقالت سالى موفات لزوجها ، وهما يتجهان لمركبتهما الفاخرة :
 — هذا أجمل عرس شهدته منذ عهد طويل يا ندى ، ولست أدرى سر
 جماله ، وقد خلا من كل تنظيم وإعداد .

وقال مستر لورنس العجوز ، وهو يتحسس جوانب كرسيه المريح .
 — اسمع يا لورى ، يسرنى أن تندمج فى مثل هذا النوع من الحياة ،
 فاختر لك شريكة من أولئك الفتيات الصغيرات ، وبذلك تسعدنى وترضىنى .
 فقال لورى ، وهو ينزع الوردة التى وضعها چو فى عروة سترته ،

وقد تمثلت في لهجته الطاعة على غير العادة :

— سأبذل جهدى فى إرضائك يا سيدى .

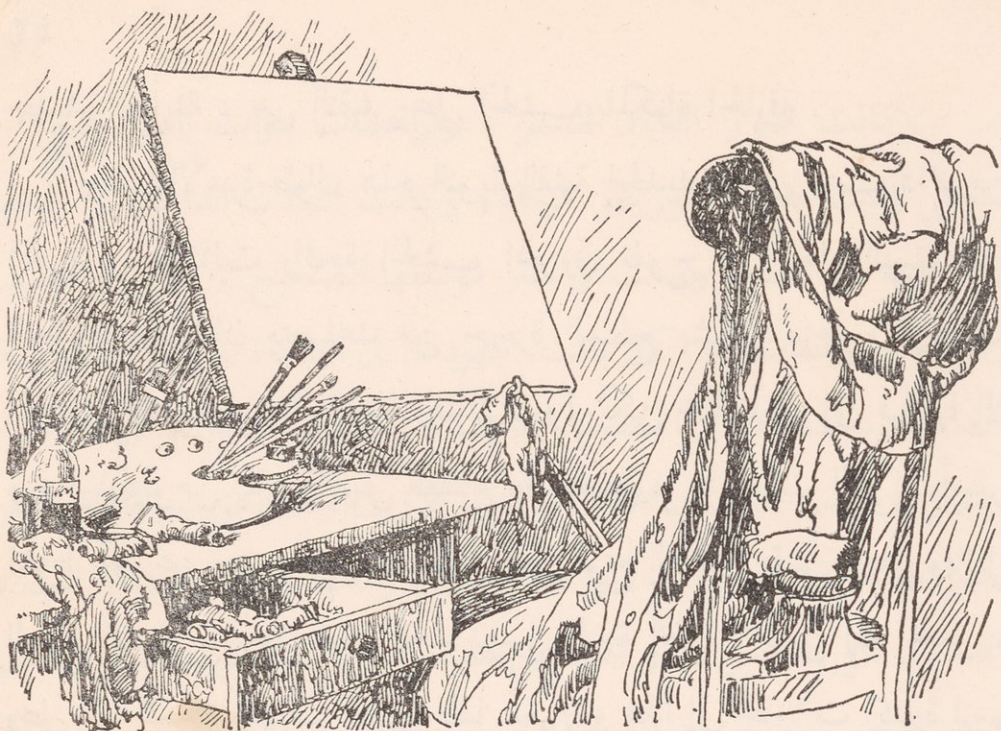
ولم يكن عش الزوجية بعيدا ، فسار العروسان عليه مشياً على الأقدام ، وكانت هى رحلة الزواج الوحيدة التى تمتعت بها ميج . وعندما خرجت الفتاة من بيت أبيها ، فى ثوب ملون وقبعة بيضاء ، أحاط بها الأهل والأصدقاء ، يودعونها بحرارة ، كأنما هى فى طريقها إلى رحلة طويلة . والتفت إليهم ميج شاكرة ، ثم تعلقت بأُمها وهى تقول فى صدق وإخلاص :
— أرجو ألا تشعري بأنى تركتك يا أماه ، ولا تظنى أن حبي لحون نال من حبي لك .

وانشنت إلى أبيها تقول :

— سأزورك كل يوم يا أبى ، وأرجو ألا تضعف مكانتى من قلوبكم بعد الزواج ، وسنقضى مع بث أوقاتا طويلة جميلة ، وستأتينى الفتيات الأخريات بين آن وآن ، ليضحكن من جهادى فى إدارة شئون البيت ...
شكراً لكم جميعاً على ما هيأتم لى من زفاف سعيد . . . ومع السلامة . . .
مع السلامة . . .

ووقفوا يرقبونها بوجوه ممتلئة بالحب والأمل والفخار ، وتبعها عيون الوفاء ، وهى تسير مستندة إلى ذراع زوجها ، والزهور ملء يديها ، وشمس الصيف تضيء جبينها المشرق السعيد .

وهكذا بدأت ميج حياتها الزوجية .



الفصل السادس والعشرون

محاولات فنية

ليس من السهل على أهل الطموح من الشباب أن يفرقوا بين الموهبة والعبقرية، فالتفرقة بين هذه وتلك تأتي مع الزمن والتجربة؛ وقد حاولت آمل أن تصل إلى نتائج مرضية خلال تجاربها الفنية الطويلة، ولكنها لم تكن تفرق بين الحماسة والوحي الفني، فراحت تجرب حظها بجرأة الشباب في كل درب من دروب الفن. وعندما هبطت حماسها في فن « الفطائر الصلصالية »، اتجهت إلى الرسم بالقلم والممداد، فكشفت رسومها عن خبرة واستعداد. ولكن الجهد أرهق عينيها، فهجرت القلم والممداد إلى محاولة

جديدة جريئة ، هى النقش على الخشب بالمكواة الحارقة .

وظلت الأسرة طوال هذه النوبة الفنية الجديدة ، فى رعب دائم من الحريق ، وكانت رائحة الخشب المحروق تفوح فى أرجاء البيت على الدوام ، والدخان يتصاعد من حجرة السطح بشكل مزعج . وكانت المكاوى المتوهجة متناثرة هنا وهناك ، ولم تكن حنا تأوى إلى فراشها إلا وبجانباها دلو من الماء وناقوس العشاء ، لتستعملهما إذا شبت النار . وأسفر نشاط آمى عن جهود فنية عظيمة : فعلى لوح العجين نقش وجه روفائيل الرسام الشهير ، وعلى فوهة أحد براميل البيرة أطل باخوس إله الخمر ، وعلى آنية السكر ظهرت صورة طفل يغنى ، هذا إلى محاولات كثيرة لرسم روميو وجولييت فى كل ركن من أركان البيت .

وكان طبيعياً أن تنتقل الفنانة الصغيرة إلى الرسم بالزيت ، بعد أن أصابت المكواة أصابعها الحميلة بحروق كثيرة ، فوضعت همها فى فنا الجديده ، وانصرفت إليه بهمة لا تعرف الكلل . وأعطاها صديق فنان بعض الأطباق والفرش والألوان التى استغنى عنها ، فبدأت تخلط الألوان وترسم منها مناظر برية وبحرية لا تشبه شيئاً فى البر أو البحر . وكانت تبالغ فى تصوير المواشى ، فترسم الحيوانات ضخمة تستحق أعظم الجوائز فى أى معرض زراعى ، وكانت ترسم السفن فى أوضاع خطيرة ، تبعث دوار البحر فى رعوس أكثر البحارة خبرة بالملاحة ، هذا إلى الأخطاء المضحكة ، التى تدل على جهلها التام بأبسط القواعد المعروفة فى بناء السفن .

وكانت صور الفتیان السمر ، والراقصات ذوات العيون السود ،
توحى إليك بطريقة موريللو الرسام ؛ وكانت الظلال الداكنة في الوجوه
بما عليها من خطوط وضعت في غير موضعها الصحيح ، تذكرك بأسلوب
الرسام رامبراندت ، كما بانث جهودها في محاكاة روبنز بتصويرها
نساءً سمينات وأطفالاً منتفخی الأجسام . وظهرت تجاربها في الاقتداء
بتيرنر في رسم العواصف العاصفة بالرعد الأزرق والصواعق البرتقالية والمطر
البنى والسحب القرمزية ، التي وضعت في وسطها بقعاً طماطمية اللون ،
قد تدل على الشمس ، أو تدل على قميص بحار ، أو ثوب ملك ، حسبما
يسر الناظر إلى الصورة أن يعتقد .

وانتقلت من الرسم بالزيت إلى الرسم بالفحم ، فصنعت صوراً لجميع
أفراد العائلة ، وعلقتها على الحائط في صف واحد ، ولكن نظرات العيون
التي رسمتها كانت زائغة ، وكانت الوجوه مغبرة كأنما خرج أصحابها لتوهم
من صندوق الفحم . وحين استبدلت الفحم بالقلم ، تحسنت الصور ،
واقترب الشبه من الحقيقة ، فأتقنت التعبير عن شعر بث وأنف چو وفم
ميج وعيني لورى . وأعقب الفحم عود إلى فن الطين والصلصال ، فملأت
أحى أرجاء البيت تماثيل ممسوخة لأصدقائها ومعارفها ، وكان بعض هذه
التماثيل يسقط على رءوس الناس من فوق الرفوف التي ازدحمت بها . واتخذت
من الأطفال نماذج تماثيلها ، حتى ضاق الأطفال ذرعاً بأفعالها الغريبة ،
فأطلقوا عليها اسم « الغولة الصغيرة » . ولما لم تجد نماذج جديدة ، بدأت تصنع

تماثيل لقدميها الجميلتين ، وكانت هذه خاتمة نشاطها ، إذ حدثت لها
حادثه جعلتها تكف عن هذا العمل الفني : كان ذلك يوم روعت أفراد
الأسرة بصراخها الشديد ، وسمعوا استغاثتها آتية من المرسم ، فلما أسرعوا
إليها يتبينون الخبر ، وجدوا المثالة النشيطة تحاول عبثاً أن تخرج قدمها
من قصعة الجبس الذي تجمد حولها في سرعة غير منتظرة . و بصعوبة
شديدة أمكن تخليص قدمها بعد أن تعرضت لبعض الخطر ، فقد غاصت
مدية چو في العجينة المتجمدة وجرحت آمی ، وهكذا تركت على القدم
الجميلة ندبة تحمل ذكرى دائمة للمحاولة الفنية الفاشلة .

وبعد أن هدأ نشاط آمی بعض الوقت ، عادت فغلبت عليها نوبة
جديدة للرسم من الطبيعة ، فلازمت النهر والحقول والغابة ، تنقل عنها
مناظرها الخلابة . وكانت تسعى وراء الخرائب في كل مكان ، فتصورها
إرضاء لنزعتها الفنية ، وطالما تعرضت للبرد الشديد وهي جالسة على الحشائش
الرطبة تلتقط منظرًا من هنا ومنظرًا من هناك . وكان يستهويها شكل الصخور
المتجمعة ، وبقايا جذوع الأشجار ، ونبات « عش الغراب » ، والسماء
الملبدة بالغيوم ، فترسمها على الورق ، غير آبهة لتقلبات الجو ، حتى
بلغ تحمسها لفنها ، أن حرقت أشعة الشمس بشرتها ، وهي تدرع النهر
في قاربها ، لدراسة الأضواء الظلال .

وإذا كانت العبقرية هي الصبر الخالد ، كما يقول ميكائيل أنجيلو ،
فقد كان لآمی من هذه المنحة الإلهية نصيب مذكور ، لأنها صبرت

وثابرت ، على الرغم من العوائق والعقبات ، وصورت الفشل والسخرية والاستهانة ، التي صادقتها في جهادها ، وسارت في طريقها ، وهي شديدة الإيمان بأن سيأتي اليوم ، الذي تنتج فيه شيئاً خليقاً بخلود الفن الرفيع . ولم تقصر آمل جهودها على الرسم ، إنما تعلمت في الوقت ذاته ، وتمتعت بأمور كثيرة ، وكانت قد عزمت فيما بينها وبين نفسها على أنها إذا لم توفق في فنّها ، فلا أقل من أن تكون امرأة كاملة جذابة . ونجحت آمل في هذه الناحية أكثر من نجاحها في الرسم ، لأنها كانت من أولئك المخلوقات السعيدات ، اللواتي يفيضن على ما حولهن بهجة بغير جهد ، فيجتذبن الأصدقاء في كل مكان ، ويملأن الأجواء سروراً ومرحاً . كانت واحدة ممن يأخذن الحياة بسهولة يحسدهن عليها من هن أقل حظاً ، وينسبن ذلك إلى أنهن ولدن تحت نجم طالعه سعيد .

كان كل إنسان يحب آمل ، فمن مزاياها أنها كانت تعرف بفطرتها ما يسر غيرها ، وتدرّك ما ينبغي أن يقال لهم ، ولذلك كانت تضع كل شيء في موضعه ، وتخطب كل شخص بما يرضيه ، وتتصرف بما يناسب الزمان والمكان على أحسن وجه وأتمه . وكانت آمل قادرة على ضبط نفسها ، كما كانت لبقة واسعة الحيلة ، حتى إن أخواتها اعتدن أن يقلن عنها : « إن آمل إذا ذهبت إلى قصر ملك ، دون إعداد سابق ، وبغير تدريب على ما ينبغي أن تفعل هناك ، ففي مقدورها أن تحسن التصرف من تلقاء نفسها ، وتسلك المسلك اللائق لمثل هذا الموقف » .

وكانت إحدى نواحي ضعفها ، رغبتها في الظهور ، وحبها للاختلاط بأرقى المجتمعات ، دون فهم لحقيقة هذه المجتمعات ، أو إدراك لمعاني الرقي الصحيح ، فلم يكن يروق لها سوى المال والجاه والأزياء الحديثة والسلوك الأنيق . وكانت تميل دائماً إلى مصاحبة من تتوفر فيهم هذه الشروط ، ولكن كثيراً ما كان يختلط عليها الأمر ، فتخدع بالعث عن السمين ، وتعجب بما لا يستحق الإعجاب . ولم تكن تنسى أبداً أنها سيدة عريقة الأصل ، لذلك ظلت حريصة على تنمية ذوقها ومشاعرها الأرستقراطية ، حتى إذا سنحت لها الفرصة يوماً ، كانت على أتم استعداد لتأخذ مكانها الذي سلبها إياه الفقر في العهود الأخيرة .

وكانت « السيدة » كما كان يدعوها أصدقائها ، ترغب صادقة في أن تصبح سيدة بمعنى الكلمة ، وفي الحق أنها كانت في جوهرها ومعدنها تلك السيدة الأصلية . ولكن الحكمة كانت تنقصها ، لتدرك أن المال لا يستطيع أن يخلق الأصل العريق ، وأن الألقاب لا تضاف على أصحابها نبل المحتد ، وأن حسن التربية وطيب العنصر ، يمان عن نفسيهما ، ولا يمكن لعوامل الفقر أن تخفيهما .

ودخلت آمي على أمها ذات يوم تقول وعلى وجهها سيماء الاهتمام :
— ماما ، أريد أن تسدي إليّ معروفاً .

أجابت الأم ، وكانت لا تزال آمي في نظرها طفلة ، بالرغم من مظهر العظمة الذي تبدو فيه :

— حسناً يا فتاتي الصغيرة ، ماذا تريد منى ؟

قالت :

— إن دروس الرسم تنتهى فى الأسبوع القادم ، وأود أن أدعو زميلاتي لقضاء يوم معى ، قبل أن تفرقنا عطلة الصيف ، فهن متلهفات على رسم النهر والقنطرة المحطمة ، وغيرهما من المناظر التى أعجبتهن فى كراستى . لقد كن كريمات معى فى مواقف كثيرة ، ولم يقمن بينى وبينهن فروقا ، رغم فقرى وثرأتهن ، وأشعر أنى مدينة بالشكر لهن .

قالت مسر مارش ، تسأل ابنتها فى كبرياء :

— ولماذا يقمن الفروق ؟

قالت آمى :

— لأن هناك فروقا يا أماه ، وهذه الفروق قائمة فى نظر كل إنسان تقريباً ، فلا تغضبى ، كما تغضب الدجاجة حين ترى فراريجها الصغيرة تنقرها طيور أرقى منها . أنت تعرفين قصة البطة الدميمة ، التى نمت فصارت بجمعة جميلة .

وضحكت آمى بلا مرارة ، لأنها كانت بطبعها ذات هدوء ومرح وتفاؤل .

وضحكت مسر مارش ، وقد هدأت كبرياء أمومتها ، ثم قالت :

— حسناً يا بجعتى العزيزة ، ماذا تقترحين أن نفعل ؟

قالت :

— أحب أن أدعو البنات لتناول الغداء معى فى الأسبوع القادم ،
وأصطحبن إلى الأماكن التى يرغبن فى مشاهدتها ، ونغضى معاً بعض
الوقت فى نزهة نهريّة ، أريد على العموم أن أقيم لهن وليمة يتجلى فيها الفن
بأجلى معانيه .

قالت الأم :

— هذا ممكن ، فماذا تريدن فى الغداء ؟ كعك وشطائر وفاكهة
وقهوة ؟ هذا يكفى على ما أظن .

قالت الفتاة :

— لا . . . يجب أن نقدم لهن لسانا بارداً ، ودجاجاً مشوياً ، وشكولاتة
على الطريقة الفرنسية ، ومشروبات لذيذة متنوعة ، فالبنات معتادات
تناول هذه الأصناف ، وأود أن يكون الغداء كاملاً ممتازاً ، بالرغم من أنى
أعمل لأعيش .

سألتها أمها :

— وكم عدد البنات ؟

قالت :

— اثنتا عشرة بنتاً أو أربعة عشرة على الأكثر ، ولكنهن لن يأتين
جميعاً .

قالت الأم :

— كان الله فى عونى ، هذا العدد يحتاج إلى سيارة عامة .

قالت آمى :

— لا تخافى يا أماه ، فلن يحضر أكثر من ست بنات أو ثمان ،
وسأستأجر لمن عربية الشاطيء ، وأستعير عربية الرحلات من مستر لورنس .
قالت الأم :

— ولكن هذا يكلفك كثيراً يا آمى .

قالت :

— ليس كثيراً جداً ، فقد حسبت التكاليف ، وسأدفعها كلها من جيبي .
قالت الأم :

— ولكن ، ألا ترين من الأوفق لأولئك الفتيات أن نقدم لمن شيئاً
غير ما اعتدن عليه ؟ إنهن معتادات تناول الأطعمة الفاخرة كل يوم ،
وسيكون أدعى لسرورهن ، أن يأكلن شيئاً بسيطاً على سبيل التخيير . هذا
الحل يرضينا أيضاً ، ويكفينا مؤونة الشراء والاستعارة ، وهو ما لا نريده ،
فليس من المستحب أن نظهر بغير حقيقتنا .

قالت آمى ، وقد بدا عليها الإصرار الذى لا تزيده المعارضة إلا عناداً :

— إذا لم أستطع أن أحقق ما أريد ، فلن أقيم الوليمة . أنا متأكدة
من قدرتى على القيام بالواجب ، مع بعض المعونة منك ومن أخواتى ،
ولست أرى سبباً يمنعنى من تحقيق أمنيى ، ما دمت سأدفع التكاليف كلها .
وكانت مسر مارش تؤمن بأن التجربة خير معلم للإنسان ، ولذلك
كانت تترك بناتها يتعلمن من الحياة ما يعارضن فى تعلمه منها ، فقالت :

— حسناً يا آمى ، ما دمت قد عقدت النية وتبينت موقفك وحسبت للأمر حسابه ، بحيث لا يكلفك كثيراً من المال ، والوقت والجهد ، فليس عندى ما أقوله بعد ذلك . شاورى أخواتك فى الموضوع ، ولن أتردد فى معونتك على ما تقررين أيا كان .

قالت :

— أنت دائماً رحيمة بى ، فشكراً لك يا أماه .

وخرجت آمى تعرض الأمر على أخواتها ، فوافقت ميج فوراً ، ووعدت بالمساعدة ، وعرضت أن تعيرها كل ما فى بيتها من ملاعق الملح . أما چو فقد قطبت جبينها ، ولم توافق على المشروع كله ، ورفضت بادئ الأمر أن تشترك فيه . وكانت آمى قد فاجأتها بالحديث وهى تفكر فى خاتمة مفاجئة للقصة التى تكتبها ، فقطعت عليها سلسلة تفكيرها ، وبذلك جعلتها غير مستعدة للحديث فى موضوع الولايم الاجتماعية السخيفة ، قالت :

— وما الذى يدعوك إلى إنفاق نقودك ، وإرهاق أسرتك ، وقلب البيت رأساً على عقب ، من أجل حفنة من البنات لا يساوين شيئاً ؟ ظننت أن فيك من الكبرياء والعقل ما يمنعك من إذلال نفسك لفتيات ميزتهن الوحيدة أنهن ثريات يرتدن الأحذية الفرنسية ، ويركبن العربات المقفلة .

قالت آمى فى غضب ، وكانت على عهدتها ، لا تتأخر عن الشجار مع چو ، إذا عرضت لها الفرصة .

— أنا لا أذل نفسي لأحد ، وأكره أن تكلميني بهذه اللهجة ،
وليكن في علمك أن البنات يملن إلى صحبتي ، كما أميل إلى صحبتهن ، هذا
إلى أنهن على قدر كبير من العقل والمواهب ، على الرغم من رأيك فيما
تسمينه « الموضة السخيفة » . قد لا يهملك أن يحبك الناس ، وقد لا يروك
أن تشركي في المجتمعات الراقية ، لتهدبي ذوقك وطباعك ، ولكني على
العكس منك أهتم بكل ذلك ، وأريد أن أستفيد بأكبر قسط ممكن من
الفرص التي تسنح لي . سيرى في العالم إن شئت رافعة الرأس مغرورة ، ثم
سمى سلوكك العجيب استقلالاً ، أما أنا فليست هذه طريقتي في
الحياة .

وكان في مقدور آمي ، إذا ما شحذت سنان لسانها ، وأعملت
قريحتها ، أن تحسن الكلام ، وقلما كان المنطق السليم يخذلها ، على حين
كانت چو تعتر بجريرتها ، ولا تهمها التقاليد ، وتبالغ في ذلك إلى حد بعيد ،
مما يورثها الهزيمة في الجدل . وكان تعريف آمي لرأي چو في الاستقلال ،
تعريفاً بارعاً ، حمل الأختين الأخريين على الضحك ، فزال التوتر ،
واتخذت المناقشة اتجاهاً مرضياً . وأخيراً قبلت چو ، على غير هواها ،
أن تضحى بيوم لأختها المتعاطمة ، وأن تمد يد المساعدة لآمي ، فيما تعتقد
أنه عمل فارغ .

وأرسلت الدعوات ، وحدد يوم الاثنين التالي موعداً للحادث العظيم ،
وقبلت الدعوات كلها ، ولم تعتذر واحدة من البنات . ولكن الأمور لم تبد

مشجعة ، إذ فقدت حنا بشاشتها ، لأن الوليمة ستربك عملها الأسبوعي ،
وتنبأت بأنه إذا لم يتم الغسل والكي في موعهما ، فلا أمل في انتظام البيت .
وكان شعار آمى ألا شىء يدعو إلى اليأس ، ولذلك كانت تنفذ قراراتها
مهما صادفها من عقبات . وكانت أول صدمة أن فشلت حنا في طهى
الدجاج ، فجاء لحمًا جامدًا ، وأسرفت في تثبيل اللسان ، فكان مذاقه غاية
في الملوحة ، كما أن الشكولاتة لم تتجمد كما يجب ، وزادت تكاليف
الكعك والمثلجات كثيرًا عما توقعت آمى ، وكذلك جاوزت أجرة العربة
تقديراتها السابقة ، واقتضى الحال مصروفات استثنائية ، بدت في أول
الأمر تافهة ، ولكنها تضخمت عن الحساب تضخمًا مزعجًا . وأصبحت
بث بالبرد فلزمت فراشها ، ووفد على ميج زوار مفاجئون ، فاضطرت إلى
البقاء معهم في بيتها ، وكانت چو شاردة الفكر إلى أبعد حد ،
فزادت أخطاؤها ، وكثر تحطيم الصحون على يديها بصورة خطيرة
مزعجة .

ولقد قالت آمى يوما — بعد مضي وقت طويل من هذه الوليمة ، التي
أطلق عليها أفراد الأسرة « أحسن نكتة في الموسم » — وكانت ما تزال
تذكر دور أمها شاكرة :

— لولا والدتي ما استطعت أن أخرج من المحنة بسلام .

وكان الرأى قد اتفق على أن الجحو إذا لم يكن حسنًا يوم الاثنين ،

تؤجل الدعوة إلى اليوم التالى ، وهو ترتيب زاد الأمر تعقيداً فيما يختص
بجو وحنا .

وجاء صباح الاثنين بجو قلق لا يستقر على حال ، فكانت السماء
تمطر قليلاً ثم تسكت ، وتصحو الشمس ثم تختفى ، وتهب الرياح ثم
تهدأ ، ولم يلزم الجو حالة واحدة ، ظلت التغيرات تتوالى إلى وقت متأخر .
وكانت آمى قد استيقظت مع الفجر ، وأخذت توقظ أخواتها من فرشهن ،
وتستحيهن على تناول أفطارهن مبكراً ، حتى ينتظم البيت فى الوقت المناسب .
واستوقفت حجرة الاستقبال نظرها ، إذ بدت قديمة رثة أكثر مما يجب ،
فبدلاً من أن تكتفى بالحسرة والأسف ، سارعت إلى الكراسى ، فوضعتها
فوق الأجزاء البالية من البساط ، وأخفت البقع الموجودة على الجدران
بصور ذات أطر جميلة ، وملأت الزوايا الفارغة بتماثيل صنعتها فى البيت .
وكانت جهوداً موفقة ، أضفت على الحجرة رواءً فنياً ازداد رونقاً وبهاءً
بأصص الزهور التى نثرتها جو هنا وهناك .

وبدا الطعام جذاباً ، وتمنت وهى تستعرضه بنظرها أن يكون شهياً ،
وتضرعت إلى الله من قلبها أن تعود الأواني الزجاجية والفضية والخزفية ، التى
استعارتها لهذه الوليمة ، سليمة إلى أصحابها . وصدر الأمر بإرسال العربات ،
ووقفت ميج والأم على استعداد لاستقبال المدعوين ، واستطاعت بث
أن تساعد حنا قليلاً فى الخفاء ، وحرصت جو أن تبدو لطيفة المعشر ،
بقدر ما يسمح به صداعها وشرودها وقلقها . وبينما كانت جو ترتدى

ملابسها في ملل ، راحت آلى تسلى نفسها ، ففتخيل ما سىحدث فى اللحظة السعيدة ، حين ينتهى الغداء بسلام ، فتأخذ صديقاتها فى العربة لقضاء المساء فى نشوة فنية ، وكانت العربة المفتوحة ، والقنطرة المحطمة ، من أهم عناصر النزهة المرجوة .

ومرت ساعتان فى الانتظار ، كانت فىهما دائبة على التنقل بين غرفة الجلوس والبهو ، وكان الرأى العام العائلى يتغير من لحظة إلى لحظة ، فيما يختص بالوليمة . وأمطرت السماء مدراراً فى الساعة الحادية عشرة ، مما أقنع المنتظرات بأن حماسة المدعوات لابد أن تكون قد فترت ، بدليل أن واحدة منهن لم تحضر بعد . ومضى الوقت ولا أثر للمدعوات ، فلما بلغت الساعة الثانية مساءً ، جلست الأم وبناتها فى بقعة مشمسة يأكلن الأصناف السريعة التلف ، حتى لا يضيع شىء من الوليمة هباء .

وفى صباح اليوم التالى ، أيقظت أشعة الشمس آلى من نومها ، فقالت فى نشاط وخفة :

— إن الجو جميل بلا شك ، ولا بد من حضورهن اليوم ، فلنلق نظرة على البيت ، ونستعد لاستقبال المدعوات .

ولكنها كانت تتمنى فى أعماق نفسها ، لو أنها لم تعط ضيفاتها فرصة يوم الثلاثاء أيضاً ، بعد أن ضعف اهتمامها بالمأدبة ، وذبلت حماسها كما ذبلت كعكتها .

وبعد نصف ساعة ، قدم مستر مارش من الخارج ، وعلى وجهه

مسحة من اليأس الهادئ ، وهمس في أذن زوجته قائلاً :
 — لم أجد اليوم سمكاً في السوق ، فلا مفر من الاستغناء عن سلطة
 المايونيز .

فقالت زوجته :

— يصح أن نستعويض عنه بنسائل من لحم الدجاج ، وإن كانت
 أخشن من السمك .

فقالت بث لأختها في أسي :

— لقد تركت حنا الدجاج على مائدة المطبخ ، فالتهمته القطط ، وإني
 شديدة الأسف يا أمي .

وكانت بث ما زالت على عهدها مغرمة بالقطط ، وتقتنى عدداً
 مذكوراً منها .

فقالت أمي بحزم :

— إذاً لا بد من السمك بأي شكل ، فاللسان وحده لا يكفي .

انبرت چو تقول في نخوة المستشهدات :

— هل أذهب إلى المدينة وأشتري سمكة ؟

أجابت أمي ، وقد بدأت تفقد سيطرتها على نفسها :

— ستعودين بها إلى البيت ، تحمليها تحت إبطك عارية من الورق ،

فتثيرين غيظي وحنفي . لا ، سأذهب بنفسى لإحضارها .

وأسدلت نقاباً على وجهها ، وحملت في يدها سلة صغيرة ، وخرجت

من البيت وكلها أمل في أن تهدي برودة الجو ، في العربة العامة ، من روعها ، وتعيد إليها نشاطها ، فتحمل متاعب اليوم راضية . واستطاعت أن تحصل على بغيتها بعد عناء غير قليل ، كما ابتاعت زيتاً مجهزاً للمايونيز ، حتى توفر الوقت في البيت بعد هذا التأخير ، ثم عادت بالسيارة العامة مسرورة بما فعلت .

ولما لم يكن بالعربة غير عجوز نائمة في مقعدها ، فقد رفعت آمي النقاب عن وجهها ، ووضعته في جيبها ، وراحت تقطع الوقت بمراجعة نقودها ومصرفاتها . وانهمكت في الأرقام التي ملأت الورقة ، فلم تلاحظ وجود قادم جديد ، دخل العربة دون أن تقف لركوبه ، ولم تشعر إلا بصوت يهتف بها قائلاً : « صباح الخير يا آنسة مارش » . . . فرفعت رأسها إلى محدثها ، وإذا بها وجهاً لوجه أمام أحد أصدقاء لوري المتأنقين . وردت التحية في عذوبة ورقة ، وهنأت نفسها على أنها ارتدت ثوب الرحلات الجديد ، وتجاهلت تماماً سلة السمك الرابضة عند قدميها ، وراحت تتمنى أن يعجل الفتى بترك العربة قبلها . وظلت آمي تتحدث إلى السيد في لهجة متعالية ، وقد استراح بالها حين علمت منه أنه سيغادر العربة قبلها ، وعلى حين غرة قامت السيدة العجوز تهيأً للانصراف ، فاصطدمت بالباب ، وقلبت السلة رأساً على عقب ، فظهرت السمكة — لهول الفضيحة — أمام عيني السيد الوجيه الذي ينحدر من سلالة آل تيودور !
وصاح الفتى وقد ظن أن السمكة للعجوز :

— يا إلهي !! لقد نسيت عشاءها !

ثم أخذ يدفع السمكة بعصاه ، حتى أعادها إلى مكانها من السلة ،
وأمسك بالسلة يريد أن يعطيها للسيدة العجوز ، فصاحت به آى ، وقد
احمر وجهها احمراراً شديداً :

— أرجو ألا تفعل ذلك . . . إنها سلتى !

فقال الفتى بلباقة تؤكد أدب أبناء الأسرة العريقة :

— أرجو المَعذرة . . إنها سمكة جميلة لم يسبق أن رأيت لها مثيلاً .

وتنفست آى الصعداء ، وتماكت روعها من جديد ، فوضعت السلة

فوق المقعد بشجاعة ، وقالت ضاحكة :

— ألا تحب أن يكون لك نصيب من المايونيز الذى سأصنعه بهذه

السمكة وأن تتمتع بصحبة الفتيات الرشيقَات اللاتي سيأكلنها ؟

وكانت عبارتها هذه غاية فى الكياسة والمهارة ، فقد أرضت بها

نزوتين من نزوات الشباب ، إذ أحاطت السمكة بهالة من المعانى السارة ،

وأثارت فى ذات الوقت اهتمامه بالفتيات الأنثىقات ، فأبعدت ذهنه عن

الحادث المضحك .

وعندما نزل تيودور من العربة ، وانحنى يودع آى ، قالت فى نفسها :

— سوف يروى للورى ما حدث ، وسوف يضحكان ما شاء لهما

الضحك ، ولكن يعزّينى أننى لن أراهما وهما يسخران منى .

وحين عادت آى إلى البيت ، لم تذكر الحادث لأحد ، وإن كانت

قد اكتشفت في ثوبها بقعة من الزيت ، الذي سال من الزجاجة عندما انقلبت السمكة ، ولكنها لم تلبث أن شغلت عن البقع بإعداد الطعام والاستعداد للوليمة .

وعند الظهر تماماً ، كان كل شيء على ما يرام ، وكانت تشعر طول الوقت أن الجيران يرقبونها ، مما جعلها ترجو من كل قلبها ، أن يمحو الله أثر فشلها في اليوم السابق ، وأن يعوضها عنه بنجاح عظيم . ولم يطل بها الانتظار ، فقد جاءت العربية المكشوفة ، فركبت فيها بعظمة ، ثم ذهبت تحضر ضيفاتها ، وترحب بهن .

قالت مسر مارش وهي تهرع إلى البهو :

— هذا صوت العربية ، وأظن أنهم وصلن ، وسأذهب إلى الردهة لاستقبالهن كما تقضى الأصول ، فإني أرجو أن تقضى طفلى العزيزة وقتاً طيباً ، بعد ما تحملته من متاعب كثيرة .

ولكن ما ألفت نظرة ، حتى عادت أدراجها ، وعلى وجهها أبلغ آيات الأسف ، فقد كانت العربية فارغة إلا من آى وفتاة واحدة أخرى .

وصاحت چو ، وهي تسرع إلى الدور الأسفل ، في انفعال منعها من الضحك :

— أسرعى يا بث ، وساعدى حنا على رفع نصف الأدوات الموضوعة على المائدة ، فليس من المعقول أن تبقى على حالها لفتاة واحدة .

ودخلت آى البيت فى غاية من الهدوء ، وأقبلت بكل جوارحها على ضيفتها الوحيدة ، التى حافظت على وعدها ، وقام أفراد الأسرة جميعهن بأدوارهن فى دقة وبراعة ، ووجدتهن الآنسة ألبوت غاية فى اللطف والظرف ، فساد الجو شعور مرح ، وتقاسمن الطعام الذى أعيد إعداده ، بسرور بالغ .

وزارت الضيفة الاستوديو والحديقة ، وتناقشت بحماسة فى شئون الفن ، ثم استأجرت آى عربية صغيرة ، وتركت المكشوفة المطهمة وهى آسفة ، وطافت بصاحبها فى جميع الأماكن المجاورة ، حتى غربت الشمس ، وعندئذ استأذنت الضيفة فى الانصراف ، وبذلك انتهت المأدبة .

وعادت آى بعد أن ودعت صاحبها ، وقد غلبها الانهاك والإعياء رغم هدوئها الظاهرى ، فوجدت أن آثار الوليمة التعسة اختفت ، ولم يبق منها إلا تقطية مربية على وجه أختها چو .

قالت أمها بحنان وعطف ، كأن ضيفات ابنتها لم يتخلفن عن الحضور :

— أرجو أن تكونى قد استمتعت بجولة مسلية بعد الظهر يا عزيزتى .

قالت بث بجرارة :

— إن مس ألبوت فتاة لطيفة جداً ، وأظن أنها تمتعت بوقتها ونزهتها .

سألها ميج فى رزانة :

— أتنزلى لى عن جزء من الكعكة يا آى؟ إننى فى الحقيقة ، محتاجة

إلى بعض منها ، فعندى ضيوف كثيرون ، وليس باستطاعتى أن أصنع

كعكة لذيذة مثلها .

قالت آمى آسفة ، وقد جال بخاطرها ما صارت إليه الأصناف الكثيرة اللذيذة التي صنعتها :

— خذنها كلها يا ميج ، فليس في البيت من يحب الحلوى سوى ، وستفسد الكعكة قبل أن آتى عليها .

وعندما جلس أفراد الأسرة ، لثاني مرة في خلال يومين ، يأكلون ما تبقى من المايونيز والمثلجات ، قالت چو تفتح الحديث :

— من المؤسف أن لا يكون لورى معنا ، ليقاسمنا هذا الطعام اللذيذ . وحدجتها والدتها بنظرة تحذير ، فكفت عن الاسترسال في إبداء ملاحظاتها ، ومضى الأكل في جو من الصمت ، قطعه مستر مارش قائلا :

— كانت سلطة المايونيز من الأصناف المحببة عند القدماء ، وكانت .. وهنا انفجرت البنات ضاحكات ، وقطعن على العالم الوقور حديثه عن تاريخ سلطة المايونيز .

قالت آمى ، وهي تجفف دموعها :

احزى كل شيء ، وضعيه في السلة ، وأرسله إلى أسرة هاميل ، فالألمان يحبون الأكل ، ولقد مللت منظر أكداس الطعام هذه ، ولست أرى داعياً لأن تصيبوا أنفسكم بالتخمة ، بسبب تصرفاتي الحمقاء .

وتهدت چو ، ثم قالت ضاحكة :

— كدت أموت حزناً حين رأيت العربدة فارغة إلا منكما ، ثم شاهدت والدتي تدلف إلى الباب ، لاستقبال الجموع استقبالا رسمياً حافلاً .

قالت مسر مارش والأسى يملأ قلبها :

— يؤسفني أن خيب الفتيات أملك يا عزيزتي ، ولكننا بذلنا جميعاً غاية جهدنا ، لنرضيك ، وندخل على قلبك السرور .

أجابت آمى ، وفي صوتها رجفة ظاهرة :

— إني راضية كل الرضا ، وعزائي أنني قمت بواجبي ، ولم تفشل الوليمة لخطأ مني . شكراً لكن جميعاً ، على جهودكن ومساعدتكن ، وسأكون أكثر شكراً وتقديراً ، لو أمسكتن عن الحديث في هذا الموضوع ، لمدة شهر على الأقل .

ولم يشر أحد إلى الموضوع شهوراً عدة ، وإن كانت كلمة « وليمة » تثير الابتسام على الشفاه كلها ، وكانت هدية لورى لآمى في عيد ميلادها ، تعويذة على شكل سمكة صغيرة حمراء .



الفصل السابع والعشرون

دروس في الأدب

ابتسم الحظ لحو ، كأنما ألقى السعد في حجرها تعويذة تأتيها بالمال .
حقيقة كان نصيبها من المال قليلا ، ولكن هذا القليل حقق لها من السعادة
الخالصة ما لا يحققه نصف مليون من الجنيهات .

كانت چو قد اعتادت أن تحتجب في غرفتها بين آن وآن ، فتغلق
دونها الأبواب ، وترتدى ثوب التأليف ، وتغرق إلى أذنيها في نشوة الكتابة
على حد تعبيرها .

وكانت ، إذا ما أرادت إتمام قصة ، تستغرق فيها قلباً وعقلاً ، فلا

تعرف للهدوء طعماً حتى تنتهى من مهمتها . وكان الثوب الذى ترتديه عند الكتابة يتألف من ميثزر صوفى أسود ، تمسح فيه قلمها عند اللزوم ، ثم قلنسوة من النسيج ذاته ، محلاة بنقوش حمراء زاهية ، تحشر فيها خصلات شعرها قبل البدء فى العمل . وكانت هذه القلنسوة دليلاً يرشد أفراد الأسرة إلى حالة چو المعنوية ، فكانوا من وقت لآخر يلقون عليها نظرة من فتحة الباب ، وقد يسألونها عما إذا كانت شعلة العبقرية تضىء كما يجب ، ولكن حركات القلنسوة كانت تغنى عن هذا السؤال فى أغلب الأحيان : فإذا كانت مشدودة إلى أسفل جبهتها ، فتلك علامة الجدة والانهماك ؛ وإذا كانت على جانب من رأسها بانحراف على الأذن ، فعنائه الانفعال والثورة ؛ أما إذا استعصى الوحي وتوقفت العبقرية ، خلعت چو القلنسوة وضربت بها الأرض . وفى مثل هذه الحالات ، لا يستطيع أى فضولى أن يتدخل فى الأمر ، إنما ينسحب فى هدوء ، تاركاً چو لحالتها حتى تعود القلنسوة إلى مكانها الطبيعى ، وتستقر فوق حاجبيها الموهوبين مرة أخرى . ولم تكن چو تؤمن بأنها عبقرية ، ولكنها كانت تنصرف إلى الكتابة حين تصيبها نوبة التأليف ، فتعيش فى عالمها سعيدة قريرة العين ، لا تحس بما حولها ، ولا يعينها شيء أو يشغلها . وكانت تمضى بها الساعات والأيام ، وهى لاهية بدنياها العامرة بأصدقاء صنعتهم بقلمها ، وتخيلت أنهم أشخاص واقعيون ينبضون بالحياة .

وكان النوم يهجر عينيها ، ولا تجد للطعام مذاقاً فى فمها ، فيظل

الأكل موضوعاً أمامها دون أن تمسه ، وكان الليل والنهار ، خلال فترة الوحي ، أقصر من أن يتسعا لسعادتها الغامرة ، التي تريد أن تتمتع بها أطول وقت ممكن . وكانت هذه السعادة الغامرة تحجب إليها الحياة ، وتجعل للأيام معاني جميلة ، حتى ولو لم تنتج خلالها شيئاً ، وكانت فترة الوحي تدوم أسبوعاً أو أسبوعين ، ثم تنقضي ، فتخرج چو من نشوتها جائعة أو نعسانة أو غاضبة أو قانطة ، حسب الظروف .

وذات مرة ، عندما كانت چو خارجة لفورها من إحدى هذه النوبات ، اضطرت أن تصحب مس كروكس إلى إحدى المحاضرات العامة ، فجوزيت على ذلك بأن واتها فكرة جديدة طيبة . كانت المحاضرة درساً عاماً في « الأهرام » ودهشت چو لاختيار هذا الموضوع دون غيره ، ولكنها لم تلبث أن سلمت بما استهدفه المحاضر من إصلاح العيوب الاجتماعية بعرض تاريخ الفراعنة الأجداد على المستمعين . . . أولئك المستمعون الذين لم يكن يشغلهم من أمور الدنيا سوى أسعار الفحم والدقيق ، ولا يستنفد تفكيرهم غير مشاكل تافهة ، يجعلون منها ألغازاً تفوق لغز أبي الهول !! وذهبت چو ومس كروكس مبكرتين إلى قاعة المحاضرة ، وبينما راحت مس كروكس تصلح كعب جوربها ، عمدت چو إلى تسليية نفسها بالتطلع في وجوه الجالسين على جانبيها . . . رأت إلى يسارها سيدتين وقورتين ، لهما جبهتان عريضتان ، وعلى رأسيهما قبعتان مناسبتان لضخامة جسميهما ، وكانت السيدتان تتناقشان في حقوق المرأة . وعلى بعد منهما

جلس حبيبان ملهوفان ، تشابكت أيديهما فى منظر لا يقره الذوق السليم ،
 وإلى جانبيهما كانت امرأة سمراء تتلهى بالتهام أقراص النعناع ، وبعدها
 سيد عجوز استسلم للنوم مغطياً وجهه بمنديل أصفر اللون مزركش .
 أما عن يمينها مباشرة ، فلم يكن هناك سوى فتى انهك فى قراءة مجلة ،
 وقد بدت على وجهه سماء الجلد والاهتمام .

وكانت المجلة قصصية مصورة ، فراحت چو تشغل وقتها بالتفرج على
 صورها ، فأعجبها تسلسل الحوادث المنتظم ، الذى أبرزته تلك الصور
 الطريفة : رأت صورة رجل هندى فى كامل عدة الحرب ، يكاد يسقط
 فى هوة سحيقة ، وقد أنشب ذئب أنيابه فى عنقه . وإلى جانب ذلك وقف
 رجلان غاضبان ، أقدامهما صغيرة جداً فى غير تناسب ، وعيناهما أوسع
 مما يجب ، وكان كل منهما يطعن الآخر بسكين ، وفى أسفل الصورة
 ظهرت امرأة مشعثة الشعر ، مفتوحة الفم ، تهرول مبتعدة عنهما .
 وبينما الفتى يقلب صفحات المجلة ، لحظ أن چو تنعم النظر فى
 الصور ، فقدم لها نصف صفحات المجلة ، وهو يقول فى جرأة :
 — أتحبين القراءة ؟ هذه قصة ممتازة .

ولم تكن چو قد تغلبت على حبها للتشبه بالفتيان ، فتقبلت منه المجلة
 باسمه ، وما كادت تبدأ القراءة ، حتى وجدت نفسها غارقة فى قصة
 تفيض كالمعتاد بالحب والغموض والقتل . . . أى من ذلك النوع الأدبى
 الخفيف ، الذى يلجأ المؤلف فيه إلى كوارث تقضى على نصف أبطال
 (٥) ٣

القصة ، وترك نصفهم الآخر يتمتع مسروراً بمصرعهم .
 وحين رأى الفتى أنها انتهت من قراءة القصة ، سألها :
 — قصة ممتازة ، أليس كذلك ؟

أجابت چو مندهشة لإعجابه بهذا اللون الأدبي التافه :
 — أظن أننا نستطيع أن نكتب مثلها إذا حاولنا .
 فقال الفتى :

— ليمنى أستطيع أن أفعل ذلك .
 ثم أشار إلى اسم مسز نورث برى ، مؤلفة القصة ، وقال :
 — هذه السيدة تكسب كثيراً من تأليف القصص .
 سألته چو باهتمام مفاجيء :
 — أو تعرفها ؟

قال :

— لا ، ولكنى أقرأ لها كل ما تكتب ، وأعرف صديقاً يشتغل في إدارة
 الجريدة .

فنظرت چو باحترام شديد إلى الصور التي تمثل المعارك ، وإلى
 علامات الاستفهام الكثيرة المنبثة في جميع أنحاء الصفحة ، قالت :
 — أحققاً تكسب المؤلفة كثيراً من كتابة مثل هذه القصص ؟
 قال :

— أظن ذلك ، فهي تعرف النوع الذى يحبه الجمهور ،

وتتقاضى عليه مبالغ كبيرة .

وعندئذ بدأت المحاضرة ، ولكن چو لم تسمع منها إلا قليلا ، إذ كانت طول الوقت مشغولة بأفكارها عما يرويه المحاضر من تاريخ خوفو ، والجعارين المقدسة ، واللغة الهيروغليفية . ونقلت الفتاة عنوان المجلة ، بعد أن عازمت على دخول المسابقة ، التي تنظمها إدارتها ، لأحسن قصة عاطفية مثيرة ، والتي رصدت لها جائزة قدرها مائة دولار .

وحين انتهت المحاضرة ، واستيقظ المستمعون ، كانت چو قد جمعت لنفسها في الخيال ثروة طائلة ، ولكنها لم تكن بطبيعة الحال أول مرة تحلم فيها بهذا النوع من الثراء . وكانت أيضاً قد فرغت من دراسة فكرة قصتها الجديدة التي ظلت مترددة في خاتمها ، لا تعرف إذا كان أفضل أن تأتي المباراة الحاسمة قبل هروب الحببيين ، أو بعد قتلها .

وعكفت على العمل دون أن تذكر كلمة عن مشروعها الجديد ، واختفت في الغرفة على عهدها في نوبات التأليف ، وكانت أمها تجزع لهذا الاختفاء ، وتقلق حين تشتعل نيران عبقرية چو .

لم تكن چو قد جربت هذا الأسلوب من قبل ، إذ انحصرت مجهوداتها السابقة في كتابة قصص غرامية لمجلة « النسر » ، ولكن تجاربها المسرحية ، وقراءاتها المتنوعة ، ساعدتها كثيراً على مهمتها الجديدة ، وأعطتها أفكاراً عن القصص المحزنة ، وعلمتها ، بعض أسرار اللغة والملابس . وكانت قصتها في هذه المرة ، حافلة باليأس والتقنوط ، رغم تجاربها المحدودة في

هذه العواطف المحزنة ، واختارت مدينة لشبونة مسرحاً لحادثها ، وأنتمتها
بزلزال مريع ظننت أنه خير خاتمة مفاجئة . وأرسلت القصة سرّاً إلى المجلة ،
وأرفقتها برسالة تقول فيها بتواضع : « إنها لا تجرؤ على التطلع إلى الجائزة
الأولى ، ولكنها ترحب بأى مبلغ تدفعه المجلة ثمناً لقصتها » .

وكان عليها أن تنتظر ستة أسابيع قبل أن تظهر النتيجة ، وكان وقتاً
طويلاً لمن اختارت مثلها أن تطوى صدرها على سرها ، ولا تبوح به لأحد .
ولكنها احتملت الانتظار صابرة ، وعندما بدأت تفقد كل أمل فى رؤية
قصتها مرة أخرى ، وصل إليها من المجلة خطاب ، حين فضته ، سقط منه
إلى حجرها شيك بمائة دولار . ومرت لحظة وهى تحقق النظر فى الشيك ،
وهى تلهث خوفاً وانفعالا ، كأنه ثعبان مرعب . . . ثم تماكت روعها ،
وقرأت الخطاب ، ولما انتهت منه ، انهمرت الدموع من عينيها ، ولو
أدرك السيد الطيب الذى صدر هذا الخطاب اللطيف ، كم ستسعد الفتاة
به ، ما توانى عن أن يكرس وقت فراغه — إذ كان لديه فراغ — ليمتع نفسه
برؤية المنظر الشائق : فقد اغتبطت چو بما جاء فى الخطاب من عبارات
التقدير ، أضعاف ما اغتبطت بالشيك ، ووجدت فيها تشجيعاً عظيماً ،
يعوضها خيراً ، عن جهاد السنوات المتتالية ، ويمنيها بمستقبل باهر .

وكانت چو فى تلك اللحظة ، أسعد خلق الله كلهم ، فلما تماكت
روعها ، دخلت على أهلها تحمل الشيك بيد والخطاب باليد الأخرى ، ثم
أعلنت لهم خبر فوزها بالجائزة ، فاحتفلت الأسرة بنجاحها العظيم ، وحين

نشرت القصة ، قرأها كل فرد منها ، وقرظها أحسن تقرّظ . ولكن أباهما ،
بعد أن امتدح اللغة ، وأثنى على الرواية وما فيها من مأساة تحرك المشاعر ،
هز رأسه ، وقال بلهجة المحرب :

— باستطاعتك أن تنتجى خيراً من هذا يا چو . انشدى الكمال قبل
المال .

وقالت آمى ، وهى تتطلع بخشوع إلى القصة الساحرة :

— أعتقد أن المال خير ما فى المسألة كلها .

ثم انشنت على أختها تسألها :

— ماذا ستصنعين بهذه الثروة يا چو ؟

أجابت چو دون تردد :

— سأرسل بها بث ووالدتي ، ليقضيا شهراً أو شهرين على شاطئ

البحر .

وصاحت بث ، وهى تصفق بيديها النحيلتين ، وتزفر زفيراً عميقاً

كأنها تتنشق هواء البحر العليل :

— ما أبدع ذلك ! ولكنى لست أناانية لأقبل مثل هذه التضحية

يا چو .

وتوقفت عن الكلام فجأة ، وأعادت الشيك إلى أختها ، وكانت قد

أعطته لها ، ولكن چو قالت بحزم :

— لا بد من ذهابك ، إنه الهدف الذى جاهدت لتحقيقه ، وهو



السر الحقيقي في نجاحي . فما كنت لأنال توفيقاً لو أنني حصرت آمالي في نفسي . كان يشجعني كثيراً أن أفكر فيكم وأعمل لكم . ثم إن أمي في حاجة إلى التغير ، وهي لا تستطيع أن تتركك ، ولذلك يجب أن تذهبي . ألا يسرنا جميعاً أن تعودى إلينا من المصيف ممثلة الجسم متوردة الحدين ؟ مرحي يا دكتور چو ، أنت والله طبيبة ماهرة تعرفين كيف تعالجن مرضاك .

وبعد مناقشة طويلة ذهبت الأم مع ابنتها إلى شاطئ البحر ، وعادت بث أحسن حالا ، وإن كان جسمها لم يمتلئ ، وخداها لم يتوردا كما

كان مأمولاً . واعترفت مسرّ مارش أنها استعادت شبابها ، ورجعت بسنها عشر سنوات إلى الوراء . وسرت چو للنتائج التي وصلت إليها بحسن استخدام المال الذي كسبته ، وعادت إلى العمل بنفس مبهجة ، وقد صممت على اكتساب كثير من هذه الشيكات السارة ، وفعلاً كسبت عدداً منها في هذه السنة ، وبدأت تشعر بأنها أصبحت قوة في الأسرة ، وأن قلمها نجح في تحويل التوفاه التي تكتبها إلى مال يسعد أهلها ، ويوفر لهم أسباب الراحة . وأمکنها أن تسدد حساب الجزار من ثمن قصة « ابنة الدوق » ، واشترت سجادة جديدة بقصة « اليد الخفية » ، كما جاءتها « لعنة كوفنتري » بكساء الأسرة وحساب البديل .

لا شك أن المال جميل مرغوب ، ولكن للحرمان أيضاً جوانب مشرقة ، أجملها الشعور بالرضا الصادق بما تنتجه اليد ، أو يجود به الفكر . وفي الواقع أننا مدينون لوحى الحاجة ، بنصف ما نتمتع به في هذا العالم من حكمة أو عبقرية أو جمال . وكانت چو أحد هؤلاء الذين أفاء الله عليهم نعمة الرضا ، ولذلك كفت عن حسد الفتيات الموسرات . وقنعت من لذائذ الدنيا ، بقدرتها على توفير مطالب حياتها ، واستغنائها بكدها عن سؤال الغير .

ولم تثر قصصها في الواقع اهتماماً خاصاً ، ولكنها ظلت مع ذلك تجد سوقاً رائجة ، مما شجعها على اتخاذ خطوة خطيرة أخرى في سبيل المجد والثروة . فذات مرة انتهت من نسخ قصتها للمرة الرابعة ، وفرغت من

قراءتها لأصدقائها المقربين ، ثم بعثت بها خائفة إلى ثلاثة من الناشرين .
فلما جاءها الرد بقبول نشرها على شريطة أن تختصرها إلى ثلث ما هي
عليه ، وأن تحذف منها جميع الأجزاء التي حازت إعجاب أصدقائها ،
دعت چو مجلس الأسرة وعرضت عليه مشكلتها . قالت :

— أنا الآن بين أمر من ثلاثة : أن أحزم أوراقى هذه ، وأودعها
الصندوق الصغير حيث يبليها الزمن . . . أو أقوم بطبعها على نفقتى
الخاصة . . . أو أقتطع منها ما شاء الناشر وأحصل على الثمن . إن المجد
شئ جميل فى داخل البيت ، ولكن المال أنفع منه ، ولقد جمعتكم لأسألكم
الرأى فى هذا الموضوع الهام .

قال أبوها ناصحاً :

— لا تفسدى عملك يا بنيتى ، فى كتاباتك قيم أكثر مما تقدرين ،
ولقد نجحت فى اختيار الفكرة ، وأحسنست إبرازها ، فاحتفظى بها حتى
تنضج .

وكان الأب مخلصاً فى كلامه ، أميناً لآرائه ومعتقداته ، لا يقول
إلا ما يفعل ، ولقد انتظر ثلاثين عاماً حتى تنضج رسالته وتأتى بشمراتها
المرجوة ، وعندما طابت ثمراتها بعد طول هذا الزمن ، اختار أن يتذرع
بالصبر ، فلا يتعجل جنيتها .

قالت مسر مارش :

— أعتقد أن چو تستفيد من المحاولة أكثر من الانتظار ، فالنقد خير

موجه للإنسان ، به تظهر العيوب والميزات ، ونحن في حيرة شديدة أمام ما يجب أن ننصحها به ، ولكنني أعتقد أنها تستفيد كثيراً مما يأتيها من مديح الغرباء ونصحهم ، بصرف النظر عن ثمن ما تكتبه .

وضمت چو حاجبها وقالت :

— هذا حق . لقد تكلمت طويلاً في هذا الموضوع ، ولست أدري في الواقع ، إن كان الكلام فيه ضاراً أو مفيداً ، وأراني على أى حال ، في ميسس الحاجة إلى رأى محاييد في شأن هذا الكتاب الجديد .
وكانت ميج تعتقد أن هذا الكتاب هو خير قصة كتبها چو ،
فقالت :

— لو كنت مكانك ما تخليت عن كلمة واحدة منه ، وأخشى إن حذفت شيئاً ، أن تفسدى الموضوع كله ، فقيمة القصة تتجلى في عرض أفكار أبطالها ، لا في تتبع حركاتهم ، وسيختلط الأمر إذا لم تفسر كل حركة في كل مرحلة من مراحل القصة .

وقاطعتها چو تقول ، وهى تشير إلى مذكرة الناشر :

— ولكن مستر ألن يقول « اتركى التفسيرات جانباً ، واختصرى ،

ثم الزمى حدود القصة ، ودعى الأبطال يتكلمون بأنفسهم .

وقالت آى ، وقد كانت نظرتها إلى الموضوع نظرة عملية .

— افعل ما يشير به عليك . فهو أكثر منك خبرة بالقصص الرائجة ،

ونحن مثلك لا نعرف قدر ما يعرف ، فخذى بتوجيهه ، واجعلى قصتك

محبوبة إلى القراء ، واحصلى منها على قدر ما تستطيعين من المال . وحين يلمع اسمك في عالم التأليف شيئاً فشيئاً ، يصبح في مقدورك أن تخرجى عن هذا النطاق ، فتدخلى في قصصك من تريدين من أبطال فلسفيين ونظريين .

فقلت چو ضاحكة :

— حسناً ليس خطئى أن يكون أبطالى فلاسفة مفكرين ، فأنا لا أعرف عن هذه الأشياء إلا ما أسمعها من أبى أحياناً ، ومن صالحى أن تختلط آراؤه الحكيمة برواياتى . والآن يا بث ، ما رأيك أنت ؟

قالت بث فى اقتضاب :

— أود أن أرى هذه القصة مطبوعة فى أقرب وقت مستطاع .

ولم تفارق الابتسامة شفيتها وهى تقول ذلك ، ولكنها ضغطت دون أن تشعر على كلمة « فى أقرب وقت » ، ونظرت إلى چو نظرة بريئة ملؤها الحب . وأحست چو ببرودة الخوف تسرى إلى قلبها من هذه الكلمات المضغوطة ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة يسيرة ، قررت على أثرها أن تقامر بهذه القصة سريعاً ، وفى أقرب وقت .

ووضعت المؤلفة الشابة كتابها الأول على المائدة ، وأخذت تقطع أوصاله بعزم ثابت وقساوة بالغة . فلقد استطلعت آراءهم جميعاً واحداً بعد واحد ، لتدخل السرور على قلوبهم ، ولكنها خرجت من المعركة كما خرج صاحب الحمار من القصة المعروفة ، دون أن ترضى أحداً .

كان أبوها قد أعجب ببعض النقط الروحانية ، التي تسربت إلى القصة عن غير قصد ، فأبقت عليها إكراماً له ، واعتقدت أمها أن كثيراً من الوصف تافه لا يستحق الذكر ، فحذفت جميع الأوصاف ، ومعها بعض الروابط الضرورية للحوادث . وأعجبت ميج بالمآسى ، فاحتفظت چو بدوافع الألم كلها لترضيها ، واعترضت آمی على الجانب الضاحك من القصة ، فقضت چو على المناظر الخفيفة التي كانت تضيء جوانب الموضوع . ثم جاء التدمير النهائي حين اختصرت ثلث الكتاب ، ثم أرسلته إلى الناشر ، كعصفور صغير منتوف الريش ، خرج يجرب حظّه في هذا العالم الكبير .

وطبعت القصة ، وتسلمت چو ثلثمائة دولار ثمناً لها . واستقبل النقاد القصة بمزيد من المديح والذم ، وكان النقد أكثر مما توقعت ، فوقعت چو في حيرة شديدة ، لم تتخلص منها إلا بعد وقت طويل .

صاحت ، وهي تقلب أكداً من القصصات ، كانت مطالعتها تملؤها بالزهو والفرح مرة ، وبالغضب والرعب مرة أخرى .

— لقد قلت يا أماه إن النقد يساعدني على الكمال ، ولكن كيف يمكنني أن أبلغ الكمال ، وأقول النقاد ، كما ترين ، متضاربة متنافرة ، حتى لا أكاد أعرف إذا كنت حقاً قد كتبت كتاباً يبشر بالنجاح ، أم أني خالفت الوصايا العشر؟؟ رجل يقول : « إنه كتاب نفيس مليء بالصدق والجمال والحزم ، كل ما فيه حلو نقي سليم ؛ والثاني يقول :

« نظرية عقيمة ، وتحليلات سقيمة ، وأفكار روحانية رجعية ، وأبطال كلهم غير طبيعيين » . ولما كنت لا أعرف لنفسى نظرية معينة ، ولا أومن بالروحانيات ، وأنقل شخصيات قصصى من الحياة نفسها ، فلست أدري ، كيف يمكن أن يكون هذا الناقد على حق . ويقول ثالث : « إنها أحسن الروايات الأمريكية التى ظهرت منذ سنين » — وأنا أعرف أن هناك ما هو أحسن منها — ؛ ويؤكد آخر « أن القصة ، وإن كانت مبتكرة ، ومكتوبة بقوة غامرة وشعور فياض ، إلا أنها قصة خطيرة » ، مع أنى لا أرى فيها خطورة قليلة أو كثيرة ، وبجانب هذا أمعن بعضهم فى السخرية بها ، وغالى بعضهم الآخر فى مديحها ، وكلهم مجمعون تقريباً ، على أن لى نظرية غاية فى العمق تحتاج إلى الشرح ، مع أنى لا أكتب هذه القصص إلا للذة الكتابة ولثمها . وددت لو أنى طبعت القصة كاملة ، أو أنى لم أطبعها كلية ، فأنا أمقت أن يساء الحكم على بهذه الصورة .

ورغم تشجيع الأسرة والأصدقاء ، مضت بجو فترة عصيبة ، شعرت خلالها بأنها أساءت من حيث أرادت الإحسان . ومع ذلك فقد أفادت من التجربة المرة ، إذ نالت النقد الصحيح ممن تعتد بأرائهم وتقديرهم ، ذلك النقد الذى هو خير معلم للمؤلف الناشئ . وحين مرت فترة المراجعة الأولى ، استطاعت أن تضحك من كتابها الصغير البائس ، ولكنها ظلت على إيمانها به ، تشعر بأنها قد صارت أكثر حكمة وأشد قوة ، بعد الحملات التى لاقها .

قالت في فخار :

— لن يقتلني ألا أكون في عبقرية كيتس العظيم ، ومع ذلك فإن الفكاهة اللاذعة فيما حدث تفيدني ، فكل ما أخذته من الحياة الواقعية مباشرة ، استنكره النقاد ، وقالوا عنه إنه مستحيل وغير معقول . وكل المناظر التي ابتدعتها من خيالي ، قيل عنها إنها طبيعية وجذابة ورقيقة وصادقة . ولذلك ستهلأ نفسي بهذه النتيجة ، وحين أجد الشوق إلى الكتابة ، فسأبدأ العمل من جديد ، وأخرج قصة أخرى .



الفصل الثامن والعشرون

تجارب منزلية

بدأت ميج حياتها الجديدة وفي عزمها أن تكون ربة بيت مثالية ،
شأنها شأن معظم الفتيات عندما يقبلن على الحياة الزوجية ، وقالت : إن
چون يجب أن يرى وجهاً باسماء دائماً ، وأن يأكل كل يوم طعاماً لذيذاً ،
ولا يشعر بنقص في أزرار ملابسه ، وأن يكون البيت جنته الوارفة . وأحبت
ميج مهمتها الجديدة ، وأضفت عليها من روحها نشاطاً وبهجة ، فلم يكن
هناك بد من نجاحها ، على الرغم من العقبات التي صادفتها . ولكن اللجنة
لم يسدها الهدوء المنشود : فقد كانت ربة البيت الصغيرة كثيرة المناقشة ،

مسرقة في القلق ، صعبة الإرضاء . وكانت دائمة الحركة تثقل نفسها بالهموم ، حتى يستبد بها الإرهاق والوجوم ، فلا تقوى على الابتسام ، كما أصيب زوجها بعسر الهضم ، لكثرة ما أكل من أطباق شهية ، فراح يطالب بطعام خفيف . أما الأضرار فكانت تضيق لغير ما سبب ، مما جعل ميج تهز رأسها عجباً وأسفاً ، وتهدد چون بأنها ستترك له مهمة تثبيتها في المرات القادمة .

وقد أدرك الزوجان أنهما لا يستطيعان الحياة بالحب وحده ، ولكنهما كانا سعيدين كل السعادة ، ولم ينقص جمال ميج في نظر چون ، على الرغم من انصرافها لأعمال البيت ، ولم تشعر ميج أن انشغال زوجها بسؤالها عن نوع اللحم الذي تريده في العشاء ، خفف من حرارة قبلاته لها . وفي الواقع لم يعد البيت الصغير عش الغرام ، إنما أصبح مسكناً فقط ، وشعر الزوجان الشابان بأن هذا التغيير كان من حسن إلى أحسن . وكانت إدارة البيت في بادئ الأمر لعبة يتجاذبانها كأطفال صغار . ولكن چون ما لبث أن شغل بالعمل ، مقدراً واجباته نحو الأسرة الجديدة ، التي يترأسها ويحمل أعباءها . كما خلعت ميج ملابسها الثمينة ، وارتدت مرولة المطبخ ، وانهمكت في أداء أعمالها المنزلية بنشاط لم تكن تتوقعه .

وانتابت ميج حمى الطبخ ، فكانت إذا ما أصابتها هذه الحمى ، تجلس إلى كتاب « كورنيليوس » تقرأ فيه بأمعان ، كأنما هي أمام مسألة حسابية تحل ألغازها في صبر وعناء . وكانت إذا نجحت في عمل صنف

من الطعام ، دعت الأسرة إلى المساهمة في تناوله ، وإذا فشلت ترسل
بالطعام خفية مع لوفى ، إلى بيت هامل حيث يختفى نهائياً في بطون لا تعرف
الشعب .

وفي المساء كانت تجلس مع چون لمراجعة حساب النفقات ، فتجد
أحياناً أنها أسرفت أكثر مما يجب ، وعندئذ تغتر حماسها للطهو ، وتتلو
هذا الفتور مرحلة من التقشف يتعرض فيها چون لأكل البودنج الجاف
والقهوة والسمك المحفوظ ، فكانت نفسه تضيق بهذا الطعام ، ولكنه
يحتمله بصبر يثير الإعجاب .

وكانت ميج تتمنى أن تملأ خزانة الطعام بما تصنعه من المربيات
والجيلى ، فطلبت من چون أن يشتري لها مجموعة من ألعاب الصغيرة ،
وكمية إضافية من السكر ، حتى تستفيد بثمار التوت ، التى نصجت فى
حديقتهما . ولما كان چون يؤمن بمهارتها إيماناً راسخاً ، فقد قرر أن يلبي
مطالبها ، ليتمكن من حفظ الفاكهة بخير طريقة تراها . وأمر بأن يرسل إلى
البيت عدد كبير من ألعاب ، ونصف جوال من السكر ، كما استأجر
صبيّاً صغيراً ، ليجمع التوت من حديقته . وحين وصلت هذه الأشياء
إلى البيت ، شممت ميج عن ساعد الجد ، وغطت شعرها الجميل بقلنسوة ،
وارتدت مروة المطبخ ، ثم بدأت تعمل واثقة بقدرتها على الإتقان ، بعد
أن رأت حنا تصنع جيلي التوت مئات المرات . ولقد أدهشها أول الأمر
ذلك العدد الكبير من ألعاب ، ولكنها عادت وتذكرت غرام چون بالجيلي

اللذيد ، فاستقر رأيها على أن تصنع منه كمية كبيرة وتخيلت جمال منظر العلب وهي مرصوصة في مخزن الطعام .

وأقضت يوماً كاملاً في فرز التوت وغليه وتقليبه ، وبذلت في ذلك غاية جهدها ، ورجعت إلى موسوعة الطبخ تستوحيا الرأي ، وعصرت ذهنها لتتذكر ما نسيته من أساليب حنا وحيلها ، ثم رجعت إلى المزيج تقلبه وتغليه من جديد ، وأضافت إليه مزيداً من السكر ، ولكن الحيلي رفض أن يتماسك كما يجب .

وودت لو أنها هرعت إلى بيت أبيها ، تسأل أمها المساعدة ، ولكنها عدلت عن ذلك ، إذ كانت قد اتفقت مع چون على الاحتفاظ بمشاكلهما وتجاربهما ونزاعهما . وقد ضحك كلاهما في ذلك اليوم عند ذكر النزاع ، كأن احتمال الخلاف مستحيل ، والحق أنهما تمسكا بعهدهما ، وسارا في طريقهما دون تدخل أو معونة من أحد ، وكان هذا العهد في الواقع عملاً بنصيحة أمها الطيبة .

ووقفت ميج وحدها تعالج التوت طوال اليوم القماظ ، فلما بلغت الساعة الخامسة دون أن يتماسك ، استبد بها اليأس ، فجلست في المطبخ الهائج المشوش ، تعصر يديها المخضبتيين بحمرة التوت ، ثم انفجرت تبكي بصوت عال ، وهي لا تدري بما يخفيه لها هذا اليوم المشؤم من متاعب أخرى كثيرة .

كانت في مستهل حياتها الزوجية تقول دائماً :

— يجب أن يكون زوجي حرّاً في تصرفاته ، يدعو إلى البيت من يشاء ،
 في أى وقت يشاء ، وعلىّ أن أكون دائماً مستعدة ، وأن يكون البيت
 نظيفاً هادئاً ، وأن أبدو مبهجة ، وأن أطهو طعاماً جيداً .
 وكانت تقول لـجون :

— لا تردد يا عزيزى فى دعوة من تشاء ، ولا تسألنى الإذن ، وثق
 بأنك ستجد منى كل ترحيب بضيوفك .

وكانت كلمة « ثق » تملأ قلب چون زهواً وفخاراً ، حتى ليحمد
 الله على ما أنعم به عليه من زوجة طيبة ممتازة . وكانا فى الواقع يستقبلان
 ضيوفاً بين آن وآن ، ولكن لم يحدث أبداً أن جاءت زيارات الضيوف
 فجأة وبغير علم سابق ، وبذلك لم تسنح لميج فرصة تختبر فيها قدرتها على
 مجابهة المفاجآت .

ولكن الذى لم يحدث سابقاً ، كان يجب أن يحدث فى يوم ما ،
 وهكذا عاد چون إلى البيت ومعه ضيف غير منتظر ، فتعقدت الأمور
 فى أسوأ الظروف . ولو لم يكن چون قد نسى انشغال زوجته بجبلى التوت ،
 ما فكر فى اصطحاب صديق غريب ، فى ذلك اليوم المشؤم . ولكن
 الأمر غاب عنه مع الأسف ، ولم يعد يذكر إلا أنه اشترى فى الصباح
 طعاماً شهياً لبيته ، فطاب له أن يدعو صديقاً للعشاء ، راجياً أن تترك
 الدعوة فى نفسه أعمق الأثر ، حين تهرع زوجته لاستقباله مرحبة ، وتقدم
 له صحن الأكل اللذيذة .

ولكننا نعيش في عالم مليء بالمفاجآت ، وليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، وقد تبين چون هذه الحقيقة حين وصل إلى « برج الحمام » ، وهو الاسم الذي أطلق على بيته الصغير ، فوجد الباب الخارجى مغلقاً ، وكانت العادة أن يستقبله مفتوحاً على مصراعيه . وباليته كان مغلقاً فحسب ، إنما كان موصداً بالقفل ، ووحول أمس ما تزال تلطخ درجات السلم الأمامى . وكانت نوافذ غرفة الاستقبال مسدلة الستائر ، ولا أثر لزوجته الجميلة التى تجلس عادة عند المدخل ترحب بالضيوف فى ابتسامة كلها حياء . ولم يكن فى المكان أثر لإنسان ، اللهم إلا صبيّاً صغيراً يغط فى النوم تحت شجيرات التوت .

وذعر چون لهذا السكون والوحشة ، فقال لصديقه :
 — أخشى أن يكون مكروه قد حدث ، ادخل الحديقة يا سكوت ، وسأبحث عن مسز بروك .

ودار چون حول البيت فى لهفة ، تقوده رائحة قوية لسكر محروق ، وسار الصديق خلفه فى عجب وتساؤل ، وحين دلف چون إلى البيت واختفى فيه ، وقف سكوت فى الخارج على بعد يستطيع منه أن يسمع ويرى ، ولما كان أعزب فقد استمتع بما دار بين الزوجين من حديث طريف . دخل چون المطبخ فوجده فى اضطراب وفوضى ، ورأى عينات الحلى متناثرة هنا وهناك ، عينه تملأ العلب ، وثانية ما زالت فى آنية موضوعة على الأرض ، وثالثة تحترق على النار ، وكانت لوتى تجلس فى برودها

المعهود ، وهى تغمس قطعة من الخبز فى سائل الحيلى الذى رفض أن يتجمد رغم الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل ذلك . وإلى جانبها جلست مسز بروك تبكى وتنوح ، فأسرع چون إلى زوجته منزعجاً ، وقد ظن أنها أحرقت يدها بالماء الساخن ، أو أصابها مكروه من نوع ما ، وكان القلق يساوره كلما فكر فى الضيف الذى ينتظره فى الحديقة . صاح بها قائلاً :
— ماذا حدث يا فتاتى العزيزة ؟

قالت الزوجة المكدورة :

— أواه يا چون ! يكاد يقتلنى القلق والغضب ، فقد أمضيت النهار كله فى صنع هذا الحيلى ، حتى غلبنى الإنهاك والتعب . تعالى ساعدنى وإلا مت كمدأ .

وارتمت ميج على صدر زوجها تستقبله استقبالا حلوّاً بكل معانى هذه الكلمة ، إذ كانت المرولة مبللة بشراب التوت ، وأرض المطبخ ملطخة بالسكر المغلى . سألتها الزوج الحائر بعد أن طبع قبلة على جبينها فوق القلنسوة المائلة على جانب من رأسها :

— حدثينى بما يضايقتك يا عزيزتى ، هل أصابك مكروه ؟

قالت ميج وهى تنشج فى يأس :

— نعم ! !

قال :

اذكرى ما حدث بسرعة ، وكفى عن البكاء ، فأنا لا أستطيع احتمال

هذا المنظر . علىّ بالنبأ المزعج يا حبيبتى .

صاحت تقول :

— الچيلى . . . الچيلى لا يريد أن يتجمد ، ولست أدرى ما ذا أفعل !!

وانفجر چون ضاحكا ، بصورة لم يجرؤ على إعادتها بعد ذلك ، وابتسم

سكوت الساخر حين سمع ضحكته العالية . قال چون :

— أهذا كل ما فى الأمر ؟ ألقى بالچيلى من النافذة ، ولا تشغلى

نفسك بها ، وسأشتري لك منها ما تريدين . . . دعك من القلق الآن ،

فقد أحضرت چاك سكوت ، ليمناول دعنا العشاء ، و . . .

وقطعت ميج عليه حديثه بأن دفعته بعيداً عنها ، وارتمت على مقعد

قريب ، وقد عقدت يديها فى يأس بالغ . صاحت تقول فى نبرات عامرة

بالغضب والحزن واللوم :

دعوت ضيفاً للعشاء ، والبيت كله فى اضطراب وفوضى ؟ كيف

أقدمت على مثل هذا العمل يا چون بروك ؟

قال فى صوت خفيض ، وهو يستعرض ما سيسفر عنه الموقف من

إحراج :

— هس . . . إنه فى الحقيقة . . . لقد نسيت أمر الچيلى اللعين ،

ولا سبيل إلى خروجنا من المأزق .

ولكن ميج قالت ثائرة :

— كان يجب أن تعلننى بقدومه لأستعد ، أو كنت تخبرنى فى

الصباح بدعوة صديق ، وكان يجب أن تراعى مشغوليتى الكبيرة .

ولم يكن هذا الغضب بدعة من ميج ، فإن اليمام الوديع ، على ما عرف عنه من هدوء وألفة ، ينقر حين يغضب .

قال چون ، وقد غلبه الحزن :

— لم يكن فى نيتى هذا الصباح أن أدعو أحدا ، ولم يتسع الوقت لأعلنك بقدومه ، فقد قابلته فى طريق عودتى ، ولم يطرأ لذهنى أن أستأذنك بعد أن طلبت إلى مراراً أن أدعو من أشاء وقت ما أشاء . هذه أول مرة أفاجئك فيها بضيف ، ولن أفعل ذلك بعد الآن .

قالت :

— أرجو ذلك ، والآن خذ صديقك واخرج به فى الحال ، فلن أقابله ، وليس عندى أى عشاء لكما .

قال وهو يسرع نحو مخزن الطعام :

— حسنا ، ولكن أين اللحم والخضر التى أرسلتها هذا الصباح ، وأين

البودنج الذى وعدت بصنعه ؟

قالت ميج ، وقد سبقتها عبراتها :

— لم يكن لدى وقت لأطهو شيئاً ، وكنت أنوى أن نتعشى مع أمى .

إنى آسفة ، ولكنى كنت مشغولة جداً .

وكان چون رجلاً عاقلاً معتدلاً ، ولكنه كان بشراً فى الوقت نفسه ،

فإن يحىء إلى بيته مكدوداً جائعاً بعد عمل مضمن طول اليوم ، وكله أمل

فى الراحة والطعام الشهى ، ثم لا يجد شيئاً إلا بيتاً مشوش النظام ومائدة خاوية وزوجاً غاضبة ، فهذا أمر لا يدعو إلى الهدوء أو راحة البال . ولكنه كببح جماع نفسه ، وكان من الممكن أن ينتهى الموقف بسلام ، لولا كلمة طائشة بدرت منه عن غير قصد ، إذ قال :

— أعترف بأنه موقف حرج ، ولكن فى مقدورنا أن نخرج منه إذا تعاوننا . لا تضيعى الوقت فى البكاء يا عزيزتى ، واجهدى نفسك قليلا ، وحاولى أن تقدمى لنا ما نأكله ، فكلانا يكاد يموت جوعاً ، وأى شىء يكفيننا ، أعدى لنا اللحم البارد والخبز والجبن ، وأعدك ألا نطلب شيئاً من چيلى التوت .

قال كلمته الأخيرة بقصد التفكه والتندر اللطيف ، ولكنها جاءت قضاء مبرماً على آماله كلها ، إذ اعتبرتها ميج تشهيراً بالغاً بها ، وتعريضاً موجعاً بفشلها ، قالت ثائرة :

— حاول أن تنقذ نفسك من هذه الورطة ، أما أنا فقد فقدت جهدى ، ولن أحرك أصبعاً لمعونة أحد ، وليس فى البيت شىء مما تقترح ، وليس عندى ما أقدمه غير العظام والخبز الجاف . خذ صاحبك إلى بيت أمى ، وقل له إنى مريضة ، أو غير موجودة فى البيت ، أو إنى مت ، أو أى شىء آخر يحلو لك ، فليست أريد أن أراه ، ولكما أن تسخرا من الجيلى . قدر ما تشاءان ، ولكنكما لن تتناولوا شيئاً فى هذا البيت .

وألقت ميج إليه بهذا التحدى ، ثم رمت مرولتها على الأرض ،

وسارعت بالانسحاب من ميدان المعركة ، لتنعى همومها في غرفة نومها .
ولم تعرف ميج ما حدث للرجلين في غيبتهما ، ولا ماذا فعلا ، إنما
عرفت أن سكوت لم يذهب إلى منزل أمها ، وحين نزلت إلى المطبخ بعد
انصرافهما معاً ، وجدت آثاراً مشوشة للطعام ، مما زادها اشمئزازاً واستنكاراً
وأخبرتها لوقى أنهما أكلا كثيراً ، وضحكا كثيراً ، وأن السيد بروك أمرها
بأن تلقى بجيلي التوت في صندوق الفضلات ، وتخفي جميع العلب عن العيون
وودت ميج أن تذهب إلى أمها وتفضي إليها بما حدث ، ولكن الوعد
الذي قطعته لچون ، وخجلها الشديد من نقض هذا العهد ، أقعدها عن
الذهاب . وبعد أن نظفت المطبخ والأواني ، ارتدت ملابسها في أناقة ،
وجلست تنتظر عودة چون ، لتصفح عنه !

ولكن چون لم يحضر ، إذ كان له رأى آخر فيما حدث ، فقد حمل
الأمر محمل الفكاهة مع صديقه سكوت ، والتمس لزوجته المعاذير ما
استطاع ، وقام بدور المضيف خير قيام ، مما جعل الضيف يستمتع بالعشاء
المفاجيء غاية الاستمتاع ، ويعد بتكرار الزيارة ثانية . وكان چون غاضباً
في قرارة نفسه رغم تظاهره بالمرح ، لأن ميج أوقعته في مأزق حرج ، ثم
تخلت عنه وهو في أشد الحاجة إلى معونتها . راح يقول لنفسه : « لم يكن
من العدل أن تحضني على اصطحاب من شئت من الضيوف في أى وقت
وتمنيني بالحرية فيما أفعل ، وإذا أخذتها عند كلمتها خذلتني ، وألقت على
اللوم ، وتركتني لسخرية الناس وإشفاقهم . هذا لا يصح ، ويجب على

ميج أن تعرف ذلك » ؛ وجعلت الأفكار الغاضبة تتضارب في رأس جون في أثناء المأدبة ، ولكن حين انتهى القلق الذي ساوره ، وقفل راجعاً إلى البيت بعد أن أوصل سكوت وودعه ، كان قد استعاد بعض هدوئه ، فقال يحدث نفسه : « يا للصغيرة المسكينة ، لقد كان الموقف شديداً عليها بعد كل ما بذلت لإرضائي ، . . . لا شك أنها أخطأت ، ولكنها ما تزال شابة صغيرة ، وجدير بي أن أكون صبوراً معها ، أحاول تعليمها » . وتمنى في قلبه ألا تكون قد ذهبت إلى بيت أمها ، إذ كان يكره الثثرة والتدخل والقييل والقال .

وأقلقته هذه الفكرة ، ولكنه خشى في الوقت نفسه أن يكون البكاء قد أضر بصحة ميج ، واستحث الخطا إلى البيت ، فسار إليه مسرعاً ، وقد رق قلبه ، وصح عزمه على أن يكون معها هادئاً عطوفاً حازماً ، وأن يرشدها إلى مواضع النقص في تصرفاتها ، ويريها كيف قصرت في أداء واجبها نحو زوجها .

وكانت ميج قد قررت فيما بينها وبين نفسها ذات الأمر ، وانتوت أن تكون هادئة عطوفة ، ولكن في حزم ، وأن ترشده إلى واجبه نحوها . وحين رأت زوجها مقبلاً ، شعرت برغبة شديدة في أن تسرع إليه ، لتطلب الصفح ، فيقبلها ويسترضيها ، ولكنها قاومت هذه الرغبة ، وقبعت في مكانها ، وراحت تترنم بنغم ، وتهز كرسيها وهي تنسج خيوطها ، ككل سيدة تتمتع بفراغها في قاعة استقبالها الأنيقة .

وشعر چون بشیء من خيبة الأمل ، عند ما توانت زوجته عن استقباله بالترحيب الذى كان يتوقعه ، وأحس أن كرامته تتطلب منها أن تعتذر له أولاً ، ولذلك لم يتقدم بالاعتذار من جانبه ، بل دخل قاعة الاستقبال مبتسماً ، وجلس على الأريكة ، ولم يقل شيئاً اللهم إلا ملاحظة عابرة .
قال :

— سنستقبل قمرأً جديداً يا عزيزتى .

أجابت ميج فى هدوء :

— لا اعتراض لى على ذلك .

وتبادل الاثنان عبارات قليلة ، وكان مستر بروك ، يطرق من وقت لآخر موضوعات ذات أهمية لهما ، ولكن ميج كانت ترد فى غير تحمس ففتر الحديث بينهما . واتجه چون إلى إحدى النوافذ ، وفتح جريدته واختفى وراءها ، وذهبت ميج إلى النافذة الأخرى ، وراحت تطرز فى اهتمام مضاعف ، وهكذا خيم الصمت عليهما ، رغم أنهما كانا فى قلق وضيق .
قالت ميج تحدث نفسها :

— إن الحياة الزوجية متعبة جداً ، وتحتاج إلى صبر لا يفرغ ، شأنها

فى ذلك — كما تقول أمى — شأن الحب سواء بسواء .

وبعثت الفكرة فى رأسها ذكرى النصائح التى وجهتها إليها أمها منذ زمن طويل ، والتى كانت تستمع إليها بغير قبول أو إيمان . كانت أمها تقول : « إن چون رجل طيب ، ولكنه ككل إنسان له عيوبه وأخطاؤه ،

وعليك أن تدركى هذه الأخطاء ، وسيسهل عليك أن تحتلمليها ، إذا تذكرت عيوبك وأخطائك . إنه حازم الرأى ، ولكنه ينقلب عنيداً إذا عارضته وأنت ثائرة ، فعليك أن تأخذه باللين والعطف والحنان . إنه متمزمت فى الحق ، وهى صفة جميلة وإن كنت لا ترضين بها ، وسوف يوليك الثقة التى تستحقينها ، إذا لم تخدعيه بالقول أو بالنظر . هذا إلى أن طبعه لا يشبه طبعنا ، فنحن نشور فى لحظة ، ونهدأ سريعاً ؛ أما هو فلا يغضب إلا نادراً ، وعندئذ يكون من الصعب أن يهدأ . احذرى هذا الغضب ، واجتهدى ألا تثيريه عليك ، فعماد السعادة والوئام ، احترامك له ، واحتفاظك بكرامته ، كوفى رقية على نفسك ، وإذا أخطأتما فابدئى بالاعتذار ، واحذرى الغمزات الصغيرة ، والكلمات الطائشة ، فإنها تفتح الطريق للحزن والأسى .

مرت هذه النصائح بذاكرة مبيج وهى تجلس إلى النافذة ساعة الغروب وكان ما حدث اليوم ، أول خلاف بينهما ، فشعرت وهى تستعيد تفاصيل الخلاف ، أنها أسرفت فى كلماتها الطائشة ، وغضبت فى رعونة الأطفال ، ولأن قلبها على چون لمجرد التفكير فى مقابلتها الجافة له ، عند عودته إلى البيت ، فتطلعت إليه والدموع تملأ عينيه ، ولكنه كان مستغرقاً فى قراءة الجريدة ، فلم يرها . ووضعت مبيج ما فى يدها جانباً ، ووقفت تفكر فى البدء بالاعتذار ، وهمست تقول :

— سأكون البادئة . . . ساحنى .

وبدا كأنه لم يسمعها ، فتقدمت إليه بخطوات بطيئة ، حتى وقفت بجانبه ، ولكنه لم يتحرك ، ولم يلتفت نحوها . ومضت دقيقة أحست فيها أنها عاجزة عن تنفيذ عزمها ، ولكن الفكرة تجسست في ذهنها ، فقالت في نفسها : « إنها البداية ، وعلى أن أقوم بواجبي كاملاً ، حتى لا أجد ما ألوم عليه نفسي فيما بعد :

ولم تلبث أن انحنت على زوجها ، وطبعت على جبينه قبلة ، وكانت القبلة أبلغ اعتذار ، فأخذها چون بين ذراعيه ، وأجلسها على ركبتيه في حنان ، وقال لها :

— لقد أسأت إليك بسخريتي من الجيلي ، فاصفحي عني يا عزيزتي وأعدك بأن لا أفعل ذلك مرة أخرى .

ولكنه فعل ذلك مراراً ، كما سخرت ميج بنفسها من الجيلي ، وكان كلاهما يقول : « إن تلك الجيلي التي استعصى صنعها ، كانت أجمل ما في حياتهما ، فقد أمدتهما بذخيرة لا تفنى من الهناء الزوجي والهدوء العائلي .

وقد وجهت ميج بعد ذلك دعوة خاصة إلى مستر سكوت ، وأعدت له مأدبة فاخرة بهيجة ، وكانت طول الوقت في منتهى المرح ، واجتهدت أن تمضي الوليمة على أحسن ما يكون ، مما حمل مستر سكوت على تهنئة چون بحظه السعيد ، وعند ما عاد إلى بيته ، ظل طول الطريق يهز رأسه ندماً على متاعب العزوبة ووحدها .

وجاء الخريف بتجارب جديدة للزوجين الصغيرين ، فقد جددت

سالى موثقات عهود صداقتها القديمة ، فكانت تأتى إلى البيت الصغير ، فتقضى فيه بعض الوقت تثرثر مع ميج ، وكانت أحياناً تدعو عزيزتها ميج لقضاء يوم فى بيتها الكبير . وكانت ميج ترحب بذلك هرباً من الوحدة والسأم ، لأن أخواتها كن دائماً مشغولات بأعمالهن ، وچون لا يعود قبل المساء ، ولم تكن هناك من تسلية لها ، سوى القراءة أو التطريز أو الحديث ، فسرى عنها إقبال سالى على صداقتها من جديد . وكانت ميج تنظر إلى تحف سالى الجميلة وتعجب بها ، وتشهى أن يكون لها مثلها ، وتندب حظها الذى حرمها من الترف . وكانت سالى ترى ذلك ، فتهديها بعض الأشياء الجميلة ، ولكن ميج كانت ترفض الهدايا ، لعلمها بأن چون لا يرضى عن ذلك ، ولكن طيشها دفعها ذات يوم إلى إتيان أسوأ ما يكرهه زوجها .

كانت ميج تحب أن يشعرها زوجها بثقته الكاملة ، لا فى عواطفه فقط ، بل فى شئونه المالية أيضاً ، لأن بعض الرجال يقدرون المال أكثر من العاطفة . وكان لها ما أرادت ، فأطلعها چون على دخيلة أمره ، وكاشفها بالمكان الذى يحفظ فيه نقوده ، وترك لها الحرية فى أن تأخذ منها ما تشاء ، ولم يطلب فى مقابل ذلك إلا أن تقيّد نفقاتها ، وتدفع المطلوبات آخر كل شهر ، وتتذكر دائماً أنها زوجة رجل فقير . ومنذ بدأت حياتهما الزوجية ، أحسنت ميج التصرف ، كانت تحرص على المال ، وتدقق فى إنفاقه ، وتقيّد نفقاتها فى دفتر صغير ، وتطلع زوجها عليه دون خوف ...

إلى أن حل الحريف ، وتسلسل ثعبان الإغراء إلى حياة ميج وأغراها كما أغرى
كثيرات من بنات حواء الصغيرات ، ولكنه لم يغرها بالتفاحة المحرمة ، بل
أغراها بالثياب .

لم يكن يرضى ميج أن تكون موضع الإشفاق والثناء لفقرها ، وكانت
تخجل من أن تعترف بحقيقة حالها ، وتطلب العزاء عن هذا الحرمان بشراء
بعض الأشياء الجميلة بين حين وآخر ، حتى تثبت لسالى أنها غير مضطرة
إلى الاقتصاد والتقتير على نفسها . وكانت فى كل مرة تشعر بالندم بعد
شراء هذه الأشياء ، على الرغم من أنها لم تكن تدفع فيها إلا قليلا ، ولكن
التوفه بدأت تكثر دون أن تشعر ، ولم تعد ميج فى زيارتها للحيوانات متفرجة
فقط ، بل مشتريه أيضاً .

وتكلف شراء هذه التوفه أكثر مما تتصور ، وحين جلست آخر
الشهر تجمع حساباتها ، أفرعها مجموع ما أنفقته فيما لا يجدى ولا يفيد .
وكان چون فى ذلك الشهر مشغولا بعمله ، فترك لها مهمة دفع المطلوبات ،
وفى الشهر التالى كان متغيباً عن البيت ، أما فى الشهر الثالث فقام بتسوية
حسابات الشهور الثلاثة ، وياله من وقت عصيب ، لن تنساه ميج طول
العمر !!

كانت قبل نهاية الشهر بأيام قلائل ، قد أساءت التصرف فى نقود
زوجها ، وظل ضميرها يرزح تحت وطأة ما حدث ، وكان ذلك يوم
خرجت مع سالى فى شراء بعض الأقمشة الحريرية ، وتاقت نفس ميج

إلى شراء قطعة من الحرير الخفيف ، مما يلبس في الحفلات ، إذ كان ثوبها الأسود عادياً لا يستوقف النظر . وكانت العمة مارش قد اعتادت في عيد رأس السنة ، أن تنفخ كلا من الأخوات خمسة وعشرين دولاراً ، وكان موعد تلك المنحة يأتي في الشهر التالي ، وكان ثمن قطعة الحرير الأرجوانية التي أعجبتها خمسين دولاراً ، فأغرتها نفسها أن تدفع الثمن كله من نقود زوجها ، على أن ترد إليه النصف ، عندما تعطيها عمتها هدية رأس السنة . وكان چون يؤكد لها دائماً أن ماله هو مالها ، فجعلت تسأل نفسها إذا كان من حقها أن تنفق على رفاهيتها خمسة وعشرين دولاراً من صميم ميزانية الأسرة . وظل السؤال يحيرها ، ويقف بينها وبين قطعة الحرير ولكن سألها أختها عليها بأن تشتري ما تموق إليه ، وعرضت أن تقرضها الثمن ، وراحت تغريها بكل ما تملك من دوافع طيبة ، حتى استسلمت للإغراء . وفي ساعة منحوسة أمسك البائع بقطعة الحرير وقال :

— إنها فرصة ثمينة ولا شك !

قالت ميج ، وقد انهارت مقاومتها :

— سأشتريها .

وقصّ لها البائع القدر المطلوب ، ودفعت الثمن ، فابتهجت سالى وضحكت ، كأن ما حدث لا يعنى شيئاً ، ولكن ميج خرجت من الحانوت ، وفي نفسها شعور بأنها سرقت شيئاً ، وأن البوليس في أعقابها !! وحين وصلت إلى البيت ، حاولت أن تخفف من وطأة ندمها ،

فنشرت قطعة الحرير أمامها ، وراحت تمتع النظر بجمالها ، ولكنها بدت أقل جمالا مما كانت عليه في الحانوت . وانتابها شعور بأن لا حق لها فيها ، وخيل إليها أن ثمنها الفاحش مختوم على كل خيط من خيوطها ، فطوت قطعة الحرير ، وأزاحتها جانباً ، ولكن ذكرها ظلت تطاردها بإلحاح ، مثل روح شريرة لا تعرف كيف تتخلص منها .

وحين عاد چون إلى البيت في تلك الليلة ، وأمسك بالدفتريراجع حسابات الشهور الثلاثة الماضية ، غاص قلب ميج ، وانتابها الخوف من زوجها لأول مرة . وبدت عيناه العسليتان العطوفتان كأنما غشتهما القسوة ، ومع أنه كان مرحاً مبهجاً أكثر من المعتاد ، فقد خيل إليها أنه كشف أمرها ، ولكنه يحاول أن يخفي عنها علمه بخطئها .

ودفع چون المطلوبات ، ثم أعاد الدفتري إلى موضعه ، وأثنى عليها ، وبدأ يراجع حساب النقود الموجودة بالصندوق ، الذي كانا يسميان « البنك » ، ولكن ميج كانت تعلم أن البنك خاو على عروشه ، فاستوقفته في عصبية وقالت :

— إنك لم تراجع حتى الآن دفتري مصرفاتي الخاصة .

ولم يكن چون يطلب منها أن يرى هذا الدفتري ، ولكنها كانت تصر دائماً على إطلاعها عليه ، وكانت تجد لذة وممتعة فيما يبدو عليه من عجب ودهشة ، حين يقرأ أسماء بعض الأشياء التي تشتريها المرأة . وكانت تبهج حين تطلب منه أن يتحدث معاني بعض الأسماء المدونة في الدفتري ، فيندهش

عندما يعرف أن القلنسوة تتكون من ثلاث وردات وقطعة مخمل وشريطين ، وكلها تتكلف خمسة أو ستة دولارات . أما في هذه الليلة فقد نظر إلى دفترها كأنه يريد أن يسلي نفسه بما فيه من أرقام وأسماء ، وأن يتظاهر كعادته بالارتياح من إسرافها ، وإن كان في الحقيقة معجباً بحرصها . وأخرجت دفترها الصغير في بطاء ملحوظ ، ثم وضعته أمامه ، ووقفت خلف كرسيه تتشاغل بتدليك جبهته المتعبة .

قالت والرعب يتجلى في نبراتها :

— ينجلني أن ترى دفترى هذه المرة يا چون ، فقد أسرفت أخيراً إلى حد السفه ، وزرت الحوانيت مرارا ، وكان لابد لى أن أشتري بعض الأشياء التي نصحتني بها سالى . وقد اشتريتها بالفعل ، وسأسدد جزءاً من ثمنها حين تأتيني النقود من عمى ، ولكنى أعترف بأنى ندمت بعد شرائها ، وخفت أن تهمنى بسوء التصرف .

وضحك چون وضمها إلى صدره ، وهو يقول بمرح :

— لا تحاولى الاختفاء وراء المقعد ، فلن أضربك لأنك اشتريت زوجاً من الأحذية ، فأنا معجب بقدميك ، ولا يسوؤنى أن تدفعى ثمانية دولارات أو تسعة ، في شراء حذاء جديد .

وكان شراء الأحذية نزوة من نزواتها الأخيرة ، وكان ثمن زوج منها أول ما وقعت عليه أنظار چون في الدفتر . قالت مبيج لنفسها وهى ترتعد « ترى ماذا يقول حين يصل إلى الدورات الخمسين الملعونة؟ إنها أسوأ من

الحذاء كثيراً ، وقد ضاعت في شراء ثوب لا احتياج إليه . » واستبد بها اليأس ، وضاق صدرها بالانتظار ، وتمنت أن تنتهي المسألة بأى صورة كانت .

سألها چون بهدوء :

— ما مجموع نفقاتك هذا الشهر ؟

ووقع سؤاله من نفسها موقعاً غريباً ، إذ لم يكن من عادته أن يسألها بهذه اللهجة ، ولكنها أدركت أنه يريد منها صراحتها المعهودة . وقلبت ميج الصفحة ، ورأسها يدور ، وأشارت إلى الرقم المدون بأسفلها ، وكان مبلغاً كبيراً ، غير الخمسين دولاراً ، التي زادت الطين بلة . ومرت لحظة في صمت رهيب ، ثم تكلم چون ببطء ، فشعرت أنه يبذل جهداً كبيراً في السيطرة على أعصابه . قال :

— حسناً ، إن خمسين دولاراً ليست ثمناً غالياً لثوب حريري ، ولكنه سيتكلف نفقات أخرى في حياكته وتزيينه .

وتنهدت ميج في تخاذل حين تمثلت التكاليف التي يجب أن تضاف إلى الحساب . فقالت :

— إن الثوب لم يصنع بعد .

قال چون بجفاء :

— إن خمساً وعشرين ياردة من الحرير تكفي ثوباً لامرأة صغيرة الجسم . ولست أشك في أن زوجتي ستبدو فيه رائعة الجمال كمسز موفات .

قالت :

— أعرف أنك غاضب علىّ ، ولكنني لم أقصد تبديرا ، ولم أكن أدرك أن الأشياء الصغيرة تكلف كثيرا . لقد غلبني الإغراء حين رأيت سالى تشتري ما تريد ، وتظهر شفقتها علىّ لأننى لا أفعل مثلها . لقد حاولت أن أكون قانعة ، وبذلت فى سبيل ذلك جهداً كبيراً ، ولكن الأمر فاض بي ، وضاق صدرى بحياة الفقر .

ونظمت بكلماتها الأخيرة بصوت خفيض جداً ، ظنت معه أن چون لم يسمعها ، ولكنه سمعها ، وتألّم لها ، فقد حرم نفسه من ملذات الحياة إكراماً لها . وندمت على قولها أشد الندم ، وتمنت لو قطع لسانها قبل أن تنطق بها ، فقد ألقى چون بالدفتى غاضباً ، وهب مذعوراً ، وقال فى صوت يرتجف بالانفعال :

— هذا ما كنت أخشاه ، وأنا أبذل كل جهدى من أجلك يا ميج . ولو أنه عنفها ، أو هزها غاضباً ، ما انخلع قلبها ، كما انخلع لوقع كلماته الموجعة الهادئة ، فهرعت نحوه ، وضمتته إلى صدرها ، وهى تبكى ندماً وتقول :

— چون ، عزيزى ، أنت كريم معى دائماً ، جاد فى توفير أسباب سعادتي ، فثق أننى لم أقصد ما قلت . لقد أفلتت منى هذه الكلمات القاسية الكاذبة دون وعى ، ولست أدري كيف طاوعنى لسانى عليها ! آه ، كيف قلتها ! !

وسامحها چون العطوف ، بما تعهده فيه من كرم عظيم ، ولم يوجه إليها كلمة لوم أو تعنيف ، ولكنها أدركت أنها ارتكبت خطأ كبيراً ، وقالت شيئاً لا يمكن أن ينسى بسهولة .

لقد أقسمت ميج أمام الله أن تحبه على الخير والشر ، وها هي ذى توجهه بفقره ولومه عليه ، بعد أن أنفقت ماله كله بطيش ورعونة . إنها أتت أمراً إذاً ، ولم يكن يؤلمها من ذلك سوى أن چون مضى في حياته هادئاً كأن لم يحدث شيء ، ولكنه أصبح يعكف على البقاء في المدينة إلى ساعة متأخرة من الليل ، فلا يعود إلا وهي تغط في نومها . ومضى أسبوع وميج في ألم بالغ ، وتضاعفت أحزانها حين رجع چون عن شراء المعطف الجديد الذى يحتاج إليه ، ولما سأله لماذا لا يشتريه ، أجاب ببساطة : — ليس لدى ثمنه يا عزيزتى .

ولم تقل ميج شيئاً ، ولكن حين خرج إلى البهو بعد دقائق ، وجدها تدفن رأسها في معطفه القديم ، وهي تبكى وتنشج في حزن ما بعده حزن . وتحديثاً طويلاً في تلك الليلة ، وتعلمت ميج أن تحب زوجها من أجل فقره ، لأن الفقر يجعله رجلاً ، ويمنحه القوة والشجاعة ، ليشق طريقه في الحياة . هذا إلى ما يتحلى به چون من صبر جميل ، يواجه به أخطاء أحبائه ، ويساعدهم على النهوض من عثراتهم .

وفي اليوم التالى نزلت ميج عن كبريائها ، وذهبت إلى سالى تقص عليها ما حدث ، وطلبت إليها أن تليها معروفاً بشراء قطعة الحرير . وقبلت

مسز موقات الطيبة رجاء ميج ، وكانت من الكياسة بحيث لم تقدمه لها هدية لفورها . وعادت ميج إلى البيت ، بعد أن اشترت المعطف الذى كان چون يحتاج إليه ، وحين وصل زوجها إلى البيت ، ارتدت معطفه الحديد ، ووقفت تسأله عن رأيه فى ثوبها الحريرى الحديد !

ونترك للخيال أن يرسم صورة ما جرى بينهما من حوادث وأحاديث ، ويصف كيف تقبل چون الهدية ، وبماذا جرت الأمور بين الزوجين السعيدين بعد هذا الحادث .

وكف چون عن التأخر فى المدينة ، وصار يعود مبكراً كعادته ، ولم تعد ميج إلى جولاتها الأولى فى الأسواق ، وجعل الزوج السعيد يرتدى معطفه الحديد كل صباح ، فإذا رجع إلى البيت فى المساء ساعدته زوجته الصغيرة على خلعه . وفى منتصف الصيف مرت بميج تجربة جديدة ، أعمق التجارب أثراً فى حياة المرأة .

* * *

دخل لورى إلى المطبخ فى « عش الحمام » ذات يوم ، بوجه عامر بالانفعال ، فاستقبلته حنا بدقات كدقات الصنوج ، إذ كانت تحمل فى إحدى يديها مصفاة ، وفى اليد الأخرى غطاء حلة . همس لورى فى أذنها يسألها :

— كيف حال ماما الصغيرة ؟ وأين الباقون ؟ ولماذا لم تخبروني قبل أن أحضر ؟

قالت حنا :

— إن الأم السعيدة في أحسن حال ، وجميعهم في الطابق العلوى يصلون شكراً لله ، ولا نريد جلبه هنا ، فاذهب إلى غرفة الاستقبال ، وسأخبرهم بحضورك .

وما إن انتهت من حديثها ، حتى اختفت في البيت وهي تزجر . وأقبلت چو بعد لحظة ، وهي تحمل في فخار حزمة من صوف الفانلا ، وكانت تضعها على وسادة كبيرة . وعلى الرغم مما كان يبدو على وجهها من رزانة وهدوء ، فقد كانت عيناها تلمعان سروراً وغبطة . قالت في صوت ينم عن انفعال مكبوت :

— اغمض عينيك ومد ذراعيك .

ولكن لورى تراجع إلى ركن الغرفة ، وأخفى يديه وراء ظهره وقال ضارعاً :

— لا ، أشكرك . أفضل ألا أحمله : أنا واثق بأنه سيقع منى !

قالت چو ، وهي تدير له ظهرها ، كأنها تهتم بالخروج :

— إذاً لن ترى ابن أختك !

قال :

— بل أريد أن أراه ، ولكن عليك تقع مسئولية ما يحدث .

وأغمض عينيه في بطولة ، ومد ذراعيه مستسلماً ، وأحس بشيء يدس فيهما . وضحكت چو ضحكة عالية ، وطلب منه أفراد الأسرة جميعاً أن يفتح عينيه بعد لحظة . ولما فتحهما رأى أنه يحمل طفلين صغيرين ، لا طفلاً واحداً . ووقف حائراً مبهوتاً ، ينقل بصره بين المخلوقين الصغيرين البريثين ، وقد ارتسم على وجهه تعبير مضحك للغاية ، فانفجروا جميعاً ضاحكين ، واشتد الضحك بچو حتى لم تعد تقوى على الوقوف ، فجلست على الأرض متقطعة الأنفاس .

صاح لورى فجأة :

— توأمان ! يا إله العرش العظيم !

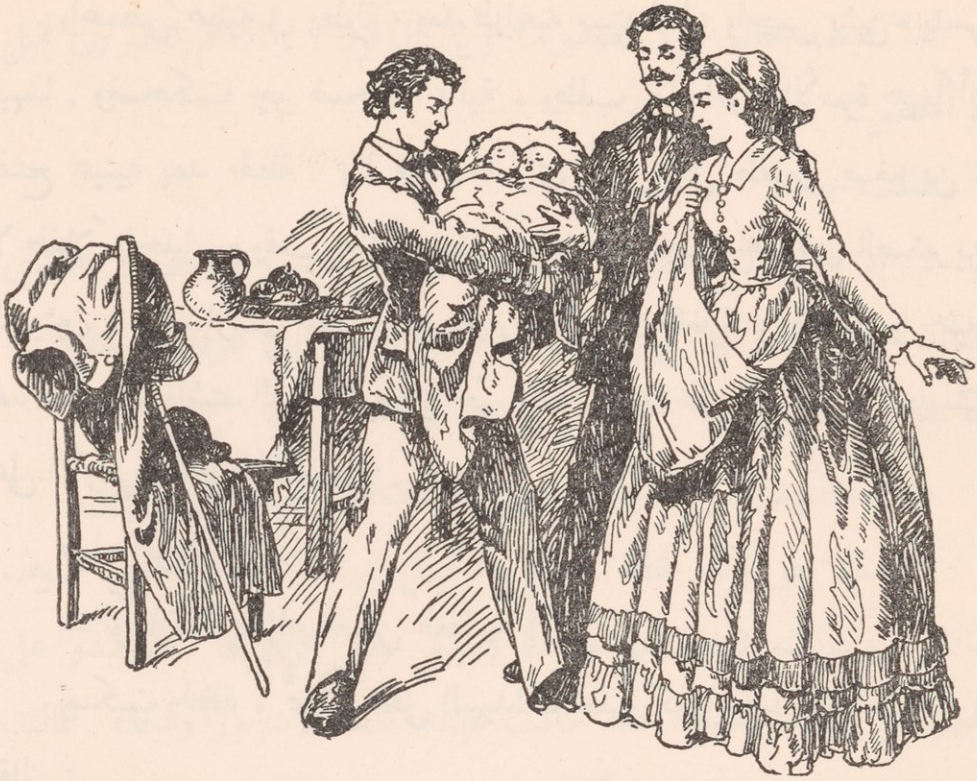
وسكت لحظة ، ثم ألقى على السيدات نظرة كلها توسل واستعطاف ، وقال :

— خذوهما بسرعة ، فلتسرع إحداكن بحملهما ، إن الضحك يخنقني وأخشى أن يسقطا مني !!

وأسرع چون يأخذ طفليه ، ثم حمل كل واحد على ساعد من ساعديه ، ومضى يندرع الغرفة ذهاباً وجيئة ، كأنه يمرن نفسه على رعاية الأطفال . أما لورى فقد استسلم للضحك ، حتى سالت الدموع من عينيه .

قالت چو بعد أن استرددت أنفاسها :

— أليست هذه أروع نكتة في الموسم ؟ لقد حرصت على كتمان الأمر عنك ، لأفاجئك به ، وأمتع النفس بأثر المفاجأة في وجهك .



وأظن أنى وفقت .

قال وهو يحملق بعينين ملؤهما الدهشة والغبطة والحنان :

— هذه أعظم مفاجأة فى حياتى ، والدهشة تعقد لسانى ، فىالها من

فكاهة بديعة ! أهما ولدان ؟ وهل اخترتما اسميهما ؟ دعونى أنظر إليهما مرة

أخرى ، ساعدينى يا چو ، فإن الدهشة تربكنى .

قال مستر مارش ، وهو يبتسم فى وجهه حفيديه ، ويرنو إليهما بحنان

بالغ :

— إنهما ولد وبنت ، أليسا غاية فى الجمال ؟

قال لورى ، وهو ينظر إلى الطفلين ويحاول التمييز بينهما :

— لم أر أجمل منهما ، ولكن أيهما البنت وأيهما الولد ؟

قالت چو بنجث :

— لقد ربطت أمى شريطاً أزرق للصبي ، وآخر أحمر للبنت كعادة

الفرنسيين . هكذا نستطيع أن نميز بينهما دائماً ، وفضلاً عن ذلك فإن لأحدهما عينين زرقاوين وللآخر عينين عسليتين . هيا قبلهما أيها العم تيدى !

قال لورى بتردد :

— أخشى ألا يرحبا بقبلائي .

قالت چو بلهجة الأمر ، وقد خشيت أن ينيب عنه أحداً فى أداء

المهمة الجليلة :

— بل قبلهما الآن ، فهما يحبان القبلات ، وقد تعوداها قبل أن

تحضر .

وأطاع لورى أمر چو ، فزم شفثيه ، وطبع على كل خد قبلة ، بوجه

يرتسم عليه الخوف ، مما أثار ضحك الحاضرين ، وجعل الطفلين يبكيان .

قال لورى ، وقد فاض قلبه سرورا باللكمة اللطيفة التى أصابت وجهه

من يد الصغير :

— ألم أقل لكم أنهما لا يرحبان بالقبلات ؟ انظروا كيف يلکم الصبي

بيديه ، ويضرب برجليه .

ثم انثنى إلى الطفل وقال يحدثه :

— اسمع يا مستر بروك الصغير ، أرجوك أن تكبر بسرعة ، لتصبح رجلا ، وتؤدي واجبك كما ينبغي .

وقالت أمي بلهجة الحالة التي يهملها الأمر :

— سنسمى البنت مارجریت كأُمها وجدتها ، ونُدللها باسم « ديزى » حتى لا تكون هناك ميج أخرى في الأسرة . وسنسمى الصبي چون لورنس ، وأقترح أن نناديه « چاك » ، ما لم نجد تدليلا أفضل .

قال لورى :

— بل سمّوه « ديمى چون » واختصروه إلى « ديمى » فقط .

صاحت چو ، وهى تصفق استحسانا :

— ديزى وديمى ! يا لهما من اسمين جميلين ! ألم أقل لكم إن تيدى

قدير على اختراع الأسماء ؟

وقد وفق تيدى في الاختيار هذه المرة ، وعرف الطفلان باسمى ديزى

وديمى إلى النهاية .



الفصل التاسع والعشرون

زيارات

كانت چو بالإضافة إلى ميزات الكثرة، تعتبر مرجع الأسرة في شئون التفصيل والحياكة، إذ كانت تحسن استخدام الإبرة، كما تحسن استخدام القلم سواء بسواء.

قالت لها أمي، وهي منهمكة في تفصيل بعض الثياب:

— هيا بنا يا چو، فقد حان الوقت:

قالت تسألها:

— إلى أين؟

أجابت آمي :

— أنسيت أنك وعدتني اليوم بنصف دسته من الزيارات ، تؤديها معا ؟

قالت چو :

— أعترف بأنني أتيت حماقات عدة في حياتي ، وقلت أشياء كثيرة بلا روية ،

ولكن لا أظن أنني وصلت من الجنون إلى ذلك الحد الذي يجعلني أعدك بست زيارات في يوم واحد ، وأنا التي تصدعني زيارة واحدة في الأسبوع .

قالت :

— بل وعدت ، وكان شرطاً بيننا أن أنهى لك صورة بث ، مقابل

أن تخرجني معي لنزد زيارات جيراننا .

قالت چو :

— بل اشترطت أن يكون الجو صحواً ، وكان اتفاقنا على هذا ، وأنا

مستعدة لتنفيذ الاتفاق كاملاً ، يا تلميذة شيلوك المرابي ، ولكني أرى السحب تتجمع في الشرق ، والجو ليس صحواً ، وعلى ذلك يكون أساس الاتفاق غير قائم .

وغازپ چو أن تأخذها آمي عند كلمتها ، وتتشبث بوعد قطعته على

نفسها في ظروف خاصة ، فتطالبها بمرافقتها في زيارات رسمية ، في يوم

حار من شهر يولية . إنها تمقت هذا النوع من الزيارات ، ولم يسبق لها

أن قامت به ، فلماذا تضطرها آمي إلى ذلك الآن ؟

ولكنها لم تجد مفرّاً من الخضوع والاستسلام ، فألقت بالمقصد مكرهة ،

وقامت إلى المهمة البغيضة ، وهى تنذر بما فى الجو من مطر ورعد وصواعق .
ولما لم يجدها التعلل فتىلا ، تركت عملها جانبا ، ثم وضعت قبعتها على
رأسها ، وقفازها فى يديها ، وقالت لأختها آمى بلهجة الضحية المستسلمة
لمصيرها :

— إنى على استعداد .

صاحت بها آمى فى دهشة :

— أنت مشاكسة يا چو إلى حد يستثير الملائكة ، أتوئين حقاً أن
تزورى الناس بهذا المنظر ؟

قالت چو :

— إنى أرتاح إلى الملابس الخفيفة ، وأراها تناسب هذا الجو الحار .
وإذا كان الناس يهتمون بشيأى أكثر من شخصى ، فلا أرانى الله
وجوههم . إذا لم يكن حالى يعجبك ، فتأنقى بما يكفيننا نحن الاثنين ،
وكونى رشيقة كما تحبين ، أما أنا فلا تهمنى المظاهر الفارغة ، التأنق
والتزين يخمدان أنفاسى .

تهدت آمى ، وقالت :

— يا إلهى ! إنها فى إحدى نوبات المشاكسة ، وسوف أجن قبل
أن أقنعها بأن ترتدى الثياب اللائقة ، أؤكد لك يا چو أنى لا أسر كثيراً
لهذه الزيارات ، ولكنه دين علينا للمجتمع ، ولا يمكن لأحد غيرنا أن
يوفيه . سأفعل كل ما تطلين منى إذا قبلت أن تعنى بملابسك فى هذه

الزيارات ، وليس الأمر عسيراً عليك ، ففي مقدورك عندما تريدن ، أن تتحدثي بلباقة ، وتلبسي في أناقة ، وتحسنى معاملة الناس . إني فخورة بك يا چو ، فخذى بنصيحتي ، وتعالى معي ، لأنى أخشى الذهاب وحدى . هيا ساعديني على ارتداء ثيابى .

قالت چو ، وقد استبدلت مشاكستها بوادعة الحمل :

— أنت ماكرة واسعة الحيلة ، تمتدحين أختك لتهميها بهذه الوسيلة الماهرة ، أنا لا أقر ولا أعقل فكرة الزينة والأناقة ، ولا أصدق أنك تخافين الذهاب وحدك ، ولكنى سأرافقك إذا لم يكن لى مفر من ذلك ، وسأبذل جهدى فى إرضائك ، فكونى قائدتى فى هذه الرحلة ، وأعدك بالطاعة العمياء . أيرضيك هذا ؟

قالت آمى :

— أنت ملك طاهر ، والآن ارتدى أحسن ملابسك ، وسأعلمك كيف تتصرفين فى كل مكان نذهب إليه ، حتى تتركى أثراً طيباً فى نفوس الناس ، فإنى أريد أن يعجبوا بك ، ولا بد أن يفعلوا ذلك ، إذا حاولت مجاراتى ، وتلطف معهم . صفى شعرك بطريقة جذابة ، وضعى الوردة الحمراء فى قبعتك ، لتضفى رونقاً على ثوبك . البسى قفازك الفاتح ، وخذى منديل المطرز ، وسوف نمر بـمـيج ، فأقترض مظلتها البيضاء ، وأعطيك مظلتى الملونة .

وداحت آمى تصدر الأوامر ، وهى ترتدى ملابسها ، فتطيعها چو

وتعمل بأمرها ، ولكن هذه الطاعة لم تكن تخلو من الامتعاض حيناً ،
ومن المعارضة أحياناً . وتنهدت چو يأساً ، وهى تحشر جسمها فى ثوبها
الأورجاندى الحديد ، وقطبت جبينها غيضاً وهى تربط الأشرطة فى قبعتها ،
وشدت بنيتها بعنف ، كأنما تتشاجر معها . وبدأ عليها العبوس وهى تخرج
المنديل المطرز ، الذى كان تطريزه يחדش أنفها ، ويزيدها ضيقاً بالرحلة
التي تقوم بها مكرهة . وبعد أن حشرت يديها فى قفازها الضيق ، كانت
مهمة التزين والتأنق قد انتهت ، فاتجهت إلى آمى ، وعلى وجهها تعبير من
البلاهة ، وقالت فى وداعة وتواضع :

— إني أشعر بتعاسة بالغة ، وأخشى أن أموت سعيدة إذا قلت إن
منظرى وجيه .

قالت آمى :

— إن مظهرك يبعث على الرضا الكامل ، فدورى أمامى ببطء ، ودعيني
ألقى عليك نظرة دقيقة .

ودارت چو ، وراحت آمى تنسق لها هندامها ، بلمسة هنا ولمسة هناك ،
ثم تراجعت إلى الوراء قليلاً ، ونظرت إليها من بعد ، وقالت برفق :
— هذا جميل ، ولم تبق إلا زينة الرأس ، فهذه القبعة غاية فى الفتنة .
ارفعى هامتك ، وأبرزى جمال قبعتك ، وحركى يديك بخفة ورشاقة ،
ولا تبالى بضيق القفاز . والآن أكملى الزينة بوضع الملفحة حول كتفيك ،
ولا تهربى من ذلك ، فإنها تزيدك جمالا . كانت فكرة طيبة أن أهدتك

العمة مارش ملفحة جميلة رغم بساطتها ، فإن طياتها التي تغطي الكتفين آية من آيات الفن : انظري إلىّ وقولي هل وشاحي منسجم ؟ وهل ثوبي مرتب ، وأزراره منسقة ؟ أحب أن أكشف عن حدائي ، لأن قدمي جميلتان ، أما أنفي فقبيح مع الأسف .

قالت چو ، وهي تحديق فيها بعين الناقد الخبير ، وتتأمل بإعجاب الريشة الزرقاء التي تزين شعر أختها الذهبي :

— إنك آية فنية ، دائماً جميلة ودائماً بهيجة .

ثم سألتها :

— هل أترك ذيل ثوبي يجر في الطريق ، أم أجمعه في يدي يا سيدتي ؟

أجابت آمي :

— أمسكيه بيديك حين تمشين في الطريق ، وأطلقيه حين ندخل البيوت . فالذيل الطويل خير ما يناسب قوامك ، ويجب أن تتعلمي كيف تسحبين أطرافه برشاقة . ولقد فاتتك بعض الأزرار ، فزريها الآن ، وهذا يدل على أنك لم تعني بهندامك كما يجب ، وإلا ما فاتتك هذه الأمور الصغيرة ، مع أن الجمال لا يكتمل إلا بها .

وتنهدت چو في ضيق ، وشرعت تزرر كمها ، وكادت تقطع أزرار قفازها وهي تفعل ذلك . وأخيراً تم استعداد الأختين ، وكملت أناقتهما وزينتهما ، فخرجتا من البيت مثل « صورتين » ، على حد تعبير حنا ، التي كانت تشيعهما مغتبطة من النافذة العليا .

ومرت الفتاتان بميج ، واستعارتا مظلتهما البيضاء ، وبعد أن داعبتا التوأمن ، خرجتا إلى الطريق مرة أخرى ، لأداء أول زيارة . قالت أمي لأختها حين اقتربتا من بيت الزيارة :

— ليكن في علمك يا عزيزتي ، أن سيدات أسرة شستر يعتقدن أنهن آية في الأناقة ، ولذلك أرجو أن يكون مسلكك معهن ممتازا : لا تبدى ملاحظات مفاجأة ، ولا تتصرفي تصرفات شاذة ، وكل ما أطلبه منك ، أن تظلي هادئة رزينة ، فهذا أسلم طريق ، يتفق مع الأنوثة الحق . في مقدورك أن تفعل ذلك دون عناء ، فلن نقضى في بيتهم أكثر من ربع ساعة .

قالت چو :

— تريدن مني أن أكون هادئة رزينة ؟ أهذا كل شيء ؟ نعم ، بوسعي أن أفعل ذلك ، فقد مثلت على المسرح دور السيدة الأنيقة ، وأستطيع أن أؤدي الدور مرة ثانية . إن مواهب التمثيلية عظيمة ، وسترين من قدرتي عجباً ، فليهدأ بالك يا صغيرتي . ولا يقلقك أمرى .

وتنفست أمي الصعداء لهذا الوعد ، ولكن چو المشاكسة نفذته حرفياً : ففي الزيارة الأولى جلست وكل عضو فيها ينطق بالرشاقة . كانت هادئة كمياء البحر في الصيف ، جامدة كالثلج في الشتاء ، صامتة كأبي الهول . وعبثاً حاولت مسز شستر أن تخرجها عن صمتها بامتداح قصتها الجديدة ، وعبثاً حاول بنات مسز شستر أن يثرن فضولها بالكلام عن الحفلات

والرحلات والأوبرات والمودات ، فقد لزمت چو الوقار ، واقتصرت في ردودها على ابتسامة أو إيماءة ، أو كانت تجيب « بلا » أو « بنعم » في خجل وحياء . وراحت آمی توئی إليها عسى أن تستجيب لمحاولات مضيفاتها ، وحاولت دون جدوى أن تشرکہا في الحديث ، ولجأت إلى لکزها بقدمها لتحركها ؛ ولكن چو ظلت صامتة جامدة ، كأنها لاتعی شيئاً مما يدور حولها .

وخرجت الأختان بعد انتهاء الزيارة ، وحين أغلق الباب وراءهما ، قالت إحدى السيدات بصوت وصل إلى مسامعهما :

— يا لمس مارش من مخلوقة متكبرة سمجة !

وضحكت چو بصوت خافت وهی تعبر البهو ، ولكن آمی امتعضت لفشل تعليماتها في توجيه أختها ، فقالت تلومها :

— كيف أسأت فهم قصدى إلى هذا الحد ؟ ما أردت منك إلا الوقار والهدوء ، لا أن تتحولى إلى حجر أخرس أصم . جربى أن تكونى سيدة اجتماعية في زيارتنا لآل لام ، ثرثرى كما ثرثر الفتيات ، وتحدثى باهتمام عن الأزياء والمغازلات ، إن آل لام على صلة بأرقى الأوساط ، ومن صالحنا أن ننال عطفهم ، بودى أن تتركى أثراً طيباً في نفوسهم بأى ثمن .

قالت چو :

— سأكون غاية في اللباقة والانسجام ، فأثرثر وأضحك وأعبث ،

وأشترك في كل صغيرة وكبيرة ، فإني أحب هذا الهذر ، ومن السهل أن أتقن دور الفتاة المرحّة ، وسأأخذ من ماى شستر مثلاً أحتذيه وأتفوق عليه ، وسأجعل آل لام يقولون : « يا لچو مارش من فتاة كلها لطف وحيوية ! »

وأقلق هذا القول آمى ، فهى تعرف چو حين تغلبها نزواتها ، فلا تتقف فى تصرفاتها عند حد ، وبدا الحزن على وجه آمى حين شاهدت أختها تنساب إلى حجرة الاستقبال فى البيت التالى ضاحكة ، وتقبل على الفتيات جميعهن ، وهى تسرف فى قبلاّتها لهن ، ثم تنشئ إلى الشبان فتبتسم لهم برشاقة ، وتشاركهم فى الحديث فى حيوية مدهشة . وكانت مسز لام تعجب بآمى ، وتؤثرها على أخواتها ، فراحت تختصها بالحديث ، وتقص عليها قصة طويلة ، فى حين وقف ثلاثة من الشبان يحومون حول الفتاة ، منتظرين أن تنتهى القصة ، ليتقدموا لإنقاذها . وكانت آمى بهذا الوضع ، لا تستطيع مراقبة چو ، التى بدا أن روح الشر قد تملكها ، فأخذت تتكلم بسرعة شديدة كمسز لام العجوز تماما . ولكن الفضول استبد بآمى حين رأت الرعوس تتجمع حول أختها ، والعيون تستدير دهشة ، والأيدى تلوح عجباً ، كما أثارت فيها ضحكات الشبان رغبة فى الاستمتاع بنصيبها من المرح ، الذى ينغمسون فيه . وبذلت آمى جهداً لتسمع بعض ما تقوله چو ، ثم فاض بها الألم ، حين وصلت إلى أذنيها نكتف من حديث أختها ، وسمعتها تقول : « إنها تحسن ركوب الخيل بمهارة » ، وسألها أحدهم :

« ومن علمها ؟ » ، قالت چو : « لا أحد ، كان لديها سرج قديم ، فكانت تمتطيه ، لتتمرن على أصول الركوب ، وقواعد إمساك الأعنة ، وهي الآن تركب كل شيء ، لأنها لا تعرف الخوف . وصاحب الحظيرة يسمح لها باستئجار خيوله بأجر زهيد ، لأنها تدربها أحسن تدريب . ثم إن لها ميلا للفروسية ، وأنا أقول لها دائماً ، صنعة في اليد أمان من الفقر ، وسيكون في وسعك أن تكسبي عيشك عن هذا الطريق ، إذا فشلت في وجوه الحياة الأخرى . »

وكظمت آمل غيظها مما سمعت ، إذ كان الحديث يعطى فكرة سيئة عنها ، ويظهرها بمظهر المتبدلة ، وهو أبغض شيء إلى نفسها . ولكن ما حيلتها والعجوز ما زالت في منتصف قصتها ؟ وقبل أن تنتهي السيدة من حديثها بوقت طويل ، عادت چو إلى الحديث ، مغرقة في خيالها الماجن ، ترتكب خطأ بعد خطأ . سمعها آمل تقول للشبان :

— . . في ذلك اليوم استبد اليأس بآمل ، إذ كانت الخيول الجيدة كلها في الخارج ، ولم يبق في الحظيرة إلا ثلاثة في أسوأ حال : أحدها أعرج ، والثاني أعمى ، والثالث عاجز لا يستطيع الحركة إلا إذا حشوت فيه ترابا .

وسألها شاب من الحاضرين ، الذين كانوا مستغرقين في الضحك :

— وأيها اختارت ؟

قالت چو :

— لم تختار واحداً منها ، ولكنها سمعت أن هناك حصاناً فتيماً في مزرعة وراء النهر ، ولم تكن سيدة قد ركبته من قبل ، ومع ذلك قررت آى أن تجرب به ، لما اشتهر به من جمال وقوة . وكانت جهودها مثيرة حقاً ، إذ لم يكن فى المزرعة من يعد لها السرج ، فحملت سرجاً ووضعته فى القارب ، وراحت تضرب صفحة الماء بمجدافها حتى وصلت إلى الشاطئ ، وهناك حملت السرج فوق رأسها ، وسارت به — تلك المخلوقة العزيزة — إلى أن وصلت إلى الجرن ، فلما رآها صاحبه العجوز ، كاد يغشى عليه لفرط الدهشة !

وسألها أحدهم :

— وهل استطاعت أن تتركب الحصان ؟

قالت :

— نعم ركبته ، وتمتعت بوقت طيب ، وكنت أظن أنها ستعود إلى البيت مهشمة الجسد ، ولكنها استطاعت أن تروض الحصان فى مهارة ، وأن تكون محور النشاط فى الجماعة كلها .

قال مستر لام الابن ، وهو ينظر إلى آى معجباً بمهارتها وتفوقها :

— إنها جسورة بلا شك .

ورأى حمرة الحجل تخضب وجه آى ، فارتد بصره عنها وهو يتساءل :

ترى ماذا تقول أمه للفتاة ، حتى يحمر وجهها بهذا الشكل ، وتبدو قلقة غير مطمئنة ؟

وازداد احمرار وجه آمى ، وتضاعف قلقها ، حين تحول حديث الجماعة إلى الأزياء ، وسمعت إحدى الفتيات تسأل چو عن الحانوت الذى اشترت منه قبعتها السمراء الجميلة ، وبذل أن تذكر چواسم الحانوت الذى اشترتها منه منذ عامين ، قالت الغبية بصراحة لا داعى لها :

— لقد لونتها آمى بهذا اللون الذى لا يوجد له مثيل فى الحوانيت ، ونحن عادة نلون قبعاتنا بأى لون نريد ، ومن حسن الحظ أن يكون للمرأة أخت فنانة مثل آمى .

صاحت مس لام ، وقد وجدت فى حديث چو متعة كبيرة :

— يا لها من فكرة مبتكرة !

قالت چو ، بلهجة تم عن الزهو والاعتداد بمهارة أختها وأعمالها ، وكان زهواً واعتداداً ضاق لهما صدر آمى ، حتى تمت لو كان فى مقدورها أن تقذف چو بحقيبة يدها ، لتنفث عن صدرها الغيظ المكبوت :

— هذا لا يعد شيئاً بالمقارنة إلى أعمالها الباهرة الأخرى ، فما من شيء يصعب عمله على هذه الصغيرة . لقد احتاجت يوماً إلى حذاء أزرق ، تلبسه فى حفل سالى ، فدهنت حذاءها الموحد بلون السماء الصافية ، فبدا كأنه مصنوع من الحرير .

قالت مس لام الكبرى تطرى مواهب چو الأدبية ، وقد اعترفت فى نفسها بأنها لم ترها فى مثل هذه الشخصية من قبل :

— لقد قرأنا إحدى قصصك أول أمس ، وكان سرورنا بها عظيماً .

وكان ذكر مؤلفاتها يترك في نفسها أثراً سيئاً ، فأحياناً تقف متصلة
 كأنما أهينت ، وأحياناً أخرى تغير موضوع الحديث بكلمة عابرة : وهذا
 ما فعلته مع مس لام ، إذ قالت :

— يؤسفني ألا تختاري لقراءتك ما هو أحسن من قصصي ، فأنا
 أكتب هذا الهراء لأنه يلقي رواجاً بين الأوساط العادية ، أذاهبة أنت إلى
 نيويورك هذا الشتاء ؟

وكانت مس لام قد أعجبت حقيقة بالقصة ، ولذلك رأت في إجابة
 چو خشونة وقحة . وأدركت چو خطأها بعد فوات الأوان ، ولكنها خشيت
 أن تزيد الموقف سوءاً بكلام آخر ، وتذكرت فجأة أن الوقت قد حان
 للانصراف ، فقاطعت حديث الشبان الثلاثة قائلة :

— آمي ، يجب أن نذهب الآن : وداعاً يا عزيزتي ، أرجو أن تتفضل
 بزيارتنا قريباً ، ويسرنا أن تفعل ذلك ؛ أما أنت يا مستر لام فلا أستطيع
 أن أطالبك بزيارتنا ، ولكننا سنرحب بك إذا جئت .

وكانت تحاول بعبارات هذه ، أن تقلد دلال ماي شستر ، فجاء
 تقليداً مضحكاً ، دفع آمي إلى الإسراع بالخروج من الغرفة ، وقد تملكها
 رغبة قوية ، في أن تضحك وتصرخ في آن واحد .

وعندما خرجتا إلى الطريق ، سألت چو أختها بارتياح ملحوظ :
 — ألم أحسن التصرف هذه المرة ؟
 أجابت آمي باقتضاب :

— لم يكن فى الإمكان أسوأ مما كان ؛ ما الذى حملك على رواية هذه القصص السمجة عن السرج والقبعات والأحذية ؟
قالت :

— ولكنها كانت قصصاً مضحكة سُرّ لها الحاضرون واغتبطوا ؛
إهم يعرفون فقرنا ، فلماذا نتظاهر بأننا نملك حظائر للخيول ، ونشتري
ثلاث أو أربع قبعات فى الموسم ، ونستطيع أن نجاريهم فى شراء الأشياء
الجميلة ؟

فقالت أمى يائسة من إصلاح أختها :

— لا أرى داعياً لأن نتحدث عن حياتنا ، ولا أجدر لذة فى التشدد
بفقرنا . أنت عديمة الكبرياء ، لا تميزين بين ما يقال وما لا يقال .
وخجلت چو ، وراحت تحك طرف أنفها بمنديلها الحشن ، كأنما
تكفر بذلك عن سلوكها القبيح ، ثم سألت أختها ، وهما تقتربان من
ثالث قصر فى برنامج الزيارات :

— وكيف تحبين أن يكون سلوكى هنا ؟

أجابت أمى فى اقتضاب :

— تصرفى كما تشائين ، فقد نفضت يدى منك ، ويشت من
سلوكك .

فقالت چو بخشونة ، وقد ضاق صدرها بفشلها :

— إذا سأمتع نفسى كما أريد ، فالأطفال فى البيت ، وسأقضى

معهم وقتاً طيباً ، إن الأناقة تضايقني ، ويعلم الله أني في أشد الحاجة إلى بعض الترفيه .

ولكن سرعان ما خف شعورها بالضيق والقلق حين لقيها الأطفال الصغار ، والأولاد الثلاثة الكبار ، بمنتهى الحماسة والترحيب ، فانصرفت إليهم كلية ، وتركت لآمي تحية المضيفة ، وكذلك تحية مستر تيودور ، الذي تصادف وجوده للزيارة في الوقت نفسه . وانتعشت چو ، وأقبلت على أبناء الأسرة تسمع حكاياتهم باهتمام ، وتداعب كلابهم الصغيرة بهلوسة ، وتوافق من كل قلبها على ما يقولون . وحين طلب منها أحدهم أن تذهب معه إلى السلحفاة التي يربها ، تبعته بخفة ونشاط ، وابتسمت صاحبة البيت حين رأت چو تسوى قبعتها ، التي شوشتها أحضان الأطفال ، من كانت تحبهم بإخلاص ، وتعتز صادقة بمحبتهم لها .

وانطلقت چو على سجيها تستمتع بالزيارة كما يروق لها ، وتركت أختها تتصرف حسب الأصول التي توافقها . وكان عم مستر تيودور متزوجاً من إحدى شريفات الإنجليز ، وكانت زوجه هذه الابنة الثالثة للورد معروف ، فحبتها آمي بقسط مضاعف من الإجلال والاحترام ، متأثرة في ذلك بوجاهة الألقاب ، على الرغم من نشأتها الأمريكية ، وتربيتها الديمقراطية . وكان الولاء القديم للنظام الملكي ، قد خرج بأهل أمريكا منذ سنوات لاستقبال إحدى الأميرات الإنجليزيات ، وظل هذا الولاء عاملاً رئيسياً في عطف أمريكا الشابة على زميلتها إنجلترا العجوز ، وجعلت

الأولى تحبها مثلما يحب الابن الأكبر أمه ، التي تأتي لفرط شغفها به أن تتركه حتى يثور عليها . واستغرقت آمي في لذة الحديث مع هؤلاء النبلاء البريطانيين ، ولكنها لم تنس الوقت المحدد للزيارة ، فلما حانت اللحظة المناسبة ، قامت على كره منها تستأذن في الانصراف ، وراحت تبحث عن چو — التي تعبت في إصلاحها — وهي ترجو ألا تكون قد ارتكبت خطأ يسيء إلى سمعة آل مارش .

وعثرت على چو تجلس على الحشائش مع الأولاد ، وقد قبع كلب قلندر على ذيل ثوبها الأنيق ، وكانت تقص عليهم بعض فكاهات لوري ، وهم يصغون إليها معجبين . وكان أحدهم يداعب السلحفاة بمظلة آمي الجميلة ، والثاني يأكل فطائر الزنجبيل فوق قبعة چو ، والثالث يلعب الكرة بقفازها الأنيق . وكانوا يستمتعون بوقت جميل في صحبة چو ، فلما قامت تجمع متاعها المشتت ، استعداداً للانصراف ، صحبها الأولاد حتى الباب ، راجين أن تعود إلى زيارتهم مرة ثانية . وقد اعتبرت آمي أن چو أساءت التصرف ، وكان من الجائز أن يتطور الموقف إلى أسوأ ، ولكن الله سلم .

قالت چو ، وهي تسير مع أختها ، وقد عقدت يديها وراء ظهرها ، لتخفي المظلة التي لوثتها الأوساخ .

— أليسوا أطفالاً مدهشين يا آمي ؟ إنني أحس بالشباب والمرح حين

أجلس إليهم .

فسألتها أمي ، وهي تتجاهل ما أصاب أناقة چو من عبث الأطفال :
— لماذا تتحاشين مستر تيودور دائماً ؟

قالت چو :

— إني لا أحبه ، لأنه يجلب المتاعب لأبيه ، ويكثر من تعنيف إخوته ، وهو مغرور لا يتحدث عن والدته بالاحترام الواجب . ولورى يقول إنه شاب فاسد ، ولذلك أكره أن أختلط به ، وأفضل أن أتركه كمهاً مهملًا .

قالت أمي :

— ولكن هذا لا يمنعك من أن تعامله بكياسة ، فقد رأيتك تومئين إليه بتحية باردة ، مع أنك ابتسمت في أدب بالغ لتومي تشامبرلين ابن البدال ، وكانت الحكمة تقضى بأن تؤثرى تيودور بالتحية اللائقة .

ولم تسكت چو المشاكسة عن هذه الملاحظة ، بل قالت :

— لن يحدث هذا أبداً ، فأنا لا أحب هذا التيودور ، ولا أحترمه ولا أعجب به ، ولا يهمني إذا كان ينحدر من سبعة لوردات على التوالي ؛ أما تومي فهو سيد ممتاز على الرغم من أنه ابن بدال ، وأنا أقدره لحياثه واجتهاده ، وأحب أن أشعره بتقديري .

قالت أمي :

— إن المجادلة معك مضيعة للوقت . . .

قاطعتها چو قائلة :

— بالعكس يا سيدتى ، ومع ذلك دعينا من هذا الموضوع ، حتى لا نعكر مزاجنا ، وهيا بنا نترك بطاقة لآل كنج ، إذ يبدو أنهم ليسوا فى البيت من حسن الحظ .

وتركت الفتاتان بطاقة لآل كنج ، ثم استأنفتا مسيرهما إلى باقى الزيارات ، وتنفست چو الصعداء حين وصلت إلى البيت الخامس ، وقيل لهما إن الفتيات مشغولات عن مقابلة الضيوف . قالت لأختها : — أرى أن نعود إلى البيت ، ولا داعى اليوم لزيارة العممة مارش ، فباستطاعتنا أن نفعل ذلك فى وقت آخر . إني أكره أن نواصل السير بملابسنا الأنيقة ، ونحن متعبتان مجهدتان .

فقالت آمى :

— تكلمى عن نفسك من فضلك ، فإن عمى يسرها أن نزورها فى أبهى حلة وأكمل منظر ، ولا أحب أن أحرمها من هذه المتعة ، ولن تسيء الزيارات الرسمية البسيطة إلى هندامك ، نصف ما أساء الأطفال والكلاب الذين كنت تلاعبينهم . انحنى قليلا لأنفض عن قبعتك فتات الحبز والفطائر .

قالت چو نادمة ، وهى تنقل بصرها من ثوبها المشوش إلى ثوب أختها

النظيف :

— يا لك من فتاة طيبة يا آمى ؛ وددت لو كان لى بعض قدرتك على خدمة الناس حتى أدخل السرور على قلوبهم . إني أفكر فى هذا ، ولكن

التنفيد يستغرق منى وقتاً طويلاً ، ولذلك أفضل الانتظار حتى تحين الفرصة ، فأؤدى لهم خدمة كبيرة تعوضهم عن إهمالى فى الخدمات الصغيرة . ولكنى أعترف بأن الخدمات الصغيرة تترك فى النفس أثراً أكبر فى آخر الأمر .

ولان قلب آمى فى الحال ، ورقت عاطفتها ، فابتسمت ثم قالت بلهجة الأم الحنون :

— من واجب النساء — خصوصاً الفقيرات — أن يعودن أنفسهن معاملة الناس باللطف والبشاشة ، فإنها سبيلهن الوحيد إلى رد الجميل . وإذا تذكرت نصيحتى هذه وعملت بها ، فسيحبك الناس أكثر منى ، لما حباك الله به من دواعى المحبة .

قالت چو :

— إنى مؤمنة بصواب ما تقولين ، ولكنى امرأة هوائية المزاج ، وسأظل كذلك دائماً ، وأؤكد لك أنه أسهل على أن أغامر بحياتى من أجل شخص ، من أن ألافه مكرهه . من سوء الحظ أن تكون للإنسان أهواء فى الحب أو البغض ، أليس كذلك ؟

قالت آمى :

— وأسوأ منه أن لا يستطيع الإنسان إخفاء أهوائه . أنا لا أقر سلوك تيودور ، ولست أقل منك إنكاراً لأفعاله ، ولكن شعورى الشخصى لا يصح أن يدفعنى إلى جرح إحساسه ، أو إلى التقصير فى مجاملته كما

فعلت ، فهذا سلوك سيء .

قالت چو :

— بل يجب أن نظهر نفورنا من سلوك الفتيان الطائشين ، والمجاملات العادية وسيلتنا إلى ذلك ، لأن النصيحة والإرشاد لا يجديان شيئاً . لقد تعلمت ذلك من صداقتي لتيدى ، وتبينت بالتجربة أن بعض التصرفات الصامتة تؤثر فيه أكثر من الكلام ، وأرى أن نطبق هذه القاعدة على الآخرين ، كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

قالت آى بلهجة جادة ، لو سمعها تيدى لأغرق في الضحك :

— إن تيدى فتى ممتاز ، ولا يمكن أن يقارن بالآخرين ، ولو كنا جميلات أو ثريات أو شهيرات ، لحاز لنا أن نفعل ما نريد . أما أن نكون غير ذلك ، ثم ننظر شزراً إلى من لا يعجبنا ، ونبتسم لمن يعجبنا ، فسلوك يضر بنا ولا يؤثر في غيرنا ، ولن يقال عنا إلا أننا أهل شذوذ وتزمت .

قالت چو :

— وهل نجاهل من نكره ، ونجافى من نحب ، لأننا لسنا جميلات أو مليونيرات ؟ هذا والله ضرب جديد من الأدب غاية في العجب والطرافة !

قالت آى :

— ليس في مقدورى أن أقنعك ، ولكنى أعلم أنها تقاليد الحياة في العالم كله ، ومن يخرج عليها ينال السخرية والاشمئزاز . وأنا شخصياً لا أحب المصلحين ، ولا أريد أن تنصبى نفسك مصلحة للناس .

قالت :

— وأنا أحب المصلحين ، وسأكون واحدة منهم إذا استطعت ، إذ لا تقدم للدنيا بغيرهم ، مهما سخر العالم منهم واشمأز ، نحن نختلف في هذه النقطة كل الاختلاف ؛ أنت تنتمين إلى القديم بعتيقه ، وأنا أنتمى إلى الحديث بجديده . وستوصلك طريقتك إلى خير ما تتمنين ، أما أنا فسأتمتع ، عن طريق التجديد ، بوقت حافل بالحياة والنشاط ، وسأتلذذ بصيحات السخرية والاستهزاء .

قالت آى :

— حسناً . . . أمسكى عن هذا الحديث الآن ، ولا تشغلى عمتك بأفكارك التقدمية .

قالت چو :

— سأحاول ، وإن كانت الرغبة تملكنى أحياناً فى الانفجار أمامها بحديث جرىء أو رأى ثائر ، ولكن ماحيلتى ، وهذا نصيبى من الحياة ؟ وكانت العمتمان كارول ومارش تجلسان معاً غارقتين فى حديث طويل ، فما إن دخلت الفتاتان حتى سكتتا عن الكلام ، وفى نظراتهما مايوحى بأن حديثهما كان يتناول بنات أخيهما . وكانت چو قد فقدت مرحها ، وتملكتها روح المشاكسة ، ولكن آى أدت الواجب على أكمله ، وأرضت العجوزين بهدوءها وأدبها ، واستمالتهما ببشاشتها وصفاء ذهنها وبراعة قلبها ، فرحبنا أجمل ترحيب بها وأسبغنا عليها تحيات حارة ، حتى

قالتا بعد انصراف الأختين : « إن هذه الفتاة تتحسن يوماً بعد يوم » .
 وجلست أمي إلى جانب عمها كارول ، وفي محياها أبلغ معاني الثقة
 بالنفس ، وهي التي يقدرها الكبار في الشباب ويحبونها . سألتها العمّة :
 — أتشتركين في السوق الخيرية يا عزيزتي ؟

أجابت :

— نعم يا عمتي . . لقد طلبت مني مسر شستر أن أمدّ لها يد المعونة ،
 فتطوعت بالبيع عند إحدى الموائد ، إذ ليس لدى ما أقدمه إلا وقتي .
 وقالت چو في حزم :

— أما أنا فلن أشترك في هذه السوق ، وإني أكره أن يمن الناس علىّ ،
 ويصدروا إلىّ الأوامر ، يظن آل شستر أنهم يسبغون علينا جميلاً كبيراً
 بدعوتنا إلى مشاركتهم في هذه السوق ، ويدهشني أن توافقي على الذهاب
 يا أمي ، فهم لا يريدون منك إلا العمل والخدمة .

قالت أمي :

— وإني أرحب بهذا ، فليس السوق لآل شستر ، بل للمحرومين
 والفقراء ، ولا شك أنها مجاملة منهم أن يطلبوا مني نصيباً من العمل ، لأنال
 نصيباً من السرور والمتعة . أما الرئاسة فلا تفيدني ما دام الغرض منها سامياً
 سليماً .

قالت العمّة مارش ، وهي تنظر إلى چو من فوق نظارتها في عبوس

وتجهم :

— أنت على حق يا آمى ، وأنا أحب روحك الطيبة الراقية ، ومن دواعى السرور أن نساعد من يقدرّون جهودنا ، وليس أدعى إلى النفور من أن ينكر بعض الناس قيمة هذه الجهود النبيلة .

ولو كانت چو تعلم ما تخفيه المقادير من سعادة لأحدهما ، لتحولت فى طرفة عين إلى حمّامة وديعة ، ولكن ليس لقلوبنا — لسوء الحظ — نوافذ تطل منها على عقول الآخرين ، فتعرف ما يدور بخلد الأصدقاء من خير لنا . حقيقة أن الخير عموماً لا بمعرفة المستقبل ، ولكن المعرفة أحياناً توفر الوقت إلى الهدوء وراحة البال . وكان من سوء حظ چو أن أفلت زمام لسانها ، فقالت شيئاً حرمها من السرور سنوات عدة ، وعلمها درساً لا ينسى فى وجوب السيطرة على النفس والكلام . إذ قالت لعمتها :

— إنى لا أحب أفضال الناس وجمائلهم ، لأنها تخمد أنفاسى ، وتبعث فى نفسى إحساساً بالدلة والعبودية ، وأفضل أن أعمل بنفسى لنفسى ، وأتمتع بحريتي كاملة .

وتنحنت العمّة كارول برفق ، وتطلعت إلى العمّة مارش فى نظرة ذات مغزى ، ثم قالت بإيماءة حاسمة :

— ألم أقل لك هذا ؟ !

وجلست چو شاحخة بأنفها فى الهواء ، وعلى وجهها دلائل الثورة والانفعال ، وبدت على الرغم من ذلك جذابة لطيفة ، وهى تجهل أثر كلامها فى مستمعاتها .

سألت العمّة مارش آمى ، وهى تربت على كتفها :

— أتتكلمين الفرنسية يا عزيزتى ؟

أجابت آمى ، وهى تنظر للعمّة مارش نظرة مفعمة بالشكر :

— أتكلّمها بطلاقة ، بفضل عمّتى مارش ، فقد جعلت أستر تمرّنى عليها كلّما أردت .

والتفتت العمّة كارول إلى چو تسألها :

— وأنت ، كيف حال اللغات معك ؟

أجابت چو بسرعة :

— لا أعرف كلمة منها ، لأنى محرومة من نعمة الحفظ ، فضلا عن

أنى لا أطيق الفرنسية ، إنها لغة فى منتهى الدلالة ونفسى تضيق بها .

وتبادلت العمّتان النظرات مرة أخرى ، ثم قالت العمّة مارش لآمى :

— أعتقد أنك بخير الآن يا عزيزتى ، وصحتك على ما يرام ، فهل

ما زلت تشعرين بتعب فى عينيك ؟

أجابت آمى :

— لا ، شكراً لك يا سيدتى ؛ إنى على خير حال ، وأرجو أن يمكننى

الله من أداء أشياء عظيمة فى الشتاء القادم ، حتى أكون مستعدة للذهاب

إلى روما حين ما يحل الموعد السعيد .

قالت العمّة مارش :

— أيتها الفتاة الطيبة ، أنت تستحقين الذهاب إلى روما ، وسوف تذهبين في يوم ما .

وربتت على رأسها ، وهي تنحني لتلتقط لها بكرة الحيط .
وصاح الببغاء پولى يغنى :

رقعى الثياب وأقفل الباب
وأوقدى النار وانسجى الحمار

وهبط على كرسى العمة ، ووقف على ظهره ينظر إلى چو ،
تساؤل وقبح ، طربت له الحاضرات وضحككن ، فقالت العمة العمجوز :
— يا لك من طائر دقيق الملاحظة .

وصاح الببغاء يقول ثانية :

— أليس في نيمتك أن تتمشى قليلا يا عزيزتى ؟

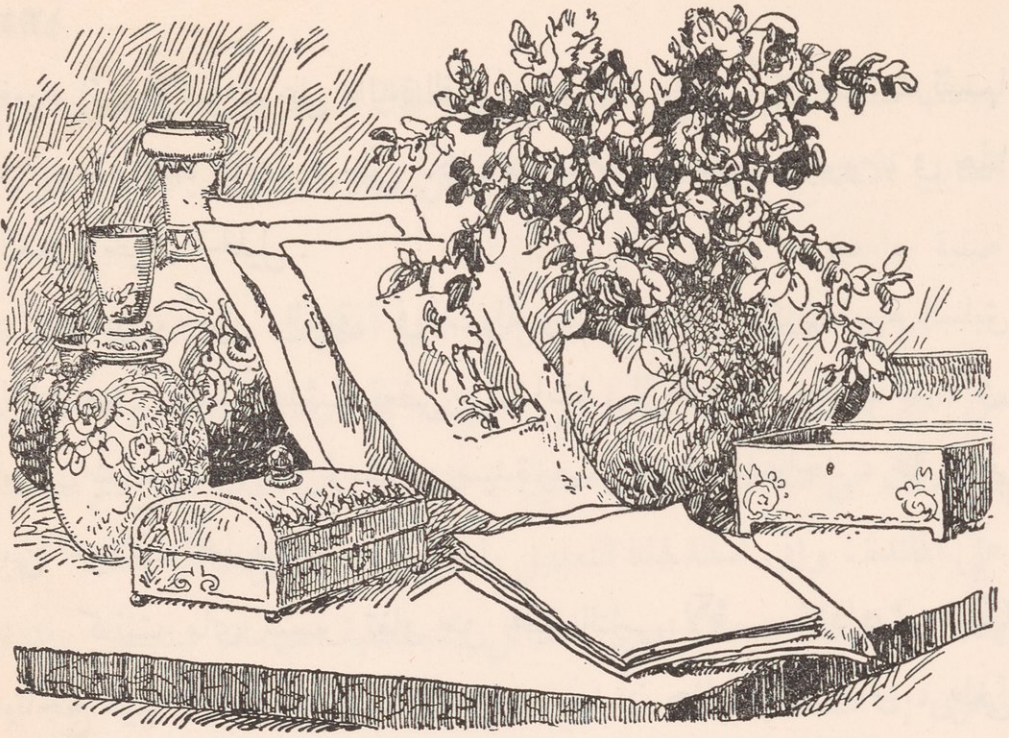
وقفز نحو الصيوان ، ونظر إليه بما ينم عن رغبته في قطعة من السكر .
فقالت چو تجيب الببغاء :

— هذا ما أنتويه بالفعل ، هيا بنا يا آمى ؛

وأنهت چو الزيارة بهذه الجملة ، وقد ازداد يقينها بسوء أثر الزيارات
في نفسها ومزاجها . وصافحت عمتهما على طريقة الرجال ، أما آمى فقبلتهما ،
وانصرفت الفتاتان تاركتين وراءهما أثرين مختلفين اختلاف الظل والشمس
المشرقة .

قالت العمة مارش :

- من الخير يا ماري أن تفعل ما اتفقنا عليه ، وسأتكفل بالنفقات .
 فأجابت العمّة كارول :
 — سأفعل بالتأكيد ، إذا وافق أبوها .



الفصل الثلاثون

(نتائج)

كانت سوق مسز شستر الخيرية آية في الأناقة وحسن الذوق ، حتى اعتبر فتيات الجيرة أن دعوتهن إلى الاشتراك فيها شرف ما بعده شرف . وقد وجهت الدعوة إلى أمي دون أختها چو ، فكان خيراً جزيلاً ، إذ كانت چو في هذه الفترة من حياتها ذات كبرياء عظيمة ، واعتزاز شديد بالنفس ، ولذلك تلقت صدمات كثيرة قبل أن تدرك كيف تسير مع الحياة بسهولة ويسر . ولا شك أن الصدمات تركت چو المترفعة المشاكسة في وحدة قاسية ، بعكس أمي التي كوفئت على كياستها وذوقها خير مكافأة ،

فعهد إليها الإشراف على مائدة الفن في السوق ، والحق أنها أجهدت نفسها في إعداد هذه المائدة ، حتى تكون قد ساهمت بنصيب موفور ، في هذا العمل الخيري الجليل .

وسارت أمور السوق في سهولة ويسر ، حتى كان اليوم السابق لافتتاحها ، عندما حدثت بعض مناوشات ، لم يكن من حدوثها بد ، في مكان يجمع نحو خمس وعشرين سيدة يعملن في صعيد واحد ، على الرغم من اختلاف أعمارهن ومشاربهن .

كانت ماى شستر تغار من محبة الناس لآمى ، وازدادت غيرها وتأجج لهيها لبعض الحوادث التافهة ، منها أن جمال لوحات آمى ، طغى على الأواني التي صنعتها ماى وتعبت في زخرفتها ؛ ومنها أيضاً أن أثر تيودور آمى بأربع رقصات في الحفل الذي أقيم بعد ذلك ، ولم يرقص مع ماى إلا مرة واحدة . وجاء الحادث الثالث بما حزن في قلب ماى ، وأعطاها العذر لتكشف عن عداؤها سافرا ، وكان ذلك عندما همس بعض المتمالقين في أذنها بأن بنات مارش سخن منها ، في أثناء زيارتهن لآل لام ، وجعلنها محور تفكههن . ولعل جزءاً من اللوم في هذا يقع على عاتق چو ، التي جاء تقليدها الحبث لماى شستر حيا ناطقاً ، بحيث لم يخف أمره على أحد كما أن جزءاً آخر من اللوم يقع على آل لام الذين تسربت منهم هذه الفكاهة إلى مسامع ماى . وعلى أى حال لم يشعر أحد من آل مارش بالحق الذي يعتلج في قلب ماى ، ولذلك كان حزن آمى بالغاً ، عندما

جاءتها مسز شستر - التي ساعدها بطبيعة الحال السخرية بابنتها - في اليوم السابق للافتتاح ، وقالت لها بلهجة تسيل غدوبة ، وإن كانت نظراتها صلبة جامدة :

— لقد تضايقت فتيات كثيرات لأنني أعطيت هذه المائدة لواحدة من غير بناتي ، باعتبار أنها أبرز الموائد ، وأكثرها جاذبية . ولما كانت بناتي أول من ساهمن في هذه السوق ، فقد رأين أن نعهد إليهن بالإشراف على المائدة ، وإني آسفة لهذا التعديل يا عزيزتي ، ولكنني واثقة بأنك أكثر إخلاصاً للمبدأ من أن تعيرى المسائل الشخصية اهتماماً . ستعطين مائدة أخرى إذا شئت .

وكانت مسز شستر تظن أن الأمر سينتهي بانتهاء كاهاتها ، ولكنها وجدت المهمة عسيرة تحت نظرات آمي المسالطة ، فتملكها الاضطراب حتى لم تستطع أن تنطلق على سجيته .

وأحست آمي بأن وراء هذه المسألة ما وراءها ، وإن لم تستطع التكهن بما هنالك ، وشعرت بجرح كبريائها ، وأرادت أن تشعر محدثها بهذا الجرح فقالت :

— أظنك تفضلين أن لا أشرف على أية مائدة في السوق ؟

فقالت مسز شستر :

— لا . . . لا . . . يا عزيزتي ، أرجو أن لا تسيء الظن بي ؛ المسألة

لا تعدو وضع الأمور في نصابها ، فمن الطبيعي أن يكون لبناتي مكان



الصدارة في السوق ، وهذه المائدة أليق بهن من غيرها ، وقد رأيت أن أوضح
 لك الأمر بطريقة لطيفة ، تقديراً لجهودك الثمينة ، ومن واجبنا في مثل هذه
 الظروف أن نتخلى عن رغباتنا الشخصية في سبيل الغاية السامية . سأختار
 لك مكاناً حسناً على مائدة أخرى ، ألا تحبين مائدة الزهور ؟ إن المشرفات
 عليها صغيرات ، وفي حاجة إلى المعونة ، ويقتني أنك ستخلقين منها شيئاً
 جميلاً أنيقاً ، والزهور كما تعلمين جذابة دائماً .

وأضافت ماى شستر ، وفى عينيها نظرة ذات مغزى :

— جذابة للرجال على الأخص !

وأدركت آى سبباً واحداً من الأسباب التى أفقدتها الخطوة لدى آل شستر ، واحمر وجهها غضباً ، ولكن فيما عدا ذلك ، لم تهتم بسخرية الفتاة ، وأجابت بلطف غير منتظر :

— سأذهب حيث تريدن يا مسز شستر ، وسأترك مكانى فوراً ، لأعنى بمائدة الزهور كما تحبين .

قالت ماى ، وقد بدأت تحس بتأنيب الضمير :

— بوسعك أن تضعى معروضاتك الخاصة على مائدة الزهور إن أردت .

وكانت فى الحقيقة تريد أن تتلطف مع آى ، ولكن آى أساءت فهم ذلك ، فقالت بسرعة :

— سأخذها بالطبع ، ما دامت تقف فى طريقك .

وأسرعت تجميع أشياءها فى مِرولتها ، وسارت بها وقد اختلطت عليها الأمور ، وأحست بأن الإهانة لم تقتصر على شخصها ، بل نالت أعمالها الفنية أيضاً .

وعندما ابتعدت قالت ماى لأمها ، وهى تنظر فى قلق إلى الفراغ الذى خلفه نقل صور آى من مائدتها :

— رباہ ! لقد جنت الفتاة ! ليتنى لم أطلب إليك أن تكلمها يا أماه .

فقال الأم ، وقد أحست بصغر شأنها لاشتراكها في هذه
المشاحنات :

— إن مشاحنات البنات سرعان ما تنهى .

وعندما ذهبت آوى إلى مائدة الزهور ، قابلتها الفتيات الصغيرات
بسرور عظيم ، وبالغن فى الترحيب بها وبكنوزها الفنية ، مما كان له أثر
كبير فى تهدئة عواطفها الشائرة . وبدأت تعمل فى الحال ، وكلها عزم
على أن تبلغ ذروة النجاح بزهورها ، ما دامت لم تستطع ذلك برسومها .
ولكن خيل إليها أن الظروف تتحالف كلها ضدها : فالوقت متأخر ،
وهى منهكة القوى متعبة ، وكل من بالسوق مشغول عنها بعمله الخاص ،
وليس هناك من يعاونها ، حتى الفتيات الصغيرات كن يعطينها أكثر مما
يساعدهن بجلبتهن وثرثرتهن ، ومحاولتهن الفاشلة فى المحافظة على النظام .
وظل قوس النصر — المجدول من الفروع الخضراء والزهور الياضعة —
يمايل مهدداً بالسقوط فوق رأسها ، وهى تملأ السلال المعلقة فيه بالورود .
وأصيبت يداها بجروح وكدمات لكثرة ما دقتهما بالمطرقة ، وهى تثبت
القوس فى مكانها ، كما كان تيار الهواء البارد يلفحها ، فانتابها القلق ،
وخافت أن تمرض ، فتتخلف عن حضور الافتتاح فى اليوم التالى .
ولعل كل قارئة مرت بمثل هذه التجربة ، تقدر محنة آوى ، وتدعو لها
بالتوفيق فى أداء واجبها .

وحين عادت إلى البيت فى المساء ، وروت القصة لأهلها ، ثاروا

جميعاً ثورة عنيفة ، وقالت والدتها :

— إن آمى أحسنت التصرف ، ولكن ساوك آل شستر كان فضيحة

كبيرة .

وأعلنت بث عزمها على مقاطعة السوق ، وأقسمت ألا تذهب إليه
بأى حال من الأحوال ؛ وتساءلت چو لماذا لا تجمع آمى لوحاتها الجميلة
وتسحب بها فوراً ، وتترك أولئك الدنيئات يمحضين بدونها ؟
قالت آمى :

— لا يصح أن أقابل دناءتهن بمثلها ، ولقد كان من حقى أن أثور
وأغضب ، ولكنى اخترت أن أكبت شعورى فى صدرى ، وقد يشعروهن
مسلكى هذا بالخطأ أكثر من الثورة والغضب . أليس كذلك يا أماه ؟
فقالت الأم بلهجة السيدة الحكيمة المجربة :

— لقد أحسنت صنعاً يا عزيزتى ، وليس أقوى أثراً من مقابلة الإساءة
بالإحسان ، وإن كان يصعب علينا أحياناً أن نكظم غيظنا ، ونغفر الإساءة
لخصومنا .

وظلت آمى طوال اليوم التالى متمسكة بقرارها ، بالرغم من توافر العوامل
التي تغريها بالاحتجاج والانتقام ، وكان غرضها أن تنحى أمام العاصفة ،
لتقهر غريمتها بالحسنى ، وساعدها على تحقيق هذا الغرض حادث صغير ،
وقع فى بداية اليوم ، فترك فى نفسها أبعاد الأثر : إذ بينما كانت البنات
الصغيرات يملأن سلال الزهور فى حجرة جانبية ، وقفت تشغل نفسها

بتنظيم مائدتها ، فوقعت عيناها على رسومها الحبيبة ، ورأت بينها كتيباً
بغلاف قديم كان أبوها قد عثر عليه بين تحفه وذخائره . وكان الكتيب
يحوى نصائح رائعة مختلفة ، فعكفت عليه تتصفح ، حتى استوقف
نظرها بيت من الشعر جعلها تقف عنده وتفكر . وكان الشعر مخطوطاً بين
رسوم ونقوش متعددة الألوان ، موشاة بالأزرق والذهبي ، وسط زهور
وأشواك ، وكان الشعر يقول : « أحب لجارك ما تحب لنفسك » .

وراحت آى تنقل بصرها بين الكتيب ووجه ماى ، فرأت من خلف
ألوانى الزهور ، أن الفتاة غاضبة ، لأنها لم تستطع ملء الفراغ الذى نشأ
عن سحب لوحات غريميتها . فقالت آى لنفسها : « نعم » كان يجب أن
أحب لجارى ما أحب لنفسى ، ولكنى لم أفعل ذلك » .

ووقفت برهة تقلب صفحات الكتاب فى يدها ، فتقرأ فى كل صفحة
منها لوماً هادئاً على جموح النفس وقساوتها . والنصائح الغالية تأتينا كل يوم
فى الطريق والمدرسة وفى المكتب وفى البيت ، وحتى أمام الموائد وفى الأسواق
الخيرية قد تصل إلينا كلمات طيبة ، لا تبلى حكمتها الأيام . وهذا
ما حدث لآى ، فقام ضميرها يعظها بما استوحاه من نصوص الكتيب ،
وكان أن فعلت ما لا تفعله عادة ، وهو أنها آمنت بالموعظة من كل قلبها ،
وانبرت إلى تنفيذها فوراً .

وكانت ثلة من البنات يقفن إلى جانب مائدة ماى ، وهن يطرين
المعروضات الجميلة ، ويتسعلن هامسات عما دعا إلى تغيير نظام البائعات

على الموائد . وأدركت آمل أنهم يتحدثون عنها ، بعد أن سمعن جانباً واحداً من القصة ، واستخلصن منه نتيجة تظلمها ، فتضايقت لذلك ، ولكن روح الخير غلبت عليها ، فلما سمعت ماى تقول فى أسمى :

— إن الموقف غاية فى السوء ، والوقت لا يتسع لإعداد أشياء أخرى ، ولا يصح أن نملاً الفراغ بالتوافه ، لقد كانت المائدة كاملة ولكنها فسدت الآن .

قالت إحدى الفتيات تقترح حلاً :

— أعتقد أنها لن ترفض إعادة الأشياء إلى مكانها ، إذا طلبت منها ذلك .

فبدأت ماى تقول :

— وكيف أطلب منها بعد كل ما حدث بيننا ؟

ووجدت آمل الفرصة لتظهر روحها الطيبة ، فصاحت بغريمتها تقول لها من أقصى البهو باسمه :

— لست فى حاجة لأن تسألنى إذا كنت تريدنيها ، خذنيها بكل سرور ، لقد كنت أنوى إعادتها من تلقاء نفسى ، لأنها أليق بمائدتك من مائدتى . إليك الأشياء فخذنيها من فضلك ، وسامحني إن كنت قد تسرعت بسحبها ليلة أمس .

وما انتهت من إعادة الصور إلى مكانها . حتى سارعت بالعودة، وهى تشعر أن إسداء الجميل أسهل من طلب الشكر .

قالت إحدى البنات :

— أليس جميلاً منها أن تفعل ذلك ؟

ووافقتها ماى بصوت خفيض ، ولكن فتاة لاذعة اللسان قالت وهى

تضحك بنجث :

— تصرف جميل جداً ، ولكنها لم تلجأ إليه إلا حين أدركت ألا أمل

لها فى بيع الصور على مائتها .

وكان تعليقاً ظالماً ، فنحن حين نقدم تضحياتنا الصغيرة ، لا ننشد

غير التقدير ، لذلك أحست آمى ، بأسف بالغ على ما أسدت من جميل

قوبل بالنكران . ولكنها لم تكن تعرف أن المستقبل القريب يدخر لها خير

الجزاء : فقد وقع حادث صغير ، رفع روحها المعنوية ، وجعل مائتها

تتألق وتردهر بفضل حذقها ومهارتها ، وكذلك بدد التوتر وأعاد الأمور

إلى مجاريها .

مضى اليوم بآمى طويلاً شاقاً ، بعد أن هجرتها الصغيرات اللواتى كن

يساعدها ، ولم يقبل على زيارة مائتها إلا رواد قليلون ، فجلست بجوار

زهورها وحيدة حزينة ، تتحسر على الباقات التى ذبلت ، قبل أن يأتى

المساء بوقت طويل .

وكان الازدحام حول مائدة الفن عظيماً طيلة اليوم ، لأنها كانت

أكثر الموائد جاذبية وجمالاً ، وأقبل الوجهاء على شراء معروضاتها ،

فامتألت صناديقها بالمال . وظلت آمى تتطلع إلى تلك المائدة ، وفى نفسها

حسرة على حرمانها من مكانها الطبيعي فيها ، وشعرت أنها فقدت كثيراً من سعادتها بانزوائها في ذلك الركن دون عمل مفيد . وقد يستهين بعضنا بهذا الوضع ، ويعتبرونه أتعفه من أن يستحق الاهتمام ، ولكن أمي كانت شابة جميلة مرحة ، ووضع كهذا لا يدعوها إلى السأم والملل فحسب ، بل يحنق أنفاسها أيضاً ، ويملاً صدرها بالضيق والشجن . وبلغ بها الحزن أقصاه حين تخيلت أهلها عندما يجتمعون بلوري وأصدقائه في المساء ، ويعلمون بما جرى لها ، فيرون فيها أصدق صورة للشهيدة التي ذهبت فداء المبدأ .

ولم تعد أمي إلى البيت إلا وقد أرخى الليل سدوله ، ورغم أنها لم تشك لأهلها ، ولم تقص عليهم شيئاً مما جرى ، فقد أدركوا من سكونها وشحوبها كيف كان يومها شاقاً متعباً . وأعطتها أمها فنجاناً إضافياً من الشاي ، وساعدتها بث على تنسيق ثوبها ، وزينت لها شعرها بتاج من الزهور ؛ أما چو فقد أدهشت أهلها بإشارات غامضة إلى ما ينتظر من انقلاب في شأن الموائد .

وخرجت أمي في الصباح التالي مبكرة ، عسى أن تجد مزيداً من الزهور الياقة تعزز بها مائدتها وتنعشها ، قالت تحدث چو وهي بسبيلها إلى الانصراف :

— أرجو ألا تقوى بأى عمل عنيف يا چو ، إذ لا أريد أن أحدث جلبة . اسلكي مسلكاً حسناً ، ودعي الأمور تسير في مجاريها .

قالت چو ، وهى تطل من فوق البوابة فى انتظار قدوم لورى :

— ليس فى نيتى إلا أن أكون لطيفة هادئة ، وسأقف مع أصحابى على مائدتك أطول وقت ممكن ، وسوف يساعدنى تيدى وأصدقائه فى ذلك ، وأملئ أن نقضى وقتاً طيباً .

وتعالى وقع أقدام لورى ، وهو آت فى ضوء الصباح الباهت ، فأسرعت إليه چو تستقبله وتقول :

— أهذا أنت يا صديقتى ؟

قال ، وهو يتأبط ذراعها منشرحاً ، كأنما تحققت أمانيه كلها :

— نعم يا صديقتى ، أنا هو .

قالت چو :

— آه يا لورى ، لو علمت بما حدث .

وراحت تقص عليه متاعب آمى بجرارة الأخوة وإخلاصها ، فقال وقد سرت فيه الحماسة لقصتها :

— سيذهب أصدقائى إلى السوق زرافات زرافات ، ولن أكون لورى إذا لم أجعلهم يشترى كل وردة على مائدة آمى ، ويعسكرون أمامها طول الوقت .

قالت چو بلهجة يشوبها الاشمئزاز :

— تقول آمى إن الزهور على مائدتها ذبلت ، والجديد منها لا يصل إلا فى وقت متأخر ، أنا لا أحب أن أتجنى على الناس أو أظلمهم ،

ولكنى أشك أن أحدهم يؤخر وصولها عمداً . إن من يرتكب الكبائر مرة ، لا يكثر عليه أن يرتكبها مراراً .

فسألها لورى :

— ألم يعطكم البستاني أجمل زهور حديقتنا ؟ لقد طلبت إليه أن يقدم لكم ما تريدون .

أجابت چو :

— لا علم لى بذلك ، ولعله نسى ، فلا داعى لإزعاجه بالطلب مرة أخرى ، وإن كنت حقاً فى حاجة إلى بعض الزهور النضرة .
فقال لورى بلهجته الودية المؤثرة :

— الزهور كلها ملكك ، كما هى ملكى ، ألسنا نتقاسم كل شىء دائماً ، كيف تظنين أنك فى حاجة إلى السؤال ؟
قالت :

— رحمة يا إلهى ! أنى لا أحب أن أشاركك على كل ما تفعل ، ولكن لا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشة هذه المسألة ، على أن أساعد أمى ، وعليك أن تستعد ، ولن أنسى لك هذا الجميل ما حييت .
فقال لورى :

— ولم لا تردين الجميل الآن ؟

وكان فى لهجته إحياء ما كر ، حمل چو على أن تغلق الباب فى وجهه ، لتسرع بصلده عنها ، ثم صاحت تقول له من وراء القضبان :

— اذهب يا تيدى ، فأنا الآن مشغولة .

ومضى اليوم على ما يرام ، وبفضل المتأمرين من أجل سعادة آمى ، حدث الانقلاب المنتظر فى شأن موائد السوق . فقد حمل هينز البستانى إلى الفتاة مجموعة من الزهور النادرة ، مع سلة جميلة نسقها بطريقته الخاصة ، التى اعتاد أن ينسق بها السلال للأوساط الممتازة ، فكانت تحفة فى جمالها . وجاءت أسرة مارش إلى السوق بكامل هيئتها ، وراحت چو تبذل منتهى براعتها فى تحقيق غرضها ، فكان نجاحها رائعاً ، إذ كان رواد السوق يقفون معها ليستمتعوا بعبثها اللطيف ، ويعجبوا بذوق آمى الرفيع فى التنسيق . وأقبل لورى وأصدقائه على المائدة يشترى باقات الزهور ، ويدفعون فيها أثماناً سخية ، حتى أتوا عليها ، ولم يبقوا على شىء منها ، ثم عسكروا أمام الفتاة وحولوا ركنها الهادئ إلى جنة تفيض بالمرح وتنبض بالحياة . وهدأت نفس آمى ، وعاودها إشراقها ونشاطها ، وبدأت على وجهها أمارات التأثير بما فعل هؤلاء الفتيان الطيبون ، وراحت تفكر فيما كانت تغرى به نفسها فى الصباح ، من أن أجر الخير لا يضيع ، فتحمد الله على أنها جوزيت أحسن جزاء على عملها الطيب .

وساكت چو طول اليوم مسلكاً مثالياً ، وحين طوقت حاشية الشرف آمى السعيدة ، قامت هى بجولة فى السوق ، تتلمس أخبار ما يدور هنا وهناك ، فعلمت من شتات الأحاديث ، أثر تغيير أحوال الموائد فى نفوس الحاضرات . كما اكتشفت أيضاً ما صنعه آمى من إعادة رسومها إلى مائدة

الفن ، فاعتبرت صنيع أختها مثلاً أعلى في الشهامة وكرم الأخلاق . وعندما مرت بمائدة الفن ، ألقت عليها نظرة ، لتبين ما صارت إليه رسوم أختها ؛ فلما لم تجد لها أثراً ، دار بخلدّها أن الرسوم قد أخفيت عمداً عن الأنظار . وكانت چو تتسامح مع بعض من يخطئون في حقها ، ولكنها تثور إذا أهين فرد من أسرّتها ، لذلك تملكها الغضب ، ولم تستطع أن تسيطر عليه إلا بصعوبة شديدة . وكانت ماى تقف عند المائدة ، فلما رأت چو ، أبت إلا أن تكون كريمة متسامحة مثل أمى ، فقالت بلهجة تم عن رغبة في الاسترضاء :

— مساء الخير يا چو ، كيف تسير أمى في عملها ؟

ولم تستطع چو أن تقاوم نفسها ، فقالت :

— لقد باعت كل ما يستحق البيع ، وهى الآن تستمتع بوقتها ، فائدة الأزهار كما تعلمين ، جذابة دائماً « خصوصاً للرجال » .

وتلقت ماى هذه الصنفعة الصغيرة بهدوء ، مما جعل چو تشعر بالندم بعد لحظة قصيرة ، فراحت تصلح خطاها بامتداح الأواني الجميلة الكبيرة التى لم تجد إلى الآن شاربياً ، وأرادت أن تطمئن على مصير رسوم أختها ، فقالت تسأل ماى :

— أين رسوم أمى ، إنى أريد أن أشتري بعضها لأبى .

فقالت ماى :

لقد بيعت كلها منذ وقت طويل ، فقد حرصت على تقديمها لمن

يقدرّون الفن حق قدره ، فاشتروها بمال كثير .

وفرحت چو جداً بهذا النبأ ، وعادت إلى آمی تبلغها الأخبار الطيبة ،

فاغتبطت الفتاة بدورها ، وقالت لأصدقاء تیدی :

— والآن أيها السادة ، أرجوكم أن تذهبوا إلى زيارة الموائد الأخرى ،

وتؤدوا نحوها واجبكم كما فعلتم معي ، وأوصيكم بمائدة الفن على الأخص .

وعندما بدأ الفتيان يتحركون في ميدان السوق ، قالت چو :

— عليكم بمائدة شستر ، واشتروا منها كل شيء ، وستأخذون في

مقابل نقودكم فنناً رفيعاً بمعنى الكلمة . هيا إلى الواجب كرجال كرماء .

وقال پاركر الصغير متظرفاً :

— سمعاً وطاعة ، ولكنني أفضل مارس على مايو .

وكان يشير بذلك إلى أن مارش (اسم شهر مارس بالإنجليزية) أجمل

من ماى (اسم شهر مايو) ، ولكن لورى أسكتته في الحال قائلاً :

— حسناً يا بني إنه أجمل في عيون الصغار !

وجذبه من يده ، وهو يربت على رأسه في حنان الأب . وأرادت آمی أن

تجرد غريمته من آخر سلاح في يدها ، فقالت تهمس في أذن لورى :

— اشتر أواني الزهور .

ولم يكتف لورى بشراء الأواني ، بل سار في البهو يتأبط آنية تحت

كل ذراع من ذراعيه ، واشترك السادة الآخرون في مزادات حامية ،

لشراء بقية المعروضات ، فابتاعوا كثيراً من الأشياء التافهة ، ثم طافوا

بأرجاء البهو محملين بالزهور الصناعية والمراوح الملونة، والمحافظ المزركشة،
مما زاد في سرور ماى شستر وابتهاجها .

وكانت العمة كارول هناك ، فلما سمعت بما حدث لآمى ، انتحت
جانباً بمسز مارش وأسرت إليها بكلمات جعلتها تبسم راضية ، وترب
ابنتها بوجه اختلط فيه السرور بالقلق ، ولكنها احتفظت لنفسها بما سمعته ،
ولم تفصح عن أسباب سرورها إلا بعد أيام عدة .

وعندما انتهت السوق ، وأعلن خبر نجاحها العظيم ، قالت ماى لآمى
تودعها :

— ليلة سعيدة .

ولم تتبسط فى حديثها كالمعتاد ، ولكنها قبلتها قبلة حارة ، ونظرت
إليها بندم وأسف على ما بدر منها ، فارتاح قلب آمى لذلك ، واعتبرتها
ترضية كافية . وحين عادت إلى البيت ، وجدت أوانى الزهور مصفوفة
على المدفأة ، وجعل لورى يقدم إليها كل آنية بحركة تمثيلية ، ويقول إنها
جزء الفضل لمس مارش ذات الكرم والشهامة .

وفى ساعة متأخرة من الليل ، جلست آمى وچو تمشطان شعرهما استعداداً
لنوم ، وقالت چو بحرارة :

— ما كنت أعتقد يا آمى أنك على هذا الخلق والمبادئ ، وأنى
أحترمك من كل قلبى لمثلك العليا ، وتصرفاتك المهذبة .

وأضافت بث ، وهى تضع رأسها على وسادتها :

— نعم ، أنت بسماحتك موضع حبنا واحترامنا ، وكان موقفك طوال الوقت شاقاً عسيراً ، ولكنك بذلت جهدك في العمل ، وكرست قلبك للمبدأ ، وعاهدت النفس مخلصاً على أداء الواجب . لا أظن أنني كنت أستطيع في مثل هذا الموقف ، أن أتصرف مثلك بالرفق واللين .
وقالت آمي :

— ما هذا المديح يا بنات ؟ لست أرى داعياً له ، فما فعلت إلا ما أحب أن يفعله الآخرون معي ، كنتن تضحكن مني عندما أقول : « إنني أريد أن أكون سيدة نبيلة » ، ولكني كنت أعني ذلك ، وأتوق بالفعل إلى أن أكون سيدة نبيلة . في تفكيري وتصرفاتي ، فأعلو بنفسى عن صغائر النزوات والترهات التي تفسد سيدات كثيرات ، وأعترف بأنني ما زلت بعيدة عن بلوغ غايتي الكاملة .

وكانت تتكلم بحزم ، فقالت لها چو وهي تحتضنها بعطف :
— لقد أدركت الآن ما تعنين ، ولن أضحك منك بعد اليوم . إنك تتقدمين إلى هدفك بأسرع مما تظنين ، وسأخذ عنك دروساً في الأدب الصحيح ، لأنك عرفت سر الحياة على ما أعتقد . استمرى في محاولتك يا عزيزتى ، وستنالين جزاءك يوماً ما ، وعندئذ لن تجدى أسعد مني بتوفيقك .

ولم يمض أسبوع واحد على هذا الحديث ، حتى نالت آمي جزاءها ، ولكن چو المسكينة لم تستطع أن تفرح كما وعدت ، لأنها كانت في عراك

مع نفسها ، فقد جاء خطاب من العمة كارول ، فلما قرأته مسر مارش ،
أشرق وجهها بالسرور إلى درجة حملت چو وبث — وقد كانتا تجلسان إلى
جوارها — على أن تسألاها عما جاء في الخطاب من أنباء سارة ، فقالت
الأم :

— إن العمة كارول مسافرة إلى أوروبا في الشهر القادم ، وتريد ...
وصاحت چو تقاطعها ، وهي تهب واقفة ، وقد فاض بها السرور
فلم تستطع ضبط مشاعرها ، وقالت :
— وتريد أن أذهب معها !
أجابت الأم :

— لا يا عزيزتى ، إنها لا تريدك أنت ، بل تريد آى .
قالت چو :

— آه ، إنها لا تزال صغيرة جداً يا أماه ، والدور دورى أولاً ، وقد كنت
أحلم بهذه الفرصة منذ زمن طويل ، والسفر كما تعلمين يفيدنى ، ويمنحنى
أحسن الفرص . . . يجب أن أسافر .
قالت الأم :

— أخشى أن يكون هذا مستحيلاً يا چو ، فالعمة حاسمة فى طلب
آى ، وليس لنا أن نملئ إرادتنا ، حين تعرض علينا جيلاً كهذا .
وانحدرت الدموع من عيني چو ، وهي تقول :

— هكذا الحال دائماً ، المسرات من نصيب آى ، والأعمال والمتاعب

من نصيبي أنا ، ليس هذا من العدل في شيء . . لا ، ليس هذا من العدل في شيء .

قالت الأم :

— أخشى أنك الملوثة يا عزيزتي ، فقد تحدثت إلى عمته في الأسبوع الماضي ، وأبدت أسفها لمسلكك الجاف ونزعتك الاستقلالية ، وإليك بعض مقتطفات مما تقول في خطابها : « لقد فكرت بادئ الأمر في اصطحاب چو ، ولكنها تكره الفرنسية ، ولا تحتل أفضل الناس وجائلهم ، فلم أجد ما يدعوني إلى المغامرة باصطحابها ، أما آمي فأكثر منها ألفة ، وستكون رفيقة طيبة « لفلو » ، وستقبل بالشكر والامتنان كل فائدة تنالها من هذه الرحلة .

قالت چو ، وهي تزفر زفرة حارة ، وقد تذكرت تفاصيل الحديث الذي قضى على آمالها :

— آه من لساني ! . . لساني اللاذع ! لماذا أعجز عن السيطرة عليه ؟

وراحت تقص على أمها حديثها مع عمته ، فقالت الأم بحزن :

— ليتك تستطيعين الذهاب ، ولكن لا أمل الآن ، فتحمل الأمر

بشجاعة ، ولا تفسدى على آمي فرحتها ، بالتفجع والتحسر على ما فات .

وكانت چو قد أسقطت سلة الورد حين قفزت فرحة في بداية الموقف ،

فقالت وهي تعيدها إلى مكانها :

— سأحاول : وسأكون على مثالها ، وأرجو أن لا يظهر السرور على

وجهي فحسب بل أكون مسرورة فعلاً ، إنها مهمة شاقة ، وخيبة الأمل عميقة الأثر في النفس ، ولكن واجبي أن لا أفسد سعادة أختي بمشاعري الخاصة .

وانحنيت على الوسادة تعضها غيظاً ، وتبللها بدموع الحزن والألم .
وهمست بث في أذنها ، وهي تضمها إلى صدرها في عطف وحب :
— عزيزتي چو ، إني سعيدة ببقائك معي ، وأنا نيتي تجعلني أتمسك بصحبتك .

وكان الأسى يحز في نفس چو ، ويغريها بأن تذهب إلى العمة كارول ، وتتوسل إليها وتضرع ، لتثبت لها كيف يكون العرفان بالجميل ، ولكن كلمات بث نزلت عليها برداً وسلاماً ، وأعادت إليها هدوءها وراحتها .
وحين عادت آمي إلى البيت ، كانت چو قد استعادت حالتها الطبيعية ، وأمكنها أن تشارك الأسرة في احتفالها ، لا من كل قلبها كما اعتادت دائماً ، ولكن دون حقد أو حسد . واستقبلت آمي النبأ في حبور ، وأخذت تدور في أنحاء البيت نشوانة مسرورة ، وبدأت في المساء تجمع أقلامها وألوانها التي ستأخذها معها ، وتركت المسائل التافهة الأخرى — كالملابس والنقود وجواز السفر — لمن هم دونها انهماكاً في دنيا الفن .
قالت آمي لأخواتها بانفعال ، وهي تزيل بعض الألوان الجافة عن لوحة الألوان :

— لن أطلب مجرد المتعة من هذه الرحلة . فإني أرجو أن يتقرر فيها

مصري الفنى ، وسأعرف فى روما إذا كنت من أصحاب الموهبة ، وسأحاول أن أثبت وجود هذه الموهبة بأعمال قيمة .

وقالت چو ، وهى تخطط البنىقات الحديدية التى ستأخذها آمى ، وقد احمرت عيناها :

— وإذا لم تكونى من أصحاب المواهب ؟

وتقلصت عضلات وجه آمى الطموح ، لمجرد التفكير فى هذا الاحتمال ، ولكنها قالت بهدوء الفلاسفة :

— حينئذ أعود إلى الوطن ، وأكسب عيشى من تدريس الرسم . فقالت چو :

— لا . . لن تفعلى هذا ، فأنت تكرهين الأعمال الشاقة ، وأعتقد أنك ستتزوجين رجلاً غنياً ، وتعودين إلى الوطن لتعيشى فى أحضان النعمة والترف طول حياتك .

وابتسمت آمى ، كأنما شاقها أن تلعب دور إحدى النبيلات ، وبدا لها هذا الدور أوفق كثيراً من إعطاء دروس فى مدرسة الرسم الفقيرة ، وقالت :

— إن نبوءاتك تتحقق أحياناً ، ولكنى أشك فى صدق هذه النبوءة ، وإن كنت أتمنى أن تصح ، وعلى كل حال ، إذا لم أستطع أن أصبح فنانة ، فليس أحب إلى من أن أساعد غيرى على إظهار مواهبهم .

وسعلت چو ، وتنهدت قائلة :

— ستتحقق إذا أردت ، فأنت تبلغين آمالك دائماً ، أما أنا فلا .
وسألتها آمى ، وهى تلعب بالسكين فى تفكير وشرود :
— أتحبين أن تسافرى ؟

أجابت چو :

— دون شك . .

قالت :

— حسناً . . سأطلب إليك أن تحضرى فى بحر عام أو عامين ،
وسنذهب معاً إلى مواطن الآثار فى روما ، لنبحث عن بعض الآثار الثمينة
المدفونة ، وننفذ برنامجنا الذى سبق أن وضعناه مرّات كثيرة .

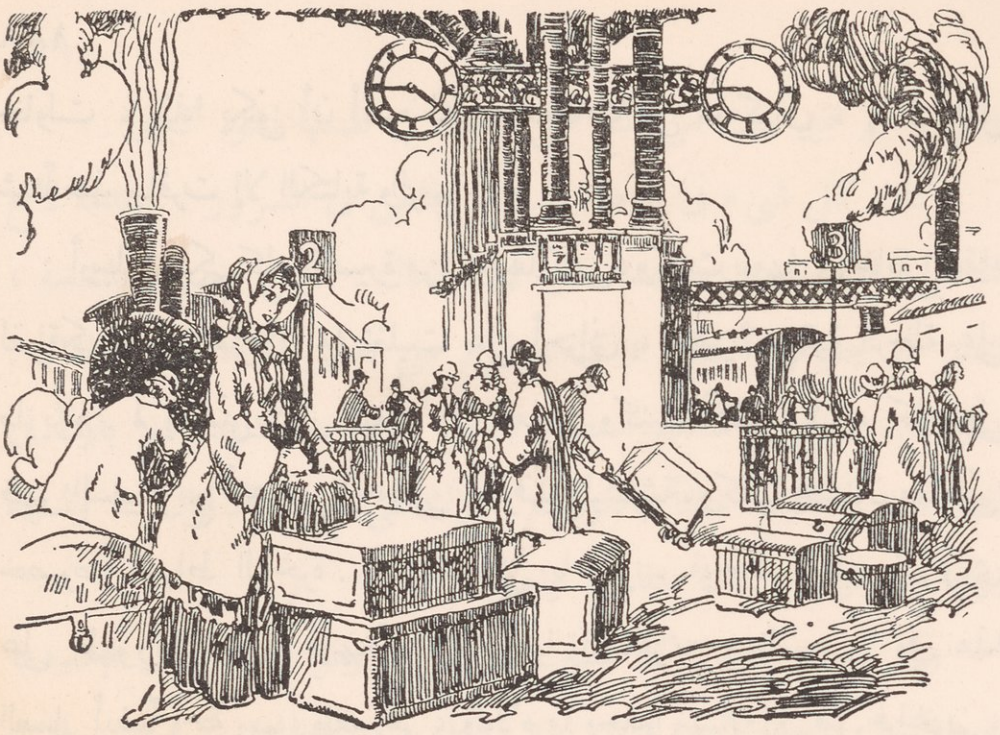
وأجابت چو ، تقبل العرض الغامض العظيم ، وهى شاكرة على قدر
ما تستطيع :

— أشكرك . . وسأذكرك بوعدك هذا حين يأتى اليوم السعيد ، إذا
قدر له أن يأتى أبدا .

ولم تكن هناك فسحة من الوقت للاستعداد ، فظل البيت كله فى
اضطراب وفوضى حتى سافرت آمى . واحتملت چو الموقف بصبر وجلد ،
ولكن حين اختفت الباخرة عن أنظارها ، وعادت إلى بيتها ، انزوت فى
مخبتها ، وأطلقت العنان لدموعها حتى أرهاقها البكاء . أما آمى فقد احتملت
بدورها موقف الوداع بشجاعة ، ولكن عندما بدأ البحارة فى رفع سلم
الباخرة ، وفكرت فى أن المحيط الواسع سرعان ما سيفصل بينها وبين أسرتها ،

تعلقت بلورى ، الذى كان آخر من بقى على ظهر السفينة ، وقالت له
وهى تنتحب :

— أشملهن جميعاً برعايتك إكراماً لى ، وإذا حدث شىء ...
وهمس فى أذنها ، وهو يرجو أن تمكنه الظروف من تحقيق وعده :
— سأفعل يا عزيزتى ... سأفعل وإذا حدث شىء فسأتى إليك لأطمئنك .
وأبحرت آمى من العالم الجديد إلى العالم القديم ، الذى سيظل دائماً
جديداً جميلاً فى أعين الشباب ، ووقف والدها على الشاطئ يرقبها ،
ضارعاً إلى الله أن لا يصيب فتاته الطيبة سوى النجاح والتوفيق . وظلت
الفتاة تلوح بيدها ، حتى اختفت الباخرة تماماً ولم يعد يرى سوى قرص
الشمس ، وهو يعكس أضواءه الباهرة على مياه البحر .



الفصل الواحد والثلاثون

مراسلنا في الخارج

« لندن »

أهلى الأعزاء

إنى أجلس الآن أمام النافذة الأمامية بفندق باث فى پيكا ديلى ، وهو ليس من الفنادق الراقية ، ولكن زوج عمى لا يرضى عنه بديلا ، لأنه سبق أن أقام به مرة منذ سنوات طويلة. لا أهمية لذلك على كل حال ، فلسنا ننوى الإقامة طويلا بهذا المكان : آه ! .. لا أدري كيف أبدأ بوصف ما تمتعت به من مسرات ، ولا أظن أننى قادرة على وصفها إذا

حاولت ، ولذا يكفي أن أقدم لكم مقتطفات من مذكراتي ، إذ لم أفعل شيئاً منذ سافرت إلا الكتابة والرسم .

أرسلت لكم كلمة قصيرة من هاليفاكس ، وكنت يومها في غاية الشقاء لفراقكم ، ولكن سرعان ما تغلبت على أحزاني ، وقضيت بقية الرحلة على ما يرام . لم يصبني دوار البحر إلا لمأماً ، وكنت أقضي اليوم كله على ظهر السفينة مع أصحاب في منتهى الظرف والبشاشة ، وكانوا يحسنون معاملتي خصوصاً ضباط الباخرة . لا تضحكي يا چو ، فوجود الرجال ضروري على ظهور السفن ، ومهمتهم أن يعنوا بالمسافرين ويؤنسوهم ، وفي هذا العمل أيضاً رحمة بهم ، ونفع لهم ، ولولاه ما وجدوا سبيلاً إلى قتل فراغهم ، سوى التدخين المضر بصحتهم .

كان لدوار البحر أثر سيئ في عمي وابنتها فلو ، ولذلك عزمنا عن الاشتراك معي في مباحج الرحلة ، وامتنعنا عن الصعود إلى ظهر السفينة ، فكنت أقدم لهما كل معونة ممكنة ، ثم أطلب التسلية لنفسى وحيدة . إن السير على ظهر السفينة متعة ، ومشاهدة غروب الشمس لذة ، وليس أجمل من استنشاق هواء البحر العليل ، وليس أدعى إلى التسلية من مراقبة الأمواج وهي تتدافع بقوة .

وددت لو كان باستطاعة بث أن تأتي معي ، لتستفيد بهواء البحر العليل ، أما چو فما كانت تتردد عن تسلق الصواري ، لتجلس في أعلى مكان منها ، أو تصادق المهندسين ، أو تنفخ في البوق الذي يصدر فيه الرّبان

أوامره ، أو غير ذلك من المتع التي تبعث في نفسها نشوة كبرى .

كان كل شيء في الرحلة جميلاً ، وفاض بي السرور ، عندما لاح الشاطئ الإيرلندي ، فوجدته غاية في الجمال : أرض خضراء مشمسة ، تنتشر في جنباتها أكواخ داكنة ، وتقوم على بعض تلالها آثار وأطلال . استيقظت مبكرة لأشاهد السفينة تدخل الميناء ، وكان الجو بارداً في الصباح ، والخليج ممتلئاً بالقوارب ، والشاطئ بهيج الألوان ، والسماء وردية من فوقنا ، كان منظرًا لا ينسى .

وفي كوينز تاون تركنا مستر لينوكس ، وهو أحد معارف الجدد ، وبينما كنت أتحدث معه ذات يوم ، جاء ذكر بحيرات كيليرني ، فتهند من أعماق قلبه ، وراح ينشد الأبيات الآتية ، وهو ينظر إلى :

هل سمعت عن كيت كيرني ؟

إنها تعيش على شواطئ كيليرني ،

ومن لمح عينيها يشع سحر فتان ،

فانج بنفسك من الهلاك ،

بعيداً عن سحر كيت كيرني .

أليس هذا كلاماً فارغاً ؟ !

رست السفينة بضع ساعات فقط في ليثربول ، وهي مدينة صاحبة قدرة ، فسررت عندما غادرناها . وفي أثناء رسو السفينة نزل زوج عمي إلى الشاطئ ، واشترى مظلة وقفازاً جلدياً وبعض الأحذية السمكية ذات

الشكل القبيح ، وكان أول ما فعله بعد ذلك أن قص شعره على الطريقة الإنجليزية ، واطمأن إلى أنه قد أصبح بريطانيًا أصيلاً . ثم جلس إلى صبي من ماسحي الأحذية ، لينظف له حذاءه من الوحل ويلمعه ، فلما انتهى الصبي من عمله ، نظر إلى زوج عمتي وقال : « لقد نظفتها يا سيدي على آخر طراز أمريكي » . وقد دهش زوج عمتي لذلك دهشة بالغة . . . نسيت أن أقول لكم أن مستر لينوكس عندما ترك السفينة ، كلف صديقه وورد - الذي أكمل رحلته معنا إلى هنا - بأن يشتري لي باقة من الزهور الجميلة ، ووضع عليها بطاقة كتب فيها « مع تحيات روبرت لينوكس » . وكانت الزهور أول ما وقع عليه نظري في الغرفة ، أفلا ترين يا بنات كم كان الوقت مسلياً ؟ صدقني أن السفر متعة عظيمة .

لن أطيل عليكم الحديث ، وإلا ما وصلت إلى أخبار مدينة لندن : كانت الرحلة بالقطار أشبه بزيارة متحف في عامر باللوحات الطبيعية الجميلة ، وقد أعجبت كثيراً بمنظر الأكواخ الريفية ، والبيوت القروية ، ووجدتها مسقوفة بالقش ، تغطيها أشجار اللباب المتسلقة . أما نوافذها فتشبه « المشربيات » ، وعلى أبوابها تقف سيدات بدينات حولن أطفال أصحاء . ورأيت المواشي تقف في حقول المراعي ، وقد أخفت الحشائش أقدامها إلى الركب ، والعجيب أنها تبدو أكثر هدوءاً من مواشينا ، وحتى الدجاج كانت أصواته تدل على الرضا والشبع ، بعكس دجاجنا الأمريكي الثائر الغاضب ، ولم تقع عيني من قبل على مثل هذه الألوان المتناسقة ،

فالحشائش نضرة الحضرة ، والسماء صافية الزرقة ، والقمح ذهبي الصفرة ،
 وجذوع الأشجار حالكة السواد . وكنت أنا وفلو فى نشوة طول الطريق ،
 نقفز من جانب العربى إلى جانبها الآخر ، حتى لا يفوتنا منظر ونحن نسير
 بسرعة ستين ميلا فى الساعة . واستسلمت عمى للنوم لشدة تعبها ، وعكف
 زوج عمى على الدليل يقرؤه غير مهتم بما يُرى حولنا . وهكذا مضى بنا
 السفر حتى رأيت أبنية وسط أشجار عالية ، فصحت أقول : « هذه
 مدينة كينلويرث » فأسرعت فلو تنظر من نافذتى وتقول : « يا له من
 مكان جميل ، لا بد أن نزوره يوما يا أبى . » فأجاب زوج عمى ، وهو
 يتأمل حذاءه الحديد بإعجاب شديد : « لن نزوره يا عزيزتى ، إلا إذا
 كنت تريد أن تشربى شيئا من الجعة ، فهذا مصنع للجعة ! ! »
 وسكتنا قليلا ، ولكن سرعان ما صاحت فلو تقول : « رحمتك يا إلهى !
 أرى مشانق منصوبة ، ورجلا يصعد إليها » ، وصرخت أسألها : « أين . .
 أين » ؟ . . . وحدقت النظر فى عمودين طويلين ، تصل بينهما عارضة
 خشبية ، تتدلى منها السلاسل ، فقال زوج عمى ، وقد لمعت عيناه :
 « إنها رافعة منجم الفحم » . ومرة قلت لفلو : « هذا قطع من الأغنام
 ترود على الأرض » ، وأضافت وهى تقول ؛ « ألا ما أجملها ، انظر يا أبى ! »
 وأجاب أبوها يقول فى استنكار : « هذا أوز يا بنات » . وعندئذ سئمت
 فلو النظر ، وانصرفت إلى كتابها تقرأ فيه ، ورحت أنا أستمتع وحدى
 بالمناظر كلها فى صمت .

× وحين وصلنا إلى لندن ، وجدنا السماء تمطر كعادتها ، ولم يكن في إمكاننا أن نرى شيئاً لكثافة الضباب ، وقضينا بعض الوقت نحل حقائبنا ، ثم نزلنا إلى السوق تحت أمطار متقطعة لنشتري بعض الأشياء . ولاحظت عمى أنى لم أستكمل ملابسى نظراً لسفري المفاجيء ، فاشتريت قبعة بيضاء ، وريشة زرقاء ، وثوباً من الموسلين ، ووشاحاً غاية في الجمال ، بل هو أجمل ما رأيت .

وزيارة المتاجر في ريحنت ستريت متعة ما بعدها متعة ، والسلع زهيدة الأثمان ، فمثلاً ياردة من الأشرطة الجميلة تساوى ستة بنسات فقط ، ولذلك اشتريت منها مجموعة كبيرة ، أما القفازات فأفضل أن أشتريها من باريز ، حال وصولنا إليها ، أليس هذا دليل الأناقة والثراء ؟ !

وانتهزنا فرصة خروج عمى وزوجها لشراء بعض لوازمهما ، فاستأجرت أنا وفلو عربية جميلة ، خرجنا فيها للرياضة والتسلية ، ثم عرفنا فيما بعد أنه لا يليق بالفتيات الفاضلات أن يركبن العربات إلا مع الكبار . ولكنها كانت رحلة طريفة ، فما أن أقفل السائق علينا باب العربى ، حتى اندفع يجرى بنا فى سرعة كبيرة ، ذعرت لها فلو ، وطلبت منى أن أوقفه ، ولكنه كان يجلس على مقعده العالى وراء حاجز يفصله عنا ، ولم أجد سبيلاً إليه .
فى خارج العربى ونحن بداخلها . وصحت أناديه تارة وتارة أخرى أطرق بمظلتى على باب العربى ، فذهبت جهودى هباء ، ولم يسمع ندائى ولا ضرباتى ، وهكذا بطلت حيلنا ، والعربى تمزق بنا كالسهم ، وتدور

فى المنحنىات دوراناً مخيفاً . وأخيراً شاهدت كوة فى السقف ، دفعتمها بطرف المظلة فانفتحت ، فأطل علينا السائق بعينه الحمراءين ، وسمعنا صوته المخمور يقول : « ماذا تريدن يا سيدتى ؟ » ، فأملت عليه تعليماتى فى تؤدة وثبات على قدر الإمكان ، فأقفل الكوة وهو يقول : « سمعاً وطاعة يا سيدتى » . وراح يسوق الحصان ببطء شديد ، كأننا نسير فى جنازة . . فدفعت الكوة مرة أخرى ، وطلبت منه أن يسرع قليلاً ، ولكن الرجل اندفع ثانية يعدو بسرعة جنونية ، وأمام ذلك لم نجد بداً من أن نخضع لقدرنا ، ونستسلم لحظنا .

الجو جميل اليوم ، وقد ذهبنا إلى حديقة هايدپارك متزهة الطبقة الراقية . إن الدوق ديفونشاير يسكن قريباً منا ، وكثيراً ما أرى خدمه الخصوصيين يجلسون عند البوابة الخلفية ، وبيت دوق ولنجتون ليس بعيداً عنا أيضاً ، والحقيقة أننا أكثر ارسقراطية مما نبدو . ورأيت فى هايدپارك أبداع المناظر وأجملها ، فهى خليط من الألوان والأشكال يُسلى أكثر من « القراقوز » : سيدات بدينات يذرعن الطريق فى عربات مطهمة لونها أبيض وأصفر ، ويقف خلفها حراس فى ملابس حريرية زاهية اللون ، ويقودها سائقون فى أحسن زينة . . . ومربيات رشقات يرعين أطفالاً لم أر لهم مثيلاً فى الصحة والقوة . . . وفتيات جميلات يسرن فى تيه ودلال . . وفتيان متأنقون على رعوهم قبعات إنجليزية غريبة الشكل . . وأطفال كالزهور . . . وجنود عمالقة يلبسون معاطف حمراء قصيرة ،



وقبعات مستديرة تميل على جانب من رعوسهم بشكل مضحك ، بودى لو استطعت أن أرسم صوراً تذكرني بهم .

ذهبنا إلى مكان يدعى « روتن رو » - ومعناها طريق الملك - وهو بمثابة مدرسة للفروسية ، فيه خيول مطهمة ، ومدرّبون فى منتهى الرشاقة ، أما السيدان فيجلسن على ظهور الخيل متصلبات ، يهترزن بما لا يتفق وأصول الركوب عندنا . وكم بودى لو أمكننى أن أريهن كيف تكون الفروسية ، حتى لا يركبن خبياً فى تعاظم وكبرياء ، وهن يلبسن الملابس القصيرة والقبعات العالية ، كأنهن التماثيل المزوقة . والركوب هنا رياضة يمارسها الناس جميعاً ، الرجال والنساء ، الكبار والصغار ، السمان والنحاف . ويتبادل الشبان والشابات الغزل فى حلبة الركوب ، والعادة أن يضع كل



فرد وردة في سرة الركوب ، وقد رأيت حبيين يتبادلان الورد دليل
الوفاء ، فأعجبني الفكرة كثيراً .

وذهبنا في المساء إلى كنيسة « وستمنستر » ، ومن المستحيل على أن أصفها
لكم ، ولذلك أكتفي بأن أقول إنها فخمة . وسأذهب الليلة لمشاهدة
« فلتشر » ، وبذلك ينتهي أسعد يوم في حياتي .

منتصف الليل :

رغم أن الوقت متأخر جداً ، فأني لم أشأ أن أرسل خطابي في الصباح
دون ذكر ما حدث ليلة أمس .. تُرى هل في إمكانكن أن تحزنن من
جاء لزيارتنا ونحن نتناول الشاي ؟ .. لقد جاء فريد وفرانك قوهن أصدقاء
لورى البريطانيون ، ولو لم أقرأ بطاقتهم ما عرفتُهما ، فقد كبرا ، وأصبحا

ممشوقى القامة . وكان فريد أنيقاً فى زيه الإنجليزى ، وفرانك لا يستعمل عكازا ، ولكنه يعرج قليلا . . وعرفت أن لورى أنبأهما بزيارتنا ، فجاءا يدعواننا إلى زيارتهما فى البيت . واعتذر زوج عمى عن قبول الدعوة ، ولكنه سمح لنا برد الزيارة .

وذهبنا معهما إلى المسرح ، وسعدنا بوقتنا إلى أبعد حد ، وبينما كان فرانك يبذل اهتمامه وعنايته بفلو ، رحت أنا وفريد نتحدث عن الماضى والحاضر والمستقبل ، كأننا أصدقاء العمر كله . أخبرى بث أن فرانك سأل عنها ، وأبدى أسفه الشديد لمرضها ، وحين تكلمنا عن چو ، ضحك فريد وطلب منى أن أبعث بتحياته واحتراماته إلى قبعها الكبيرة ، ولم ينس أحدهما « معسكر لورنس » ، ومازالا يذكران تفاصيل النزهة الطيبة ، رغم مضى السنين .

إن عمى تدق للمرة الثالثة على الجدار الذى يفصل حجرتنا ، لتنبهنى إلى وجوب النوم ، فيجب أن أتوقف الآن عن الكتابة . يخيل إلىّ ، وأنا أجلس فى هذه الساعة المتأخرة ، أننى واحدة من سيدات لندن الجميلات الثريات ، فقد امتلأت غرفتى بأجمل الهدايا ، وليس برأسى سوى أخبار المسارح والمنترهات والملابس الجديدة ، والشبان الكرماء ، الذين يتأوهون من فرط الشوق ، ويعبثون بشواربهم الصفراء فى عظمة اللوردات الحقيقيين . إنى مشوقة لرؤيتكم جميعاً ، وسأظل الأخت الوفية المحبة إلى الأبد ، رغم الهراء الذى امتلأت به هذه الصفحات .

باريس .

عزيرأتى

حدثتكن فى خطابى السابق عن أخبار لندن ، وكيف أكرم آل قوهن وفادتنا ، وأقاموا المآدب الشائقة لنا . وقد استمرت زيارتى لمعالم لندن ، فشاهدت لوحات روفائيل فى هامبتون كورت ، وتمتعت برؤية صور تيرنر ولورانس ورينولدز وهرجاردت وغيرها من بدائع الرسامين فى متحف كنزنجتون . وقضينا يوماً من أمتع الأيام فى ريتشموند پارك ، حيث شاهدت الغزلان فى أوضاع مختلفة ، ورسمتها جميعاً بقلمى ، كما أشجاني تغريد البلابل وزقزقة العصافير ، وهى تطير زرافات ووحدانا . والحق أننا رأينا فى لندن كل ما تشهيه قلوبنا ، والفضل فى ذلك لفريد وفرانك ، فالإنجليز رغم بطئهم فى رفع الكلفة مع الناس ، قوم لا يسبقهم أحد فى الكرم وحسن الضيافة حين يأتلفون . وقد ذكر آل قوهن أنهم يأملون فى زيارة روما فى الشتاء القادم ، ورجائى أن تسعدنى الظروف بلقائهم هناك ، فقد ربطتنى بجريس أختهم صداقة متينة ، كما كان الفتیان - خصوصاً فريد - غاية فى اللطف والأدب .

وما كدنا نصل إلى باريس ، حتى لحق بنا فريد قائلاً إنه جاء لقضاء عطلته ، وأنه فى طريقه إلى سويسرا . واستقبلته عمى بشيء من الفتور أول الأمر ، ولكنه لم يأبه لذلك ، مما أسكت العمه فلم تقل شيئاً ، ثم سادت روح المودة بعد قليل ، واغتنبنا جميعاً بحضوره ، فهو يتقن الفرنسية

ويتكلمها كأبنائها . ولست أدري ماذا كنا نفعل بدونها ، فزوج عمى لا يعرف من الفرنسية أكثر من عشر كلمات ، ويصر دائماً على الحديث بالإنجليزية في صوت عال لعلهم يفهمون ما يقول . . . وعمى تتكلم الفرنسية بلهجة عتيقة لا يستعملها الناس في الوقت الحاضر ، أما فلو وأنا ، فرغم ما كنا نظنه في أنفسنا من معرفة وبراعة ، فقد اكتشفنا عند وصولنا باريس ، أن ذخيرتنا من الفرنسية لا تجدى فتيلاً ، ولذلك حمدنا الظروف التي جمعتنا بفريد ، ليقوم عنا بمهمة الحديث والتفاهم .

وعلى أى حال ، نحن نقضى وقتاً بهيجاً ممتعاً ، ونشاهد طول اليوم أجمل المناظر وأهم المعالم ، ونتناول غذاءنا في المقاهى المبهجة السارة ، حيث نلتقى بأقوام مختلفى المشارب ، ونصادف مغامرات غاية في الغرابة . وفي الأيام الممطرة أقضى معظم وقتي في متحف اللوفر ، أتأمل اللوحات الجميلة ، وروائع الفن الخالد ، وأقف أمام كل صورة من هذه الروائع أمتع قلبي وعيني بما يهذب ذوق وفنى . أما فلو فلا تهتم بالفنون ، وتفضل عليها آثار العظماء ، وقد رأينا بالمتحف قبعة نابليون وصداره ، ومهد طفله ، وفرشاة أسنانه ، كما رأينا حذاء مارى انطوانيت ، وخاتم سان داينس وسيف شرلمان ، وغير ذلك من الأشياء الكثيرة الهامة ، التي لا يسمح الوقت بوصفها الآن ، ولكنى سأحدثكن عنها ساعات وساعات حين أعود إليكن .

أما « الياليه رويال » فقطعة من الجنة ، ففيه أفخر الجواهر وأندر

التحف ، وكاد يصيبني الجنون لعجزى عن شراء شىء منها ، وقد أراد فريد أن يشتري لى هدية ، ولكنى رفضت بالطبع . وغابة بولونيا والشانليزيه آيتان فى العظمة ، وكان من حسن حظى أن شاهدت الأسرة المالكة عدة مرات : والإمبراطور قبيح الشكل قاسى المظهر ، والإمبراطورة شاحبة اللون جميلة ، ولكن ذوقها ردىء فى اختيار ملابسها ، إذ كانت ترتدى ثوباً أحمر قانيا ، وقبعة خضراء ، وقفازاً أصفر . أما الإمبراطور الصغير ففتى جميل لطيف ، يتحدث دائماً مع رائده ، الذى يرافقه فى عربته مطهمة يجرها جياد أربعة ، وبين آن وآخر يرسل القبلات بيده إلى الشعب الواقف على جانبي الطريق . وكان السائق يرتدى ثياباً مزركشة ، وفرسان الحرس يسيرون أمام العربته وخلفها .

إننا نتنزهه عادة فى حدائق التوليرى ، ولكنى شخصياً أفضل حدائق لوكسمبورج . والمدافن هنا غريبة جداً ، والمقابر أشبه بالغرف الصغيرة ، فى كل منها مائدة عليها صورة الميت ، وحول المائدة مقاعد يجلس عليها المحزونون حين يأتون للذكرى والعزاء ، ألا تتمشى هذه العادة مع المواضع الفرنسية ؟ ؟

إن حجراتنا تطل على شارع ريفولى ، ويمكننا من الشرفة أن نرى الشارع كله ممتداً أمامنا . ومن التسليلات الحقبة ، أن نقضى أمسياتنا فى الشرفة المطلة على الشارع ، نتناول الحديث الهادىء ، بعد متاعب اليوم وتنقلاته . إن فريد فتى مسل للغاية ، وهو — باستثناء لورى — أكثر

الشبان الذين عرفتهم لطفاً ومجاملة . إنه وديع الخلق لطيف المعشر ؛ وكنت أفضل أن يكون أسمر البشرة ، لأننى لا أحب الرجال البيض . ولكن آل فوهن على كل حال قوم أثرياء ، وينحدرون من أصول عريقة فى المجد ، وشعرهم الأصفر لا يعيبهم ، لأن شعرى أنا شخصياً أشد صفرة من شعرهم . سنسافر فى الأسبوع القادم إلى ألمانيا وسويسرا ، وستكون تنقلاتنا سريعة ، وقد لا أستطيع أن أكتب لكم إلا خطابات قصيرة عاجلة . إنى أكتب يومياتى وأحاول أن أضمنها كل ما يقع ، وأصف فيها ما رأيته وأعجبت به فى وضوح عملاً بنصيحة أبى . . إن السفر تجربة طيبة ، وستكون رسوى أوضح من كتاباتى فى التعبير عن إحساساتى ومشاهداتى . وإلى أن ألقاكم ثانية أضمكم جميعاً إلى صدرى فى حنان

صديقتكم
أمى

هيلدبرج :

أمى العزيزة

أنتهز هذه الساعة الهادئة ، التى أتيتحت لى قبل السفر إلى برن ، لأكتب إليك أخبارى ، وبعضها مهم كما ستترين .

كانت رحلتنا فى نهر الراين غاية فى الكمال والجمال ، حتى لتعجز أبلغ العبارات عن وصفها ، فعودى إلى ما لدينا من كتب السياحة واقرئ عنها . لقد قضينا وقتاً ساحراً فى كوبنتر ، وأسمعنا بعض أصدقاء فريد من

طلبة مدينة بون ، عزفاً بديعاً للسرينادا الجميلة . وكانت الليلة مقمرة ، وقد مضت على منتصف الليل ساعة ، حين استيقظت أنا وفلور على نغمات هذه الموسيقى ، وإذا بنا نرى فريد وأصدقاءه يعزفون ويغنون . ويالها من لحظة شاعرية بديعة ، لم يسبق لى أن حظيت بمثلها : الليل الساجى ، والنهر المنساب ، والقنطرة القديمة ، والمراكب السارية ، والحصن القديم يربض أمامنا على الشاطئ ، وضوء القمر يفيض على الكون جمالا ، وموسيقى ساحرة تلين أقسى القلوب وأشدّها تحجرا !!

ولما انتهوا من غنائهم رميناهم ببعض الزهور ، فهرعوا يلتقطونها ، وأرسلوا بأيديهم قبلات فى الهواء ، إلى أولئك السيدات المختفيات وراء الستر ، ثم انصرفوا ضاحكين ، وأعتقد أنهم ذهبوا يكملون سهرتهم فى مشرب البيرة القريب . وفى صباح اليوم التالى أرانى فريد زهرة احتفظ بها فى جيبه ، وكانت لهجة حديثه مفعمة بالعاطفة ، فضحكت منه وادعيت أن فلو هى التى ألقها عليه ، عندئذ استاء وألقى الزهرة من النافذة ، ثم عاد إلى سابق عقله وورزنته . وكل ما أخشاه ، أن يجلب هذا الفتى المتاعب ، فالبوادر كلها تدل على ذلك .

وكانت بادن بادن وحمامات ناسو غاية فى المرح ، ولكن فريد خسر فيها بعض نقوده ، ولذلك عنفته وراجعته ، لأنه بحاجة إلى من يرعاه فى غياب أخيه فرانك . وأذكر بهذه المناسبة أن كيت أفصححت لى ذات مرة عن أملها أن يتزوج فريد سريعا ، وقد وافقتها على رأيها ، لأن الخير

كل الخير في زواجه .

وكانت فرانكفورت غاية في الإمتاع ، وشاهدت فيها بيت « جوتيه » ،
وتمثال « شيللر » ، وأريادن المشهورة « لدانيكار » . وأعتقد أنه لولا جهلي
بقصة أريادن ، كنت استمتعت أكثر ، ولكني كرهت أن أسأل واحداً
عنها ، إذ كانوا جميعاً يعرفونها ، أو يتظاهرون بمعرفتها على الأقل . ليت
چو حدثني عنها ، أو ليتني توسعت في القراءة لأزيد معلوماتي ، فقد كاد
يقتلني الشعور بالجهل .

وننتقل الآن إلى الأخبار الهامة التي وقعت حوادثها قبل رحيل فريد .
كان فريد عطوفاً علينا ، مسلياً مرحاً ، بحيث أحببناه جميعاً . والواقع أنني
لم أكن أرى فيه سوى الصديق المخلص والرفيق الطيب ، حتى كانت ليلة
السرينادا . ومنذ تلك الليلة شعرت أن السير في ضوء القمر ، والأحاديث
الطويلة في الشرفة ، والنزهات اليومية ، لا تنطوي على مجرد التسلية .
وصدقيني يا أماء ، أنني لم أغازله ، لأنني ما زلت أذكر نصائحك وأعمل
بها ، وقد بذلت كل جهدي في البعد عن المتاعب ، ولكن ما ذنبي إذا
كان الناس يتعلقون بي ويحبونني ؟ إني لا أفعل شيئاً من ناحيتي ، ولكني
لا أستطيع أن أخرج عن أصول الذوق ، والأدب ، فأهمل الناس . . .
أعلم أن چو ستهمني بقسوة القلب ، وستهز والدتي رأسها أسفاً ، وتقول
أخواتي : « تبا لهذه الفاجرة التعسة ! » ، ومع ذلك قررت أن أوافق على
الزواج منه إذا طلب يدي . . . لست مجنونة بحبه ، ولكننا على وفاق

تام ، وهو شاب مجتهد وسيم ، يفوق آل لورنس ثراءً ، ولن يعترض أهله على زواجه منى ، لأنهم مثل أعلى فى الرفق والثقافة والأدب والعطف ، وكلهم يحبوننى . وسوف تكون المزرعة من نصيب فريد باعتباره أكبر التوأمين ، وهى مزرعة عظيمة ضخمة . وللعائلة بيت كبير فى المدينة ، قد يكون خالياً من مظاهر الفخامة والعظمة ، ولكنه كامل فى أسباب الراحة والاستعداد ، وأنا أحب هذا الضرب من الترف الإنجليزى الحقيقى . وقد شاهدت أطقم الموائد الفاخرة التى يملكونها ، ومجوهرات الأسرة ، والخدم القدامى الذين تربوا فى الأسرة ، وصور المناظر الريفية ، كما رأيت الحدائق الكبيرة ، والملاعب الجميلة ، والمنازل الفخمة ، والحيول المطهمة . وهذا أقصى ما أتمناه ، ورأى أنه خير من الألقاب الحالية من الثراء ، وقد تكون نظرتى إلى الحياة مادية تجارية ، ولكنى أكره الفقر ، وليس فى نيتى أن أحتمله طويلا .

يجب أن تتزوج إحدانا رجلاً موسراً ، ولما كانت ميج لم تحقق هذا ، وچو لا تريده ، وبث لا تستطيع الزواج الآن ، فعلى أنا أن أحقق الترف ، وأجعل الحياة من حولى جميلة مبهجة ، كونى على ثقة بأن المال لن يغرينى بالزواج ممن أكره أو أحتقر ، وقد لا يكون فريد بطل أحلامى ، إلا أنه رجل لا بأس به ، وسوف أروض نفسى على حبه ، ما دام مولعاً بى كريماً فى معاملتى . هذا ما كنت أفكر فيه طوال الأسبوع الماضى ، ولم يكن فى مقدورى أن أرى فريد يتعذب فى حبي . . . حقيقة أنه لم يصرح

بعواطفه ، ولكن الشواهد كلها كانت تدل على ذلك ، فهو لم يخرج مرة واحدة مع فلو ، وكان يجلس فى العربة أو على المائدة بجانبى ، يسير بجوارى أينما ذهبت ، وتغلبه العاطفة حين ينفرد بى ، كما كان يتملكه الغضب حين يرى أحداً يتحدث إلى . وبالأمس فقط كنا نجلس إلى مائدة الطعام ، وكان بالمطعم ضابط نمساوى ، ظل يحرق فى وجهى ثم قال لصديقه بالألمانية : « يا لها من فتاة شقراء جميلة ! » ، وما أن سمع فريد هذه العبارة ، حتى زجر كالأسد ، وراح يقطع اللحم بوحشية أطارته من صحنه . وهو ليس بارداً كبقية الإنجليز ، وفى طبعه حدة شديدة ، ترجع إلى الدم الأسكتلندى الذى يجرى فى عروقه .

وصعدنا إلى القلعة القديمة عند غروب الشمس ، ولم يكن فريد معنا ، ولكنه وعد باللاحاق بنا بعد أن يذهب إلى مكتب البريد ليسأل عن رسائله . وأمضينا وقتاً طيباً ونحن نظوف بالخرائب وأقبية الخمرور المعتقة ، وقد أعجبت بالشرفة الفخمة ومناظرها الساحرة ، ولذلك آثرت أن أجلس فيها حتى يعود الآخرون من زياراتهم الداخلية . ورحت أقطع الوقت بالرسم ، وحاولت أن أنقل صورة رأس تمثال الأسد البارز على الحائط ، ومن حوله الأغصان الحمراء المتدلية . وأحسست وأنا أجلس أمام الوادى البعيد ، أستمع إلى أنغام الموسيقى ، التى تعزفها الفرقة النمساوية أسفل الشرفة ، أننى بطلانة قصة غرامية ، وأنى أتطلع إلى الأفق فى انتظار مقدم الحبيب . وكان قلبى يحدثنى بقرب حدوث شىء فى تلك اللحظة ، وأننى

على استعداد له ، ولم أشعر بانخجل أو الاضطراب ، بل كنت على العكس غاية في الهدوء والثبات ، اللهم إلا قليلاً من الانفعال .

وبعد قليل سمعت صوت فريد من بعيد ، ولم يلبث أن دخل مسرعاً يبحث عني بلهفة ، وكان الاضطراب بادياً عليه إلى درجة نسيت معها نفسي فسألته : « ماذا حدث ؟ » ، فقال إنه تلقى خطاباً من أهله يستدعونه فيه إلى لندن على عجل ، لأن فرنك مريض جداً ، وقال أيضاً أنه ينوى العودة في قطار الليل ، وليس عنده من الوقت إلا بقدر ما يودعنا .

وشعرت بالأسف لأجله ، وأحسست بخيبة الأمل ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة قصيرة ، إذ قال لي وهو يشد على يدي بطريقة لا يمكن أن أخطئ معناها :

— سأعود سريعاً ، وأرجو ألا تنسيني يا أمي !

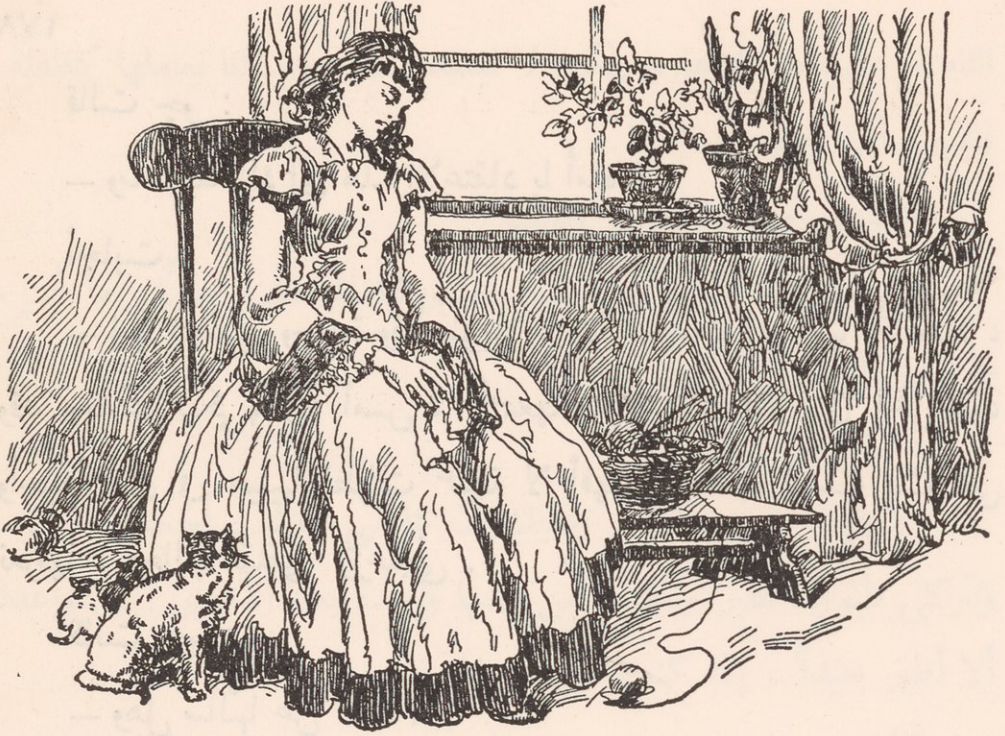
ولم أعده بشيء ، واكتفيت بالنظر إليه ، ولكنه بدا راضياً بذلك ، وفي الواقع لم يكن لديه متسع لأكثر من تحية الوداع ، لأنه كان مسافراً بعد ساعة . وفي الحقيقة إننا جميعاً افتقدناه بعد سفره .

لا شك أنه كان يريد أن يفاتحنى في الزواج . . . ولكنه ارتأى أن يؤجل ذلك لسبب لا أعرفه ، وقد يكون راجعاً في استشارة أبيه ، فقد حدثني ذات مرة أن أباه يخاف عليه من الزواج بأجنبية ، ولذلك أخذ منه وعداً بأن لا يفعل شيئاً دون تفكير وروية . . ربما يكون هذا ، أو أمر آخر . . على كل حال سوف نتقابل في روما بعد وقت قصير ، فأوافق

على الزواج منه إذا طلب ذلك ، هذا طبعاً إذا لم أكن قد غيرت فكري .
وعلى كل حال إن المسألة كلها سر إلى الآن ، ولكنني أردت أن
أحيطك علماً بكل ما يدور هنا . أرجو أن لا تقلقي من ناحيتي ، واذكري
دائماً أنني ابنتك أمي العاقلة الحكيمة ، وثقي بأنني لن أقدم على عمل
طائش ، وابعثي إليّ ما تريدين من النصائح ، وأعدك بأن أعمل بها
ما استطعت . وددت لو استطعت أن أتحدث إليك طويلاً يا أماه .
لك محبتي وثقتي .

ابنتك دائماً

أمي



الفصل الثانى والثلاثون

متاعب رقيقة

قالت مسز مارش :

— چو ، إن حالة بث تقلقنى .

قالت چو :

— ولماذا يا أماه ؟ إنها تبدو بخير على غير عادتها .

قالت :

— ليست صحتها التى تقلقنى بل نفسيها . أنا على يقين أن أمراً ما

يشغل عقلها ، وأريدك أن تكشفنى عما يدور بخلدتها .

قالت چو :

— وماذا يدعوك إلى هذا الاعتقاد يا أماه ؟

أجابت :

— إنها تجلس وحيدة وقتاً طويلاً ، ولا تتحدث إلى أبيها كالمعتاد ، وقد وجدتها تبكي ^{أول} أمس ، وأسمعها تترنم دائماً بالأغاني الحزينة ، وأحياناً أرى في عينيها نظرات عميقة لا أفهمها . هذه ليست بث التي نعرفها ، وحالتها تقلقني وترزعجني .

قالت چو :

— وهل سألتها عن ذلك ؟

قالت :

— حاولت ذلك مرة أو مرتين ، ولكنها كانت تتحاشى الإجابة ، أو تنظر إلى بحزن يجعلني أكف عن الحديث . وأنت تعلمين أنني لا أضطر أولادى إلى الثقة بى ، ورغم ذلك سرعان ما أناها .

وكانت مسر مارش وهى تتكلم ، تحقق النظر فى وجه چو ، كأنها تبحث فيه عن الخبر اليقين ، وكان من الواضح أيضاً أن ابنتها لا تعرف السر فى متاعب أختها بث . وبعد تأمل قليل قالت چو :

أعتقد أن بث تنمو وتكبر ، وفى هذه الفترة من عمرها تكثر الأحلام والآمال ، وتتوالى المخاوف والاضطرابات التى لا تعرف لها سبباً ولا تجد تفسيراً . لست أرى سبباً يدعوك إلى القلق يا أماه ، فأختى بث فى

الثامنة عشرة من عمرها ، ولكننا لا نعتقد ذلك ، وما زلنا نعاملها كطفلة ، ناسين أنها أصبحت امرأة .

وتنهدت أمها مبتسمة ، وقالت :

— صدقت يا عزيزتى ، إنها بلغت الثامنة عشرة حقاً . ما أسرع

ما يمضى الزمن ؟ !

قالت چو :

— لاحيلة لنا فى ذلك ، وعليك أن تتقبلنى مختلف أحكام الحياة ،

وتتركى طيورك تطير وتخرج من عشها واحدة بعد الأخرى . . . وأعدك ألا أظير بعيداً ، إذا كنت تتراحين إلى قربى .

قالت :

— بل أرتاح كل الراحة ، فإنى أشعر بالقوة وأنت بجانبى ، ولا أجد

لى معيناً غيرك ، فبيج قد ذهبت ، وبث غاية فى الضعف ، وآمى لا تزال صغيرة لا يمكن الاعتماد عليها ، وأنت وحدك التى تصمدين للشدائد .

قالت چو :

— خلّى عنك يا أماه ، فالأعمال الشاقة لا تقهرنى ، وأنا لا أشعر

بوطأة العبء حين تحتاج سجاجيد البيت إلى التنظيف ، أو حين يمرض

نصف أفراد الأسرة فجأة . ولا بد للأسرة من فرد يتحمل المسئوليات

الصغيرة ، وبما أن آمى — على العكس — موهوبة فى الفنون ، وهى تدرس

الآن فى الخارج ، فثقى بأبنى سأكون دائماً طوع أمرك فيما تريدين .

قالت الأم :

— إذا سأترك لك رعاية بث . فما من مخلوق غير چو يستطيع أن يطرق أبواب قلبها ، ويكشف عن متاعبها ، لأنها تحبك وتثق بك ، فكوني بها رفيقة ، ولا تدعيها تحس بأننا نراقبها ، أو نتحدث عنها ، أملى الوحيد أن تستعيد قوتها وبشاشتها ، ولن يبق لى شىء أطلبه فى الحياة إذا تحقق ذلك .

فقالت چو :

— إذا كان هذا كل ما تتمنين ، فأنت امرأة سعيدة ، أما أنا فأمالى لا تقف عند حد .

سألها :

— وما هى آمالك يا عزيزتى ؟

قالت :

— سأبدأ بتسوية متاعب بث ، ثم أحدثك عن نفسى . . . إن متاعبى لا تثقل كاهلى ، ولن يضيرنى أن أنتظر عليها .

وانطلقت چو مسرعة ، وفى عينيها نظرة تفيض بالحكمة ، فارتاح قلب أمها من ناحيتها ، فى الوقت الحاضر على الأقل .

وراحت چو ترقب بث عن كشب ، وهى تتظاهر بأنها مشغولة بشئونها الخاصة . واستطاعت بعد كثير من التقديرات والاستنتاجات والفروض المتضاربة ، أن تستقر على رأى واحد فيما يحزن أختها . وكان

مفتاح السر حادثة صغيرة ، شاهدتها جو ... وساعدها خيالها الحبيب ،
 وقلبا الفياض بالمحبة ، على الوصول إلى النتيجة ، كان ذلك في يوم من
 أيام السبت ، وكانت تتظاهر بالانهماك في الكتابة ، وترقب أختها بعينها
 خفية ، وكانت بث هادئة على غير العادة ، تجلس إلى النافذة ، لتمتع
 النظر بجمال الحريف في الوادي ، وكان التطريز يسقط من يدها بين
 وقت وآخر إلى حجرها ، فتسند رأسها إلى يدها ، وتتوه في ببداء الحزن
 الصامت . وفجأة مر شخص تحت النافذة ، وهو يصفر نغمة موسيقية
 من أنغام الأوبرا ، وعلا صوت يقول : « كل شيء هادئ ! وسأتي
 الليلة » ، وانتفضت بث ، ومالت إلى الأمام تومئ برأسها باسمه . وظلت
 ترقب عابر السبيل حتى اختفى وقع أقدامه السريعة ، ثم قالت في حنان ،
 كأنها تناجي نفسها : « ما أقوى هذا الفتى العزيز ، وما أسعده ! »
 وتنفست چو الصعداء ، ومضت في مراقبة أختها ، فرأت أن التورد
 الذي طغى على وجهها فجأة ، لم يلبث أن انحسر عن امتقاع شديد ،
 كما اختفت البسمة من شفيتها ، وتدرجت على زجاج النافذة دمة من
 عينيها . سارعت بث إلى الدمعة تمسحها بكفها ، وهي تنظر بقلق إلى
 چو ، ولكن الفتاة الحكيمة تظاهرت بالكتابة ، وبدأت كأنها غارقة إلى
 أذنيها في قصتها الجديدة « عهد أولمبيا » . وما أن استدارت بث ، حتى
 عادت چو إلى مراقبتها ، فرأتها تمسح دموعها بكفيها أكثر من مرة ،
 وقرأت في صفحة وجهها ألماً مضنياً تطوى عليه جوانحها . وأغرورت

عينا چو شفقة على أختها ، وخافت أن تنساب الدموع على خديها فتفضح سرها ، لذلك سارعت بالخروج من الغرفة ، وهي تتمتم بما ينم عن حاجتها إلى مزيد من ورق الكتابة .

وجلست چو في غرفتها تقول : « رحمتك يا إلهي ! أن بث تحب لورى ! » ، وصمتت شاردة الذهن ، وقد امتقع وجهها لوقع الاكتشاف الذي ظنت أنها وصلت إليه . قالت تحدثت نفسها : « ما دار بخلدی شیء من هذا . . . ترى ماذا تقول آمی ؟ إني لأتساءل إذاً . . . » ، وتوقفت هنيئة ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية ، حين لاحت لحياتها فكرة مفاجئة : « وإذا لم يكن لورى يبادلها هذا الحب ! ؟ . . . وكم يكون الموقف قاسياً عندئذ . . . ولكن لا . . . لا بد أن يحبها ، وسأحملة على ذلك ! » . وهزت رأسها مهددة نحو صورة لورى المعلقة على الحائط . . . قالت لنفسها : « آه من هذا . . . إننا نكبر ، وكلما اكتمل نمونا ، توفرت عوامل فراقنا . . . فميج قد تزوجت وصارت أما . . . وآمی رحلت إلى باريس وهي غارقة في نشوتها هناك . . . ، وها هي ذی بث تقع في شرك الحب ، ولم يبق إلا أنا ، وأحمد الله أني استطعت التخلص من هذه الحبائل المؤذية . ومضت چو في تفكيرها ، ونظراتها مسمرة على صورة لورى ، ثم لم تلبث أن مسحت جبينها بيدها ، كأنها تزيع الهموم عن رأسها ، ثم قالت وهي تومئ لوجه لورى بعزم : « لا يا سيدی ، شكراً لك ! لست أنكر أن شخصيتك جذابة ، ولكنك كدوارة الرياح لا تستقر على حال ،

ولا هم لك إلا كتابة الرسائل الغرامية ، والابتسام بهذه الطريقة الإيحائية ، ولكنى أؤكد لك أن هذا لا يرضيني ، ولن أقبله بأى حال من الأحوال . وندت عن قلبها آهة عميقة ، وسرح فكرها فى تأملات لم تصح منها إلا بعد أن نشر الغسق أجنحته على الكون ، فنزلت من حجرتها تراقب بث من جديد ، وتجمع الملاحظات التى تؤكد شكوكها واستنتاجاتها . على أن لورى ، وإن كان يغازل آمى ، ويضحك مع چو ، فإن سلوكه مع بث كان دائماً غاية فى الرقة والحنان ، شأنه فى ذلك شأن أهلها وأصدقائها ومعارفها ، ولذلك لم يفكر أحد فى احتمال اهتمامه بها أكثر من الأخريات . بل إن أفراد الأسرة كانوا يشعرون أنه يزداد كل يوم غراما بچو ، ولكن الفتاة لم تكن ترضى بمثل هذا الحديث ، وتشتد فى تعنيف من يوحى إليها بهذه الفكرة . ولو أنهم علموا بالرسائل الرقيقة ، التى بعث بها إليها فى العام الماضى ، والمحاولات اللطيفة التى كان يبذلها للتعبير عن عواطفه ، تلك المحاولات التى قضت عليها چو فى مهدها ، لأحسوا بالرضا البالغ ، وقالوا : « ألم نقل ذلك ونتنبأ به ؟ ولكن چو كانت تكره الغزل ولا تسمح به ، وحين ترى الأمور تتطور إلى العاطفيات ، تنهى الموقف بنكتة بارعة أو بسمة لطيفة .

وكان لورى قد بدأ تجاربه فى الحب والغزل عند أول ذهابه إلى الكلية ، فكان يقع فى الغرام مرة فى الشهر على الأقل ، وكان متقلباً لا يصبر طويلاً على حب واحد ، لذلك مضت تجاربه فى سلام ، ولم

تنتج عنها أضرار . وكانت أنباء هذه الغراميات تسلى چو ، وكانت تقلباته بين اليأس والسرور والاستسلام ، تثير اهتمامها ، وكان الفتى يسر إليها في اجتماعهما الأسبوعي ، بكل ما يصادفه في حياته من حوادث ومغامرات . ومرت على لورى فترة من الزمن كف فيها عن التعبد في أكثر من محراب ، وأشار في خفاء إلى حب واحد يملأ عليه حواسه ، وكانت تتنابه في بعض الأحيان أزمات نفسية ، تسيطر فيها عليه الكآبة والوجوم . ومرت فترة أخرى تحاشى فيها لورى الإشارة إلى هذا الموضوع ، وبدأ يكتب إلى چو رسائل فلسفية ، وعكف على العمل مجدداً ، وأعلن عن عزمه على الفوز بمرتبة الشرف في امتحان التخرج . وصادف هذا السلوك هوى في نفس الفتاة ، التي كانت تفضل الاتجاهات الجدية ، على الجلسات العاطفية ، واللمسات الرقيقة ، ونظرات الجوى والهيام . وكان السر في ذلك أن عقل چو سبق قلبها في النمو ، فكانت تفضل أبطال الخيال على أبطال الحقيقة ، لأنها حين تسأم أبطالها الخياليين ، تودعهم خزانتها ، وتغلق دونهم الأقفال ؛ أما الأبطال الحقيقيون ، فلم يكن من سبيل إلى تكييفهم حسب إرادتها . كانت الأمور تجرى على هذا النسق ، حتى وصلت چو إلى اكتشافها العظيم ، فراحت تراقب لورى في تلك الليلة ، كما لم تراقبه من قبل . ولو كانت خالية الذهن ، ما رأت شذوذاً في صمت بث وهدوئها ، ولا في ترفق لورى وحنانه عليها ، ولكنها كانت قد أطلقت لخيالها العنان ، وسارت وراءه شوطاً بعيداً ، فهربت حكمتها أمام شطحات الخيال ، الذي أرهفته

فيها كثرة تأليف القصص . وكانت بث ترقد كعادتها على الأريكة ، ولورى بجانبها يسليها ويجاذبها أطراف الحديث ، ويقص عليها أخبار مغامراته الأسبوعية ، التي تعود أن يتحفها بها كلما أتى لزيارتها . ولكن خيل لچو في تلك الليلة أن عيني بث مستقرتان على وجه لورى في سرور بالغ ، وأنها تستمع في شغف زائد إلى أخبار مباراة الكريكييت الأخيرة ، وتصورت أيضاً — بعد أن تجسم الوهم حتى صار كأنه حقيقة — أن لورى ازداد رقة في سلوكه مع بث ، وأنه يخفض من صوته إلى حد الهمس أحيانا ، كما لم يعد يستمرئ الضحك والهذر ، وبدا شارد الذهن مشتبك الفكر ، وحين وضع الغطاء على قدمي بث ، فعل ذلك باهتمام ينم عن حنان شديد .

وعندما أوت إلى غرفتها ، راحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهي تقول لنفسها : « من يدرى ؟ ربما حدث ما نتمناه ، وفي مقدور بث إذا تحابا أن تجعل منه ملكاً طاهراً ، وفي مقدوره أيضاً أن يجعل حياة هذه الصغيرة العزيزة هنيئة سارة . ولكن ما السبيل إلى ذلك ؟ . . سيحبها إذا خلا البيت منا ، ولم يبق في طريقه إلاها . »

وكان الطريق قد خلا من الآخرين ، ولم يبق فيه سواها ، ولذلك بدأت چو تشعر بضرورة انسحابها من الميدان سريعاً ، ولكن إلى أين تذهب ؟ وجلست تفكر في سبيل إلى الخلاص ، وكلها رغبة في التوضيح على مذهب الإخلاص الأخوى .

جلست چو على الأريكة الكبيرة تبحث عن حل لمشكلاتها، وكانت هذه الأريكة عتيقة طويلة عريضة، محشوة منخفضة، ولونها لتقدم العهد باهت جداً، ولا غرابة فقد كانت ملجأ الأطفال، ومنام البنات، وكن يلعبن عليها في أيام الصغر، فيمتطين مسنديها ويختبئن وراءها، ويزحفن كالقطط من تحتها إلى فوقها. ثم كبرن فكن يستلقين عليها طلباً للراحة، ويستمتعن فوقها بأحلام اليقظة، ويصغين إلى عبارات الغزل. وكانت چو تؤثر جانباً من الأريكة، فتتخذ منه ملاذاً تركز إليه طلباً للراحة والهدوء، وكان لها بين الوسائد الكبيرة وسادة خشنة مستديرة محشوة بشعر الخيل، وأطرافها مزينة بأزرار مدببة. وكانت هذه الوسادة ملكاً خاصاً لچو، تستخدمها سلاحاً للدفاع، وحصناً من الهجوم، ووقاية من الاستغراق في النوم.

وكان لورى يعرف هذه الوسادة حق المعرفة، ويمقتها أشد المقت، لكثرة ما نال من أذاها في الأيام الحوالى، ولأنها الآن تحول بينه وبين الجلوس مع چو في ركن الأريكة. وكان له «قطعة السجق» — كما اختاروا أن يسموا الوسادة — لغة معروفة: فإذا وضعها جو قائمة على طرفها، فهو إذن بالجلوس معها، أما إذا سطحتها على الأريكة، فالويل لمن يقترب منها رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً. وفي تلك الليلة نسيت چو أن تحصن ركنها بالوسادة، ولذلك لم تمض خمس دقائق، حتى أحست بجسم ضخم يجلس بجانبها، وقد بسط ذراعيه على ظهر الأريكة، ومد

ساقيه أمامها ، وصاح لوري يقول في نشوة الرضا :

— هذه جلسة مريحة لها قيمتها .

وامتعضت چو ، وقالت :

— دعك من هذه العبارات .

ثم بدأت تجر وسادتها الحشنة المعهودة ، وتدسها بينها وبينه ، ولكن هذه المحاولة جاءت بعد فوات الأوان ، إذ سقطت الوسادة على الأرض ، واختفت بطريقة غريبة .

قال لوري :

— دعك من هذه الحشونة يا چو ، فقد حطمني الإجهاد والاستذكار ومن حتى أن أنال بعض التدليل ، ولا بد أن أناله .

قالت :

— إني مشغولة ، وهناك بث فاذهب إليها تدلّلك .

قال :

— لا ، يجب ألا نشغل بث بهذه الأمور ، خصوصاً أنك تحبين هذا النوع من التدليل ، إلا إذا كنت فقدت الرغبة فيه ، فهل هذا صحيح ؟ وهل أصبحت تكرهين صديقك ، وتتمنين ضربه بالوسائد ؟ وكان استعطافاً مؤثراً ، لم تسمع چو مثله من قبل ، ولكنها اختارت أن تصد فتاها بسؤال محرج ، فقالت :

— كم أرسلت من باقات الزهور إلى مس راندل هذا الأسبوع ؟

قال :

— ولا واحدة ، أقسم لك أنها مخطوبة الآن .

قالت :

— يسرنى أن أسمع ذلك ، فالورد مضيعة للمال ، وأنت ترسل الأزهار والهدايا إلى البنات اعتباراً ، حتى اللاتي لا يهمنك أمرهن مثقال ذرة .

قال :

— إن البنات العاقلات اللاتي يهمنى أمرهن كثيراً ، لا يسمحن لى بإرسال الزهور والهدايا ، فماذا أفعل وعواطفى لا تجد منفذا ؟

قالت :

— إن والدتى لا تقر الغزل ولو على سبيل التسلية ، وأنت تغازل بغير حساب يا تيدى .

قال :

— إنى مستعد للتضحية بكل شىء إذا أجبتنى بالمثل ، ولكن ما دمت عاجزاً عن إقناعك بذلك ، فيكفى أن أقول إننى لا أجد ضرراً فى هذا المزاح البرىء المسلى ، وكلهم يدرك أنه تمثيل .

قالت :

— يبدو أن الغزل حقيقة مسلّ ، ولكنى لم أنجح فى ترويض نفسى على استساغته ، ولقد حاولت كثيراً ، لأن انطوائى يخرجنى عن المألوف ، وليس أبعث على الحرج والضيق من عجزنا عن مجارة غيرنا . يبدو أننى لن

أتقدم في هذا المضمار كثيراً .

قال :

— خذى درساً من أمي ، فهي قديرة في هذه المسائل ، ولها خبرة واسعة بها .

قالت :

— نعم ، وهي تصرف الأمور ببراعة ، ولكنها تذهب فيها إلى حد الإسراف ، وبعض الناس قادرون بطبعهم على استيعاب المرح والسرور دون جهد ومشقة ، وغيرهم يسيئون التصرف ، فيخطئون في تقدير الوقت المناسب والمكان الملائم .

قال :

— يسرفني جهلك بالغزل يا جو ، فليس أدعى إلى الإعجاب من فتاة رزينة تعرف كيف تمرح وتضحك ، دون أن تعرض نفسها للسخرية . أصارحك القول يا جو بأني أعرف فتيات يسرفن في الغزل إلى حد مخجل ، والحقيقة أنهن لا يبعين شراً من وراء ذلك ، ولكننا نسخر بهن بعد انصرافهن ، ولو عرفن ما يقوله الشباب عنهن ، ما اخترن إلا مسلكاً آخر .

قالت :

— وهن أيضاً يسخرن بكم خلف ظهوركم ، مثلما تفعلون تماماً ، ولما كانت ألسنة النساء أقسى من ألسنتكم ، فأنتم الخاسرون ، لأنكم تتصرفون بنفس الغباء الذي يتصرفن به ، فتناولون أكثر مما ينلن . لو أنكم

أحسنتم سلوككم ، لاقتدينا بكم ، ولكنكم تميلون إلى هذا العبث وتطلبونه ،
فإذا أرضيتمكم به ، تعودون عليهن باللائمة .

قال لورى مترفعا :

— أنت لا تعرفين كثيراً في هذا الموضوع يا سيدتى ، ونحن لا نحب
الغزل والمجون ، وإن تظاهرننا بذلك أحياناً . والفتيات الجميلات المتواضعات
لا يذكرن في أوساط الرجال إلا بمنتهى التجلة والاحترام ، فليحفظ الله
عليك براءتك . وددت لو أخذت مكانى شهراً ، لترى ما يدهشك ،
وأقسم لك أنى كلما رأيت واحدة من أولئك الطائشات ، شعرت برغبة
فى أن أقول لها ما يقولها صديقنا « كوك روبين » : « سحقاً لك أيتها
الصفيفة المتبرجة » .

وضحكت چو من الصراع الذى يدور فى نفس لورى ، بين عزوفه
عن ذكر النساء بسوء بدافع من رجولته وشهامته ، وبين نفوره الشديد من
مظاهر العبث التى اتسمت بها الطبقات الراقية . وكانت تعرف أن لورى
محط أنظار الأمهات ، وكل منهن تتطلع إليه زوجاً لابنتها ، ولذلك كان
يلقى العطف من النساء أينما حل أذهب : فالكبيرات يتقربن إليه ويمتدحنه ،
والصغيرات يتسمن إليه ويغازلنه ، فيزدنه غروراً على غرور . وكانت چو
ترقبه فى غير خشية أن يفسده التدليل ، وقد سرها غاية السرور ، أن
تجده لا يزال مؤمناً فى قرارة نفسه بالفتيات المهذبات المتواضعات .
وفجأة عادت إلى لهجتها الخافتة ، وقالت له بصوت خفيض :

— إذا كنت حقاً لا تجد متنفساً لعواطفك يا تيدى ، فاذهب إلى واحدة من أولئك الحميلات المتواضعات ، وكرس قلبك لها ، ولا تضع وقتك عبثاً فى الحماقات .

قال وهو ينعم النظر فى وجهها ، وفى نفسه مزيج من الغبطة والقلق :
— أنتصحين بذلك حقاً ؟ قالت :

— نعم ، ومن الخير أن تتأنى حتى تنتهى من دراستك الجامعة ، وتفرغ لإعداد نفسك لهذه المهمة ، فلست الآن أهلاً لتلك الفتاة المتواضعة أيتها كانت .

قال يصدق على كلامها ، وفى وجهه آيات الخضوع والاستسلام ، التى لم تعهد لها فيه من قبل :
— نعم . . لست أهلاً لها بعد .

ثم خفض بصره إلى الأرض ، وشرذ ذهنه فى عالم من التفكير ، ودون أن يشعر أمسك بزر مرولة چو ، وراح يلفه على أصبعه :

قالت چو تحدث نفسها : « رحمتك يا إلهى هذا لا يجدى ! » ، ثم قالت بصوت مرتفع :

— قم وأسمعنى أغنية ، فإنى متعطشة إلى الموسيقى ، وعزفك محبب إلى .
قال :

— أفضل أن أبقى فى مكانى . . مع الشكر . قالت :

— حسناً ، ولكن المكان لا يتسع لنا ، ولن نستطيع البقاء هنا طويلاً .

قم واعمل عملا نافعا ما دام جسمك أضخم من أن يصلح للزينة ، وأنا أعرف كم تكره أن تربط نفسك بأذيال مرولة امرأة !

قال وهو يشد على خيوط المرولة بجرأة :

— هذا يتوقف على من تكون صاحبة المرولة ؟

أجابت وهي تسحب الوسادة :

— قلت لك اذهب . . .

وعندما رآها لورى تشهر عليه وسادتها ، فر من أمامها بسرعة ،

فظلت ممسكة بسلاحها ، حتى اختفى الفتى عن ناظرها .

شعرت چو بالأرق فى هذه الليلة ، وسهرت طويلا ، وحين كاد النوم

يغلبها ، سمعت آهة مكبوتة تنطلق من سرير بث ، فأسرعت إلى فراش

أختها تسألها فى قلق :

— ماذا بك يا حبيبتي ؟

قالت بث وهى تنشج :

— ظننتك نائمة يا چو . سألتها :

— أهو الألم القديم يعاودك يا بث ؟

قالت وهى تغالب عبراتها :

— لا ، بل ألم جديد لا أستطيع احتماله . قالت چو :

— حدثيني به ، ودعيني أعالجه لك ، كما كنت أعالج أملك القديم .

وغالبت بث بكاءها ، واحتبس صوتها وهى تقول :



— لن تستطيعي علاجه ، إذ لا علاج له !
 وأمسكت بأختها ، وهي تبكي في يأس مرير ، ارتعبت له چو ،
 وامتلاً قلبها خوفاً على أختها . سألتها چو :
 — وأين هذا الألم يا بث ؟ أأنادی أمی لتری ما بك ؟

ولم تجب بث ، ولكنها وضعت يدها على قلبها بحركة لا إرادية ،
 كأنما تشير إلى أن الألم موطنه القلب ، وشدت بيدها الأخرى على أختها
 تضمها إلى صدرها ، وهي تهمس في أذنها قائلة :

— لا . . لا ، لا تنادى أمي ، سأتحسن حالا ؛ ارقدي بجانبى ،
 وسوف أهدأ بعد قليل ، وأستسلم للنوم . . . سأنام حتما . . .
 وأطاعت چو ، ولكنها ظلت طول الوقت تتحسس رأس أختها المحمومة ،
 وعينيها المبللتين بالدموع ، وكان قلبها مفعماً بالعطف والأسى ، ورغبتها
 شديدة في معرفة ما بها ، ولكنها كانت تدرك على حداثة سنّها ، أن القلوب
 كالزهر لا تفتح بالقوة ، بل يجب أن تترك ، حتى تتفتح من تلقاء نفسها .
 وكانت تظن أنها تعرف السر ، ومع ذلك لم تشر إليه ، ولم تنطق إلا بكلمات
 قليلة تفيض عذوبة وحنانا . قالت :

— أهنأك ما يحزنك يا عزيزتي ؟

أجابت بث بعد سكوت طويل :

— نعم يا چو . قالت :

— ألا تقولين شيئاً فتخفني عن نفسك ؟

أجابت :

— لا . . ليس الآن ، فلم يحن الوقت بعد . قالت چو :

— إذاً لن أسألك ، ولكن تذكرى يا بث أنه يسرنا دائماً ، أنا ووالدتي ،

أن نسمع شكواك ، ونساعدك إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا .

قالت :

— أعرف ذلك ، وسأحدثك بكل شيء ، ولكن ليس الآن .

قالت :

— وهل تشعرين بتحسن الآن ؟ قالت :

— أشعر أني أحسن حالا ، فأنت تهدئين النفس يا چو ، وتخففين كل ألم .

قالت چو :

— نامي يا عزيزتي ، وسأبقى بجانبك .

واحتضنت چو أختها ، وتلاصق خداهما ، ونامتا نوماً عميقاً طول الليل . وفي الصباح استعادت بث هديرها الطبيعي ، شأنها في ذلك شأن البنات في فجر شبابهن ، لا تدوم معهن أوجاع الرأس والقلب إلاهنية ، كما أن كلمة حلوة تأتي بالمعجزات في علاجهن ، فتذهب عنهن الألم بأسرع مما ينتظر ، وتسرى عن نفوسهن .

وفكرت چو في الموقف ، وقلبه على مختلف وجوهه ، ثم اعتزمت أمرا ، أسرت به إلى أمها .

قالت لأمها وهما تجلسان على انفراد :

— سألتني ذات يوم عن رغباتي ، فأليك الآن واحدة منها يا أماه .
إني في حاجة إلى التغيير ، وأريد أن أذهب إلى مكان ما . أريد أن أبتعد عن البيت هذا الشتاء .

ونظرت إليها أمها نظرة سريعة ، كأنما تحس في كلماتها تورية ، ثم قالت :

— ولماذا يا چو ؟

أجابت بهدوء ، وهى تنعم النظر فى قطعة النسيج التى تطرزها :
— أريد أن أشعر بشىء جديد فى حياتى ، فأنا قلقة ، والأيام تمضى
بى رتيبة مملة ، ويقتضى أن السفر يتيح لى فرص العمل والتعلم ، إنى أشغل
فكرى بشئونى الصغيرة الخاصة ، وحاجتى شديدة إلى ما يشحذ مشاعرى
ويجدد تجاربى ، وسيكون فى مقدورى — إذا انطلقت من البيت هذا
الشتاء — أن أطيّر بعيداً ، وأجرب أجنحتى فى أجواء جديدة .

سألها أمها :

— وإلى أين تطيرين ؟

أجابت :

— إلى نيويورك . . لقد طرأت لى أمس فكرة جميلة ، ولعلك تذكرين
أن مسز كيرك كتبت إليك عن حاجتها إلى فتاة محترمة ، تقوم على تربية
طفليها وتحوك ثيابها . إنه مطلب عسير التحقيق ، ولكنى أشعر بصلاحيتى
لهذه الوظيفة .

ودهشت مسز مارش للفكرة ، ولكنها لم تتضايق ، وإنما اكتفت
بسؤال چو قائلة :

— أتذهبين للخدمة فى مثل هذا البيت الكبير ، الذى يضم نزلاء

كثيرين ؟

أجابت چو :

— إنها ليست خدمة بالضبط ، فمسر كيرك صديقة لك ، وهى من أطيب السيدات قلبا ، وستسهل الأمور ، ولن يعرفنى أحد هناك ، لأن أسرتها تعيش بمعزل عن النزلاء . . ولنفرض أنهم عرفونى ، فما أهمية ذلك ؟ ألسنت أقوم بعمل شريف لا عار فيه ؟
 قالت أمها :

— إنى مثلك تماما ، لا يهمنى ما يقوله الناس ؛ ولكن ما مصير كتاباتك ؟
 قالت :

— سيحفزنى التغيير على مزيد من التأليف والكتابة ، فسأرى وجوهاً جديدة ، وأسمع أموراً طريفة ، مما يجدد أفكارى ويزيد فى تجاربى . وحتى إذا لم يتسع الوقت هناك للكتابة ، فسأعود إلى البيت ، وفى جمعتى ذخيرة من المواد المفيدة للكتابة .
 قالت الأم :

— لست أشك فى ذلك ؛ ولكن ، أهذا هو السبب الوحيد لرغبتك المفاجئة فى السفر ؟
 أجابت چو :
 — لا يا أماه .
 قالت :

— وهل أستطيع أن أعرف الأسباب الأخرى ؟

وتحيرت چو ، وأخذت تنقل بصرها بين الأرض والسماء ، ثم قالت ،
وقد احمرت وجنتاها فجأة :

— قد يكون غروراً منى ، ولكن لا بد من أن أصارحك بما فى
نفسى . . . أخشى أن لورى قد زاد غراماً بى فى الأيام الأخيرة .

فقالت مسر مارش ، وقد بدا عليها القلق :

— وهل معنى هذا أنك لا تهتمين به قدر اهتمامه بك ؟

قالت چو :

— وفقاً بى يا أماه ، إنى أحب لورى الآن ، كما كنت أحبه من
قبل ، وما زلت فخورة به ، ولكن لا أريد أن تزيد الأمور عن هذا
القديم .

قالت الأم :

— إنى سعيدة بما تقولين يا چو .

فسألتها :

— ولماذا ؟

قالت :

— لأنى أعتقد أنكما تختلفان جوهرياً بعضكما عن بعض ، والأمور
تسير بكما على ما يرام مادتما صديقين ، وخلافاتكما لا تلبث أن تذروها
الرياح ؛ ولكن رباط الزواج لا يناسبكما ، فكلكما نزاع إلى الحرية ،
حاد المزاج ، شديد العناد ، مما لا يبشر بالسعادة فى حياة تحتاج إلى

الصبر البالغ والاحتمال الشديد والحب القوى .

قالت چو :

— وهذا ما أشعر به تماماً ، وإن لم أستطع التعبير عنه . ومن حسن الحظ أنه لم يتماد بل بدأ فقط يهتم بى ، فليس أبغض على نفسى من أن أكون سبباً فى شقائه ، وقد اضطر بدافع الوفاء وحده إلى حب هذا الفتى العزيز .

سألتها أمها :

— أنت متأكدة من أنه يحبك ؟

واشتدت حمرة الخجل فى وجنتى چو ، وبدأ على وجهها ما يعتمل فى نفسها من معان اختلط فيها السرور والفخار والألم ، شأنها فى ذلك شأن الفتيات الصغيرات . حين يتحدثن عن حبهن الأول . قالت :

— أخشى ذلك يا أماه . حقيقة أنه لم يقل شيئاً ، ولكنه ينظر إلى نظرات طويلة ، لا تخفى معانيها ، ومن الخير أن أذهب قبل أن تتطور الأمور وتتعدد .

قالت أمها :

— صدقت يا چو ، وستسافرين إذا أمكن تدبير الأمور .

وتنفست چو الصعداء ، وقالت باسمه بعد سكوت قصير :

— لا بد أن يثير تدبيرك عجب مسر موفات ، وسيزداد سرورها

لرحيلى ، لأنها ما تزال تأمل فى لورى !

قالت مسز مارش :

— لا يا چو ، قد تختلف الأمهات في مسائل زواج بناتهن ، ولكنهن يتفقن جميعاً على التمسك بأهداب الأمل ، وليس بينهن إلا من تنشد لبناتها أقصى السعادة . لقد تزوجت ميج بطريقها الخاصة ونجحت في زواجها ، وإني سعيدة لنجاحها ؛ أما أنت فتمتعي بحريتك كما تشائين ، حتى تملئ الحرية من تلقاء نفسك ، وعندئذ ستدركين أن هناك ما هو أحلى من الحرية . لا يشغلني الآن سوى أمر آى ، وإن كنت على ثقة بذوقها وحكمتها ؛ أما بث فكل أملى أن أراها سليمة معافاة . وعلى فكرة ، لاحظت في اليومين الماضيين أنها أكثر إشراقاً ونضرة ، فهل تحدثت إليها ؟

قالت :

— نعم ، تحدثت إليها ، فاعترفت بوجود بعض المتاعب ، ولكنها لم تشأ أن تفصح عنها ، ووعدت بأن تخبرنى بها فيما بعد . ولم يزد حديثنا عن ذلك ، ولكنى أعرف سبب متاعبها .
وروت چو لأمها قصتها الصغيرة .

وهزت مسز مارش رأسها ، ولم تتأثر بالناحية الخيالية من القصة ، ولكنها بدت شديدة الاهتمام بما سمعته ، وعادت تؤيد رأيها الأول ، من أن ابتعاد چو بعض الوقت ، يفيد لورى . . قالت چو :

— سنكتم الأمر عنه حتى تنتهى المسألة ، وسأفر من الميدان قبل أن يجمع شتات أفكاره ويحزن لفراقى . وأحب أن تعتقد بث أنى سافرت طلباً

للسرور والمتعة ، إذ لا أستطيع أن أحدثها بشيء عن لورى . . لنترك لها أمر تدليله وتهديته بعد سفرى . ولعلها تستطيع أن تشفيه من بوادر الغرام . ولن يصعب عليها ذلك ، فقد مر بمثل هذه التجارب من قبل .

وكانت چو تتكلم وكلها أمل فى النتائج الطيبة ، ولكنها ظلت فى قرارة نفسها خائفة من وقع الصدمة على لورى ، وكانت تخشى ألا تستطيع التغلب بسهولة على حبه لها .

وعرض مشروع چو على بساط البحث فى مجلس العائلة ، ووفق عليه بالإجماع ، بعد أن اغتبطت مسر كيرك بالفكرة ، وأبدت منتهى ترحيبها بچو ، كما وعدت بأن تهىء لها مقاماً سعيداً فى الأسرة . وكان الأمل عظيماً فى أن توفر لها مهنة التدريس ، الاستقلال الذى تنشده ، وتمنحها فراغاً من الوقت تقضيه فى الكتابة ، هذا إلى ما تستفيدة من الحياة الاجتماعية الجديدة التى تنتظرها . وقد تطلعت چو إلى عملها الجديد مغتبطة ، كما حرصت جد الحرص على السفر ، بعد أن أصبح عش الأسرة يضيق بطبيعتها القلب التواقفة إلى المغامرة .

وعندما تم الاستعداد وانتهى ، أفضت إلى لورى بالقصة وهى خائفة مرتعدة ، ولدهشتها تقبل الأمر بمنتهى الهدوء . وقبيل سفرها بأيام بدت عليه الرزاة واضحة ، وازدادت بشاشته عن ذى قبل ، وحين اتهم على سبيل الفكاهة ، بأنه قلب صفحة جديدة فى حياته ، أجاب فى وقار :
— نعم ، لقد قلبت صفحة جديدة ، وإنى مصمم على أن تظل هذه الصفحة مقلوبة .

وشعرت چو بالارتياح لمسلكه ، وعكفت على حاجاتها تعدها بهدوء
وتفاؤل ، وزادها اطمئنانا أن رأت أختها بث منشرة الصدر مسرورة .
كانت الأمور تسير على ما يرام ، وكانت چو ترجو أن يعود سفرها بالخير
على أهلها وأحبائها .

وفي الليلة السابقة لرحيلها ، قالت تحدث أختها بث :

— أوصيك بأن تعني بشيء واحد .

فسألتها بث :

— أتعنين أوراقلك ؟

أجابت چو :

— لا ، بل فتاي لورى ، كوني رفيقة به ، وأسبغى عليه حنانك .

قالت :

— طبعاً ، ولكنى لا أستطيع أن أملأ مكانك ، وسيشعر بالأسى حين

تذهبين .

قالت چو :

— لن يحزن لفراقى ، وتذكرى دائماً أنى أتركه لعنايتك ، فدلليه وسليه

وراعى شئونه .

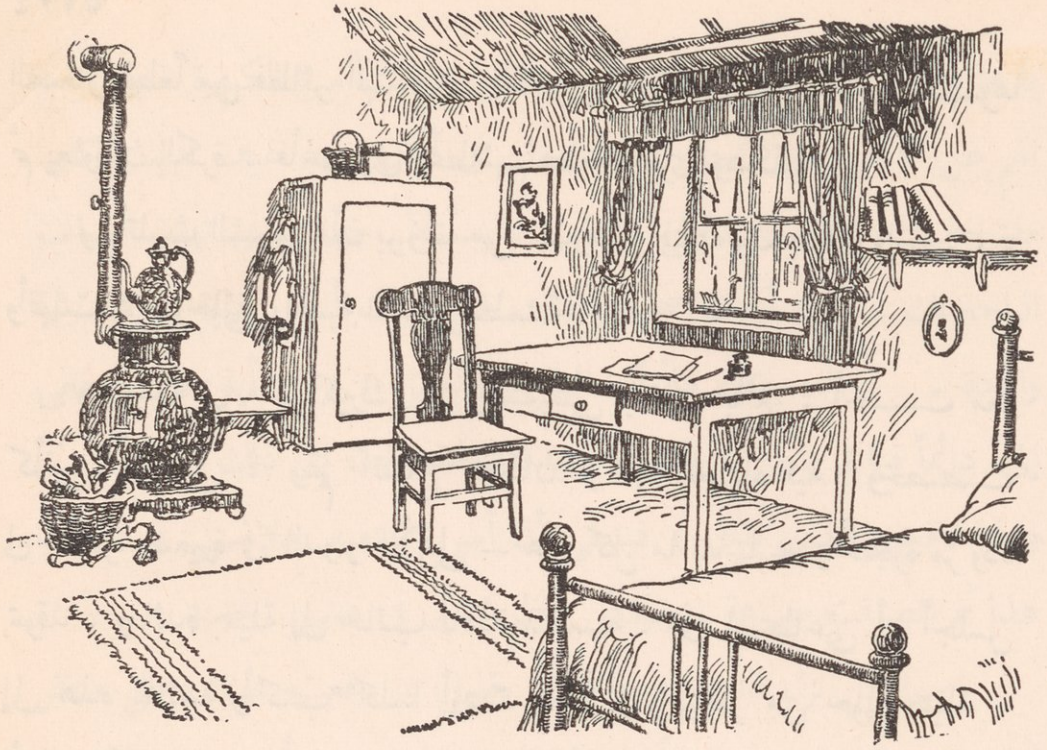
فوعدها بث خيراً ، وهى تعجب من نظرات چو الحائرة . قالت :

— سأبذل جهدى ، ولن أهمل فى تحقيق وصيتك .

وحين ودع لورى چو ، همس فى أذنها بكلمات ذات مغزى ، قال :

— لن يغير سفرك من الأمر شيئاً ، فقد وقع اختيارى عليك واستقر ،

فتدبرى فيما أنت فاعلة ، وإلا جئت إليك وأعدتك إلى البيت قسراً .



الفصل الثالث والثلاثون

أخبار جو

نيويورك . نوفمبر

أمي العزيزة وأختي بث

سأكتب إليكما بانتظام فإن لدى أخباراً كثيرة ، رغم بساطة رحلتي ،
وأقول بصراحة إنه حين غاب عني وجه أبي الحبيب ، شعرت بضيق
شديد ، وغمرني إحساس بالجزع ، كدت أستسلم معه للبكاء ، لولا
أن سيدة أيرلندية وأولادهما الأربعة الصغار ، صرفوا عني هذا الشعور
بصياحهم الدائم وبكائهم المستمر ، فأخذت أسلي نفسي بإعطاء هؤلاء

الصغار قطعاً من فطائر البندق ، فكانوا يكفون عن البكاء حتى يلبسوها
ثم يعاودون الكرة ، فأعود إلى إعطائهم قطعة أخرى وهكذا .
ولم تلبث الشمس أن برزت من خدرها ، فتفاءلت بذلك وارتحت ،
وأقبلت على رحلتى راضية النفس مطمئنة .

ورحبت بى مسز كيرك ، واستقبلتنى بحنان بالغ ، أحسست معه
كأننى فى بيتى ، رغم اتساع المكان وكثرة الغرباء فيه . وخصصت
لى حجرة صغيرة فى الدور الأعلى — هى كل ما لديها — والحجرة مزودة
بموقد ، ومائدة جميلة إلى جانب نافذة مشمسة ، وفى استطاعتى أن أجلس
إلى هذه المائدة وأكتب كلما أردت ذلك . والمناظر من حولى جميلة ،
وأمامى الكنيسة ببرجها الشاهق ، وفى هذا أجمل التعويض عن السلم الطويل
الذى أرتقيه مرات فى اليوم . وقد أعجبت بحجرتى لأول وهلة . ودار
الحضانة التى أدرس فيها وأحوك الملابس ، واسعة بهيجة تقع بجانب غرفة
الاستقبال الخاصة بمسز كيرك . والبنتان الصغيرتان جميلتان ، ولكنهما
فيما يبدو مدللتان ، وقد ركنتا إلى الالتصاق بى بعد أن رويت لهما قصة
« الحنازير السبعة » ، وأعتقد أنى سأكون مربية مثالية . وقد أعطيت
الحرية فى تناول طعامى مع الأطفال ، إذا لم أشأ أن أجلس إلى المائدة
الكبيرة ، وهذا ما فعلته إلى الآن ، لأننى — وإن كنتم لا تصدقون —
خجولة .

قالت لى مسز كيرك فى عطف أموى : « اعتبرى نفسك فى بيتك

أنه الأستاذ باير ، فهو يفعل ذلك دائماً ، وأخبرتني أنه ألماني عظيم الثقافة ، كبير القلب ، ولكنه أفقر من فأر الكنيسة ، ولذلك يقوم بالتدريس لبعض التلاميذ ، ليسد حاجته وحاجة ابني أخته اليتيمين ، اللذين تركتهما أمهما في رعايته بعد أن تزوجت من أمريكي . وهذه القصة ليست عاطفية ، ولكنها استرعت اهتمامي ، وسرني ما علمته من أن مسز كيرك ، وضعت تحت تصرف الأستاذ ، غرفة استقبالتها الخاصة ، ليستقبل فيها تلاميذه . ويفصل غرفة الاستقبال عن غرفة الحضانة باب زجاجي ، وفي نيتي أن أختلس النظر منه ، وبعدئذ أصف لكما شكل هذا السيد . . . إنه في الأربعين من عمره ، فلا تخافى يا أماه !

وبعد أن تناولت الشاي ، ولعبت الأطفال قبل نومهم ، انصرفت إلى سلة الحياكة ، وقضيت مساء هادئاً في عملي الحديد . سأكتب يومياتي بانتظام ، ثم أرسلها اليكم كل أسبوع ، فمساء الخير ، وإلى اللقاء غداً .
« مساء الثلاثاء :

قضيت هذا الصباح وقتاً نشيطاً في غرفة الحضانة ، فقد كانت البنتان غاية في « الشقاوة » ، حتى خيل إليّ أن أمسك بهما وأهزهما بعنف ، لأردهما عن مشاكستهما ، ولكن روحاً طيبة أوحى إليّ أن أحول نشاطهما إلى الرياضة ، وبالفعل جعلتهما تقومان بتمرينات بدنية ، وأمرتهما بالاستمرار فيها ، حتى أنهكهما التعب ، فجلستنا ترتاحان في هدوء . وبعد الغداء اصطحبتهما الخادم الصغيرة إلى رياضة خارج البيت ،

وعندئذ انصرفت إلى شغل الإبرة بنفس راضية . وبينما كنت أمتدح الظروف السعيدة التي هيأت فرصة إتقان صنع العرى الجميلة ، انفتح باب غرفة الاستقبال المجاورة ، ودخلها أحدهم ، وهو يترنم بلحن ألماني . وغلبني الإغراء ، ودفعني إلى ما لا يصح أن أفعل ، فقممت إلى الباب الفاصل بيننا ، ورفعت جانباً من الستار الذي يحجب زجاجه ، واسترقت من خلفه النظر ، فإذا بي أرى الأستاذ باير في الحجرة . وأنعمت فيه النظر ، وهو مشغول بترتيب كتبه ، فوجدته ألمانياً أصيلاً جسمه ممتلئ ، وشعره بني مشعث ، ولحيته كثة ، وأنفه جميل ، وعيناه وديعتان ، وعلى كل حال ليس فيه من مظاهر الوسامة ، إلا أسنانه البيضاء اللامعة . ولكنه أعجبني بالرغم من ذلك ، لأن شكله يوحى بالطيبة والتواضع ، ووقاره ينم عن أصل عريق ، لم تستطع أن تخفيه ملابسه العتيقة وحدائره المرتوق .

وأول ما دخل الحجرة ، اتجه إلى النافذة ، ليحول أبصار الزهور نحو أشعة الشمس ، ثم ربت على ظهر القطة التي تلقتة بترحيب الصديق القديم ، وعندئذ انفرجت أساريه عن ابتسامة الرضا ، وحين دق الباب ، قال بصوت عال ملؤه الحيوية والنشاط : « موجود ، تفضل » .

وكنت على وشك أن أكف عن المراقبة ، حين وقعت عيناي على طفلة صغيرة نحيلة ، تحمل كتاباً كبيراً ، فدفعني الفضول إلى البقاء لملاحظة ما يدور . ورأيت الصغيرة تغلق كتابها ، وتضعه على المائدة ، ثم تجرى نحو الأستاذ وتقول :

— أريد أن أرى عزيزى باير .

وفتح لها الأستاذ ذراعيه ، وانحنى عليها يقبلها ، ثم قال :

— هالك باير ، فتعالى وعانقيه يا تينا .

وألصقت تينا شفتيها الصغيرتين بوجهه ، وطبعت عليه قبلة وقالت

بالإنجليزية الركيكة :

— والآن يجب أن أذاكر دروسى

فوضعها الأستاذ فوق المائدة ، وفتح القاموس الكبير الذى جاءت به معها ، وأعطاهما ورقة وقلماً ، فأخذت تكتب مستعينة بصفحات القاموس من وقت لآخر ، وكانت تحرك أصبعها على طول الصفحة ، كأنما تبحث عن كلمة . وكانت تقوم بهذا العمل فى جد ورزانه ، لم أستطع معهما أن أكنم الضحك ، حتى كاد أمرى يفتضح . وكان باير طول الوقت يربت بيده على شعرها الجميل فى حنان الأبوة ، مما يجعلنى أعتقد أنها ابنته ، وإن كان مظهرها وملاحمها تنم على أنها فرنسية لا ألمانية .

ودق الباب مرة ثانية ، ودخلت فتاتان فى ريعان الشباب ، فتركت المراقبة من وراء الباب ، وعدت إلى عملى ، ولم أغادر مكانى ، رغم الضجيج الذى كان يأتينى من الغرفة المجاورة . وظلت إحدى الفتاتين تتصنع الضحك طول الوقت . وتقول فى دلال : « حسناً يا أستاذ » وأخذت الأخرى تنطق الألمانية بلهجة قبيحة ، جعلته يعترض عليها فى

غير هدوء أو ثبات .

وكان من الواضح أن الفتاتين ترهقان أعصابه . حتى كاد يفقد صبره ، وقد سمعته يقول لهما مرة : « لا ، ليس هكذا . . . ما هكذا تنطق الكلمات . . . أنما لا تعملان بملاحظاتي » .

ومرة أخرى سمعت دقة عنيفة ، كأنما ألقى الكتاب على المائدة ، ثم قال في صيحة يائسة : « لم تحسنا اليوم شيئاً ، وقد ذهب الدرس هباء » . وأخذتني الشفقة بالرجل المسكين ، وعند ما انصرفت الفتاتان ، عدت إلى الباب الزجاجي ألقى نظرة من ورائه ، لأطمئن على أنه اجتاز المحنة بسلام . . . فوجدته مستلقياً على كرسيه ، وعليه مظاهر الإرهاق والإنهاك ، وظل في مكانه مغمض العينين ، حتى دقت الساعة الثانية ، وعندئذ هب من كرسيه واقفاً ، ودس كتبه في جيبه ، كأنما يستعد لدروس آخر ، ثم حمل بين ذراعيه تينا الصغيرة ، التي راحت في سبات عميق فوق الأريكة ، وخرج بها يمشى هادئاً ، خشية أن يوقظها . يخيّل إلى أنه يقاسى كثيراً من أجل هذه الفتاة .

رجتني مسر كيرك أن أتناول وجبة الساعة الخامسة على المائدة الرئيسية مع أهل البيت ، ولما كنت أشعر اليوم بحنين شديد إلى بيتنا ، رأيت أن أجيب رجاءها ، لأروح عن نفسي ، وأستطلع أحوال أولئك الذين يسكنون معي تحت سقف واحد ولا أعرفهم . وأخذت أهبطي لأبدو في مظهر لائق ، ورافقت مسر كيرك ، وفي نيتي أن أتسلل إلى قاعة

الطعام خلفها ، ولكنها كانت أقصر منى قامة ، فذهبت محاولاتي للاختفاء أدراج الرياح . وقدمت لى مسز كيرك مقعداً بجانبها ، فجلست عليه ، وعند ما هددت نفسى ، جمعت أطراف شجاعتي ، وبدأت أجول ببصرى فيمن حولى . وكانت المائدة الطويلة ممتلئة عن آخرها ، وكان كل فرد مشغولاً بطعامه ، خصوصاً الرجال الذين بدوا وكأنهم مع الطعام على موعد : فقد ازدردوا أكلهم بسرعة ، وحالما انتهى الطعام ، انسلوا خارجين . وكان يجلس إلى المائدة شبان مشغولون بأنفسهم كالعادة ، وأزواج يتبادلون الحديث فى جد وانهماك ، وسيدات يرعين أطفالهن ، ورجال يتناقشون فى السياسة ، ولا أظن أننى سأعنى بأمر أحد من هؤلاء كلهم ، ما عدا سيدة جميلة فى مستقبل الحياة ، أعتقد أنها تستحق المعرفة .

وكان الأستاذ يجلس فى طرف المائدة الآخر ، وهو يجيب عن أسئلة عجوز أصم إلى يمينه ، ويتناقش فى الفلسفة مع فرنسى إلى يساره ، ولكن أحاديثه مع الرجلين لم تشغله عن أداء واجبه نحو الطعام ، فأقبل عليه باجتهاد شديد . ولو كانت آمى معنا ، لقاطعته إلى الأبد ، إذ كان مع الأسف يأكل بنهم مخجل لا تفره أختنا صاحبة الفخامة ؛ ولم أستأ لنهمه أو أتضايق ، لأننى أحب أن أرى الناس يأكلون طعامهم « بشهية ولذة » على حد تعبير حنا ، ولا شك أن الأستاذ المسكين فى حاجة دائمة إلى تغذية مضاعفة ، تعوض عليه الجهود الشاقة التى يبذلها فى التدريس .

التقيت وأنا أصعد الدرج بعد العشاء بشابين ، وقفنا أمام مرآة الردهة

ينسقان قبعتيهما ، وسمعت أحدهما يقول للآخر بصوت خفيض :

— من هذه الزميلة الجديدة ؟

قال الآخر :

— مربية أو ما يشبه ذلك .

سأل الأول :

— وما الذى جاء بها إلى مائدتنا ؟

أجاب الثانى :

— يقولون إنها صديقة للسيدة العجوز .

قال الأول :

— أن شكلها لطيف ، ولكنها عديمة الطراز .

قال الثانى :

— ليس لها طراز على الإطلاق ، اشعل لى سيجارتى وهيا بنا .

وتملكنى الغضب فى أول الأمر ، ولكنى لم ألبث أن استعدت هدوئى ،

ولم أبال بما سمعت ، فالمربية لا تقل شأنًا عن الكاتب أو السكرتير ، وقد

أكون محرومة من الطراز ، ولكنى راضية بذلك الذى لا يستمتع به

كثيرون . وإذا كان لى أن أحكم على هذين الشابين المتأنقين ، اللذين

انصرفا وهما ينفثان الدخان ، كأنهما مدخنتان ، فليس لدى ما أقول

سوى أنى أكره التافهين !

» الحميس :

كان أمس يوماً هادئاً صرفته في التدريس والحياكة والكتابة داخل حجرتي الصغيرة المزودة بوسائل الانارة والتدفئة ، وقد جمعت أطرافاً من الأخبار ، وتعرفت بالأستاذ ، وعرفت أن تينا هي ابنة السيدة الفرنسية التي تقوم بأعمال الكي في المنزل . والطفلة الصغيرة تحب مستر باير من كل قلبها ، وتتبعه في البيت أينما ذهب ، وهو فخور بحبها ، لأنه بطبعه شغوف بالأطفال . ويجب الأستاذ أيضاً طفلتى الصغيرتين كيتي وميني كيرك ، وهما ترويان لى أخباره كلها ، وتتحدثان عن التمثيليات التي يؤلفها . والهدايا التي يحضرها ، والقصص الباردة التي يحكيها . والشبان يتخذون منه مادة لدعاباتهم ، ويطلقون عليه أسماء مضحكة ، منها « فرنز العجوز » و « البيرة الخفيفة » و « الدب الأكبر » . ولكن مسز كيرك تقول : « إنه يتقبل مجونهم راضياً ، ويتحمل فكاهاتهم بسماحة . ولذلك جميع من في البيت يحبونه ، على الرغم من عاداته الأجنبية .

أما السيدة الأنيقة الجميلة ، فهي الآنسة نورثون ، وهي ثرية مثقفة طيبة القلب مهيبة ، وقد تحدثت إلىّ ونحن نجلس إلى مائدة العشاء الليلة — إذ تناولت عشائى على المائدة مرة أخرى ، فليس أدعى إلى التسلية من مراقبة الناس وهم يأكلون — ودعنى الآنسة نورثون لزيارتها في غرفتها الخاصة ، وأرتنى مجموعة كبيرة من الكتب المفيدة والصور الجميلة ، وهي تعرف أناساً لهم مكانتهم وتقديرهم ، وأبرز ما في هذه السيدة ، روحها

الودود ، لذلك سأتلطف معها ، لأننى فى حاجة إلى معرفة المجتمعات الطيبة ، ولكنها ليست على أية حال من الطراز الذى تحبه أختنا آمى .

وكنا نجلس ليلة أمس فى غرفة الاستقبال ، فدخل علينا مستر باير ، ومعه جرائد جاء بها لمسز كيرك . ولم تكن السيدة موجودة ، ولكن ميني الصغيرة — التى تتقن قواعد اللياقة رغم حداثة سنها — قدمتنى إليه بكل رشاقة وقالت : « هذه الآنسة مارش ، صديقة والدتى » .

وأضاعت كيتى وهى طفلة رائعة :

— نعم ، وهى سيدة خفيفة الروح حلوة الحديث ، ونحن نحباها حباً جماً .

قال وهو يقطب جبينه بشكل سرت له الفتاتان :

— إنى أسمعهما يضاهيانك أحياناً يا آنسة مارش ، فنادنى إذا فعلتا

ذلك مرة أخرى ، وسأعطيها ما تستحقان !

ووعده بذلك ثم انصرف ، ولكن يبدو أننى سأراه كثيراً ، فقد

حدث اليوم وأنا أمر بغرفته ، أن اصطدمت مظلتى ببابه دون قصد ،

فإذا بالباب يفتح على مصراعيه ، وإذا بالأستاذ يقف أمامى وفى يساره

جورب أزرق كبير ، وفى يمينه إبرة للرفى ، ولم يبد عليه أى أثر للخجل

من وضعه هذا ، وحين فسرت له ما حدث ، وأسرعت بالمسير ، لوح

لى بالجورب ، وقال فى سرور بالغ :

— إنه يوم جميل للمشى ، فرحلة طيبة يا آنسة .

وكان الموقف مضحكاً ، ولكنى رأيت له وجهاً آخر أفعم قلبى

بالإشفاق على هذا الرجل ، الذى لا تضطره الظروف إلى إصلاح ملبسه
فحسب ، بل إلى رتق جواربه أيضاً ، وهى مهمة شاقة بغضبة .

« يوم السبت :

لم يحدث اليوم جديد يستحق الكتابة غير زيارتى لآنسة نورثون ،
فى غرفتها العامرة بأجمل التحف وأندرها . . . إن هذه السيدة رشيقة جذابة ،
وقد أرتنى مقتنياتهما الثمينة ، ودعتنى إلى مصاحبتهما عند ذهابها إلى المحاضرات
والحفلات الموسيقية ، وأظنها أرادت أن تتجاملنى بهذه الدعوة ، ويقينى
أن مسز كيرك حدثتها بأحوالنا ، فأخذتها الشفقة بى ، وأنا وإن كنت
أشد كبرياء من إبليس ، غير أن مكرمات الطيبين لا تسيئنى ، ولذلك
تقبلت الدعوة شاكرة .

وحين عدت إلى غرفة الحضانة ، سمعت ضجة كبيرة تنبعث من
حجرة الاستقبال المجاورة ، فأسرعت إليها أتبين الخبر ، وإذا بى أرى
مستر باير يركع على يديه وركبتيه ، وتينا تجلس فوق ظهره ، وكيكى تجره
بجبل طويل . . أما ميني فكانت تطعم ولدين صغيرين يصرخان داخل
قفص صنعته لهما من المقاعد . وقالت كيكى تشرح الموقف :

— نحن نلعب النارجيرى .

وأضافت تينا وهى تشد شعر الأستاذ :

— وهذا حصانى .

وقالت ميني :

— ماما تسمح لنا بأن نفعل ما نريد في مساء السبت من كل أسبوع حين يحضر فرانز وأميل لزيارتنا ، أليس كذلك يا مستر باير ؟
 وجلس الحصان ، ونظر إلى بحماسة تفوق حماسة الأطفال ، وقال
 بتؤدة :

— إنها الحقيقة يا آنسة ، وإذا تضايقت من ضجيجنا ، فما عليك إلا أن تقولي « صه » ، فنركن إلى الهدوء .
 وكانوا في مرح لم أر له مثيلاً ، فعذت إلى غرفتي ، ولكني تركت الباب مفتوحاً ، لامتع النفس بلعبهم . ولعبوا لعبة « العسكر والصوص » ، ثم رقصوا وغنوا ، وحين حل الظلام ، اجتمعوا حول الأستاذ على الأريكة ، يستمعون إلى قصصه الخرافية الممتعة ، وحكاياته الشائقة ، وكم أسفت أن الأمريكيين ليسوا مثل الألمان في بساطتهم وتمشيهم مع الطبيعة .
 إنى مولعة بالكتابة ، وسأظل إلى الأبد أسطر ما يجول بخاطري على الورق ، إلا إن منعتني عوامل اقتصادية ، فعلى الرغم من أني أكتب على ورق رفيع ، بخط دقيق ، فإنني أرتعد كلما تذكرت عدد الطوابع ، التي يتكلفها مثل هذا الخطاب الطويل . وأرجو أن تبعثوا إلى بخطابات آمل حالمًا تنتهون منها ، ولا شك أن أخباري ستبدو تافهة بالمقارنة إلى أخبارها المجيدة ، ولكني أعرف أنكم ترحبون بكل ما أكتب . هل تيدى مشغول بالذاكرة إلى حد يمنعه من الكتابة لأصدقائه ؟ أعني به من أجلى

يا بث ، وابعثى إلىّ بأخبار طفلى ميج ، وبلغنى الجميع حبي الشديد ،
من المخلصة

چو

ملاحظة : عند ما أعدت قراءة الخطاب ، استوقفتنى كثرة كلامى
عن باير ، ولكن الشخصيات الغريبة تجتذبنى دائماً ، ولم يكن لدى
أخبار أخرى أروها لكم . . . تحياتى إليكم

« ديسمبر :

عزيزتى

لما كان خطابى هذا أشتاتاً من هنا وهناك ، لذلك وجهته إليك ،
عسى أن يدخل على قلبك السرور ، ويعطيك فكرة عن مجرى حياتى
فى هذا المكان ، فهى وإن تكن حياة هادئة ، إلا أنها لا تخلو من التسلية.
وقد استطعت بعد « الجهود الجبارة » — على حد تعبير آمى — التى بذلتها
فى تنمية الغرس العقلى والأدبى ، أن أمكن لأفكارى من الازدهار ، وأجعل
طفلتى الصغيرتين طوع أمرى ، وأوجههما كيفما أشاء . وفى الحق أنهما
لم تبلغا بعد ما بلغته تينا والولدان الصغيران ، ولكنى أودى واجبى نحوهما ،
وهما مغرمتان بى . . . وفرانز وأميل ولدان لطيفان ، وأنا أحبهما من كل
قلبى ، لأنهما خليط من الأمريكية والألمانية ، وهذا الخليط يجعلهما فى
فوران دائم . . . وأمسيات السبت دائماً صاحبة ، سواء أقضاهما الأطفال

فى البيت أم فى خارجه ، وهم يخرجون معى أنا والأستاذ . حين يكون الجو صالحاً للمشى ، ومهمتى أن أرقب النظام وأحافظ عليه ، وهو عمل غاية فى التسلية .

صرت أنا والأستاذ صديقين حميمين ، وبدأت أتلقي عليه بعض الدروس ، ولم يكن مناص من ذلك ، بعد أن تطورت الأمور بيننا بطريقة غريبة . وبدأت القصة يوم نادتنى مسر كيرك ، وأنا أجتاز باب غرفة الأستاذ ، وكانت فى ذلك الوقت تفتشها ، وتبعثر الأشياء هنا وهناك . قالت حين دخلت :

— هل رأيت عرينا بهذه الفوضى ؟ تعالى يا عزيزى وساعدنى فى إعادة هذه الكتب إلى مواضعها ، فقد قلبت الأشياء بحثاً عن المناديل الستة ، التى أعطيته إياها منذ وقت قريب ، ولكنى لم أعثر لها على أثر . وكانت حجرة الأستاذ حقيقة تشبه عرين الوحوش فى فوضاها ، فالكتب والأوراق مبعثرة فى كل مكان ، وعلى رف المدفأة غليون محطم وزمارة مكسورة ، وبجانب النافذة طائر بلا ذيل ، وفى الجانب الآخر صندوق للفيران الأليفة . وبين كتبه وكراساته مراكب من الورق لم يتم صنعها بعد ، وأمام المدفأة صف من الأحذية القديمة الصغيرة جففتها سخونة النيران ، وفى كل مكان من الحجرة آثار الأطفال الصغار الذين يشقى من أجلهم . وبعد طول بحث وتنقيب عثرنا على ثلاثة من المناديل المفقودة ، كان أحدها فوق قفص الطائر ، والثانى ملطخاً بالحبر ،



والثالث محترقاً بجوار الموقد ، مما يدل على أنه كان يستعمله في تنحية
الأواني الساخنة عن النار . وضحكت مسر كيرك الوديعة من أمر الرجل
ما شاء لها الضحك ، ثم وضعت مخلفات المناديل في سلة المهملات
وهي تقول :

— أظن أنه مزق بقية المناديل ليصنع منها قلوفاً لمراكب الأطفال ،
أو ضمادات لأصابعهم المجروحة ، أو ذيولاً للطائرات . . . إنها تصرفات
فضيعة ، لا أستطيع أن ألومه عليها ، لأنه شارد الذهن ، ولكنه أبداً طيب
القلب يلاعب الأطفال ، ويسمح لهم بامتطاء ظهره كأنه حصان أصيل ..
إنه رجل وديع ، وقد تعهدت عن طيب خاطر بغسل ملابسه وإصلاحها ،
ولكنه ينسى دائماً أن يعطيها لى ، وأنسى أنا أن أطلبها منه ، وتكون النتيجة
أن يقع فى مآزق تأتيه بالمتاعب .
قلت لها :

— دعيني أصلحها له بنفسى فأنا لا أضيق بهذا العمل ، ولا تخبريه
بذلك ، حتى لا يشعر بحرج . . . من واجبي أن أرد جمائله ، فهو رفيق
بى ، يعيرنى كتبه ، ويتعب نفسه فى إحضار خطاباتى .
وهكذا استطعت أن أرتب له أشياءه ، وأن أرفو له جوربين من
جواربه ، وأن أعيدهما إلى وضعهما الطبيعى بعد أن أفسدهما بمحاولة
إصلاحهما بنفسه . وبقي الأمر سراً ، وكان أملى ألا يعرف الأستاذ
بصنيعى ، ولكن حدث فى الأسبوع الماضى أن كنت أئسلى باستماع

الدروس التي يلقيها على تلاميذه ، وكانت تينا دائبة الخروج والدخول ، تترك الباب مفتوحاً وراءهما ، بحيث تيسر لى متابعة ما يقول . وبينما كنت أجلس بجوار الباب أرفو جوارب الأستاذ ، وأفكر فيما يقوله لتلميذة جديدة يبدو عليها الغباء مثلى ، فى تلك اللحظة خرجت الفتاة من الغرفة ، وخيل إلىّ أنه خرج خلفها ، إذ ساد الصمت ولم أعد أسمع شيئاً . وجعلت أسلىّ نفسى بتصريف أحد الأفعال التى سمعتها ، وأنا أهتز فى مقعدى بطريقة رتيبة ، وفجأة تنهت على صوت ينبعث من أمامى ، وحين رفعت رأسى وجدتني وجهاً لوجه مع الأستاذ باير . وكان ينظر إلىّ صاحكاً ، ويشير إلىّ تينا أن تلزم الصمت حتى لا أكتشف أمرهما ، فرحت أحلق فى وجهه كالأوزة المدعورة ، فقال لى :

— إنك تختلسين النظر إلىّ . كما أختلس النظر إليك ، ولا غضاضة فى ذلك ، ولكن أرجو ألا تعتبرينى مجاملاً أو متطفلاً إذا سألتك : هل تحبين أن تدرسى الألمانية ؟

قلت وقد استبدت لى الحجل والخرج :

— نعم ، ولكنك مشغول جداً ، وأنا غبية جداً فى الحفظ .

وضحك الأستاذ ثم قال بهدوء :

— سنرتب الوقت يا فتاتى . ولن تعيننا الحيل فى تنشيط فكرك ،

ويسرنى أن أدرس لك فى المساء لأوفيك جميلاً يا مس مارش .

وأشار بيده إلى الجوارب الذى أمسك به ، ومضى يقول :

— نعم ، إن أولئك السيدات الطبيبات يعتقدن أنى رجل ساذج ، لا أشعر بما يحدث حولى ، ولا أتنبه إلى خدماتهن الجليلة ، ولا أرى ما يطرأ على جواربى من إصلاحات ، وأظن أن أضرار سترتى تنبت من تلقاء نفسها . أواه يا فتاتى ، إن لى عيناً ترى ، أذنأ تسمع ، وقلباً يفيض بالشكر لما تسدين من جميل . ما علينا ، تعالى يا فتاتى من وقت لآخر لألقنك دروساً فى اللغة الألمانية .

ولم أرفض بطبيعة الأمر هذه الفرصة الرائعة ، واتفقت معه على أربعة دروس فى الأسبوع ، ولم ألبث أن وقعت فى شرك قواعد اللغة ، واختلط على أمرها إختلاطاً شديداً ، ولكن الأستاذ كان مثالياً فى صبره ، وكان ينظر إلىّ فى بعض الأحيان يائساً ، فأتحير : أأضحك من موقفى ، أم أبكى لحيبتى ؟ ولقد جربت الأمرين فى الواقع ، فلم تتحسن الأحوال ، وعند ما بلغ غبائى أقصاه ، عيل صبر المسكين ، فألقى بالكتاب على الأرض ، وانصرف من الغرفة مسرعاً . وشعرت بمنتهى الوحدة والمهانة ، ولكنى لم أغضب منه ، فقد كان الخطأ خطأى ، ولم يكن للأستاذ يد فى غبائى . وعكفت على أوراقى أجمعها . وفى نيتى أن أهرب إلى غرفتى ، لأهز فيها رأسى هزاً عنيفاً ، حتى تتفتح أبوابه المغلقة ، فيفهم الدروس . وما كدت أهم بالخروج ، حتى رأيت الأستاذ يعود إلى الغرفة صاحكاً راضياً ، كأننى قمت بعمل مجيد ، وقال :

— سنلجأ إلى طريقة أخرى ، فهيا بنا نقرأ بعض القصص المسلية ،

ودعينا من البحث في هذا الكتاب الجاف القابع في زاوية الغرفة ، فإنه يأتيه بالمتاعب .

وكان الأستاذ يتكلم برفق وبشاشة ، ثم فتح كتاب القصص ، وطلب إلى أن أقرأ فيه ، ولكنى كنت في غاية الخجل ، فجعلت أقرأ وأنا مطأطئة الرأس ، مما سره كثيراً ، وزاده غبطة وإنشراحاً . ولم ألبث أن اندمجت في الكتاب ، فنسيت خجلي ، وأقبلت على القراءة بعزم واهتمام ، وبذلت جهدي لأنطق بالكلمات الطويلة في سرعة وجراءة ، وحين أنهيت قراءة الصفحة الأولى ، وتوقفت لحظة أستعيد فيها أنفاسي ، صفق الأستاذ يديه إعجاباً ، وقال بعطف :

— هذا حسن جداً ، إننا نتقدم تقدماً طيباً ، والآن حل دوري في القراءة ، فأصغى إلى :

وبدأ يقرأ بصوت قوى رخم ، يشوق الأسماع ويجتذبها . وكانت القصة لحسن الحظ مضحكة ، ولذلك كان في استطاعتي أن أضحك ، وقد ضحكت فعلاً بالرغم من أنني لم أفهم نصف الكلام ، إذ كان يقرأ بسرعة وحماسة ، وكنت في غاية الاستشارة ، وكان الموقف غاية في الفكاهة .

وأعجبتني هذه الطريقة ، فتقدمت تقدماً طيباً ، وأصبحت أقرأ دروسى جيداً ، وأخذت أتعلم قواعد اللغة من خلال القصص والقصائد ، شأنى في ذلك شأن مريض يعطونه الدواء ممتزجاً بالحلوى . . هذه الطريقة

تلائمى ، والأستاذ - كما أرى - لم يملها بعد ، وهو كرم من جانبه .
وفى عزمى أن أعطيه هدية بمناسبة عيد الميلاد ، فليست أجرؤ على نقده
أجراً لدروسى ، فاقترحى على شيناً جميلاً يا أماه .

سرتنى ما علمته من مرح تيدى ونشاطه واجتهاده ، واغتنبت كثيراً
لأنقطاعه عن التدخين ، ولأنه ترك شعره ينمو . . . ألا ترين معى أن
بث أقدر منى على قيادته ؟ لست أغار من ذلك ، فابذلى جهدك معه
يا عزيزتى ، ولكن إياك أن تجعلى منه قديماً ، فإنى أفضله عفريتاً كما
عهدناه ، اقرئى له أطرافاً من خطابى ، فليس لدى متسع من الوقت لأكتب
له ، وفى هذا القدر ما يكفىكم جميعاً ، والحمد لله على تقدم صحة بـ
وراحة بالها .

« يناير :

أرجو لكم جميعاً ، يا أفراد أسرتى المحبوبة ، عاماً سعيداً ، وأبعث
بأطيب التمنيات إلى مستر لورنس والفتى المسمى تيدى . أرانى عاجزة عن
وصف سعادتى بهدية العيد ، التى أرسلتموها إلى فوصلتنى فى الليل ،
بعد أن قطعت كل أمل فيها . كان خطابكم قد جاءنى فى الصباح وليس
فيه إشارة إليها ، لأنكم أردتم أن تفاجئوني بالهدية ، والحقيقة أن الحيلة
انطلت على ، وظننت أنكم نسيتمونى فى هذا اليوم السعيد ، فاستبدت بـ
الحزن ، وجلست بعد تناول الشاى فى غرفتى واجهة .

وحين دق الباب ، ورأيت الحزمة الكبيرة ، استخفني الطرب ،
 فقممت إليها أحضننها وأقبلها . وكان فيها عمير البيت المنعش ، فجلست
 على الأرض أفك رباطها ، وأنظر فيها وآكل منها وأضحك وأبكي في
 وقت واحد ، على طريقتي الهوجاء المعهودة . وكانت الأشياء التي بعثت
 بها غاية ما أتمناه ، وزادني تقديراً لها أنها صنعت بأيديكم ، ولم تشتت من
 السوق . وراقتني المحبرة الجميلة التي أرسلتها بث ، وسررت بفطائر حنا كل
 السرور ، وسأرتدى الأقمصة الصوفية الجميلة التي بعثت بها يا أماء ،
 وسأقرأ بإمعان الكتب الطريفة التي أرسلها أبي . . . أشكركم ألف شكر
 على هذه الهدايا الرائعة .

والحديث عن الكتب يذكرني بأنني أزداد في هذا الباب ثراءً يوماً
 بعد يوم ، إذ أهداني الأستاذ باير في رأس السنة مجموعة جميلة من مؤلفات
 شكسبير ، وهي مجموعة كان يعتز بها ويقدرها ، وكنت أعجب بها
 كلما رأيته في غرفته تشغل مكان الصدارة من كتبه الثمينة الأخرى ،
 كالإنجيل بالألمانية ، ومؤلفات أفلاطون وهومر وميلتون ، لذلك يمكنكم
 أن تتصوروا مبلغ سعادتي حين جاءني بالمجموعة ، وأراني اسمي عليها ،
 ومعه كلمة إهداء « من صديقك ، فريدريك باير » ، وقال لي :

— كنت تتمنين دائماً أن تكون لك مكتبة ، وها أنا ذا أعطيك
 واحدة ، فبين دفتي هذا الغطاء — وهو يعني الغلاف — عدة كتب في
 كتاب واحد . اقرئها جيداً تفيدك وتعينك ، فإن دراسة الشخصيات

فى هذه المجموعة ، تسهل عليك دراسة الناس فى الحياة ، وتمكنك من رسمهم بقلمك .

وشكرته قدر ما أستطيع ، وأصبح فى استطاعتى الآن أن أتكلم عن مكتبتي ، كأنما عندى مئات الكتب . لم أكن أعرف من قبل كم عدد مؤلفات شكسبير ، ولكنى لم أكن أعرف عندئذ أستاذاً كبار ، يفسر لى ما أجهل ، لا تضحكوا من طريقتى فى كتابة اسم « باير » فهكذا ينطقه الألمان !

يسرنى أنكم تستمتعون بما أرويه لكم من أخبار هذا الأستاذ ، وأملى أن تقابلوه فى يوم من الأيام ، وستعجب والدتى بقلبه الكبير ، وسيعجب أبى برجاحة عقله ، أما أنا فأعجب بقلبه وعقله ، وأشعر بأنى صرت غنية بمعرفة صديقى الحديد فريدريك باير .

لما كنت لا أملك مالا كثيراً ، ولا أعرف على وجه التأكيد الهدية التى يقدرها ، لذلك اشتريت له عدة أشياء بسيطة ، كلها جميلة ونافعة ومسلية ، ثم وضعتها له فى حجرته حيث وجدها على غير انتظار : أهديته تمثالاً صغيراً للمائدة ، وآنية جميلة للزهور — فهو يحتفظ دائماً بالأزهار فى حجرته ويقول إنها تنعشه — ، وكذلك أهديته مقبضاً يتناول به الأوانى الساخنة ، حتى لا يضطر إلى استعمال مناديله فيحرقها . وسر الأستاذ كثيراً بهذا المقبض ، ووضعوه فوق رف المدفأة كحلية ثمينة ، وأبى أن يستعمله فيما اشترите له ، وهكذا فشلت جهودى فى محاولة إنقاذ مناديله ؛

وعلى الرغم من فقر الأستاذ ، فإنه لم ينس أحداً من أهل البيت وأطفاله ، لا ، ولم ينسه أحد ، من الغسالة الفرنسية إلى مس نورثون ، وقد سرّني إجماعهم على تقديره .

وأقاموا في ليلة رأس السنة حفلاً تنكرياً ابتهاجاً بالعام الجديد ، ولم يكن لدى ثوب لائق ، فقررت ألا أشترك في الحفل ، ولكن مسز كيرك تذكرت في آخر لحظة أن لديها ثوباً من الحرير القصب ، فأعطتني إياه ، وأعارتني مس نورثون بعض الريش والدنتلا ، فتنكرت في شخصية غانية تاريخية ، ووضعت قناعاً على وجهي ، وغيّرت صوتي . ولم يعرفني أحد من الحاضرين ، ولم يطرأ لذهن من أذهانهم أن مس مارش الصامتة المترفعة — فهم يظنون أني خشنة جافة باردة ، أو هكذا أبدو في نظر السخفاء — يمكنها أن ترقص وتغني وتمرح مثلما فعلت . وكانت حقاً ليلة ممتعة ، وحين خلعنا الأقنعة عن وجوهنا آخر الليل ، سرّني أن رأيت الحاضرين يحملقون فيّ بدهشة ، وكأنهم لا يصدقون عيونهم . وسمعت شاباً يقول عني لآخر : إنني كنت أحترف التمثيل فيما مضى ، وأنه رآني ذات مرة أمثل على أحد المسارح الصغيرة ، أخبروا ميج بذلك ، وستضحك كثيراً لهذا الادعاء .

وكان مستر باير مستخفياً في لباس شخصية قصصية ، وكانت تينا في لباس حورية من الجنة ، وكان منظرهما وهما يرقصان معاً ، آية من آيات الجمال الطبيعي — على حد تعبير تيدي — وعلى العموم قضينا

ليلة عيد سعيدة ، وحين عدت إلى غرفتي ، وأمعت التفكير في الأمر
 شعرت أنني بدأت أتقدم ، على الرغم من فشلي فيما مضى ، والدليل على
 ذلك أنني الآن مبهجة على الدوام ، وأشتغل بعزيمة قوية ، وأهتم بمن
 حولي أكثر من ذي قبل ، وكلها مظاهر مطمئنة .
 تحياتي ودعواتي لكم جميعاً .

المحبة دائماً

جو



الفصل الرابع والثلاثون

صديق

اندجبت چو سعيدة فى الحياة الاجتماعية التى تحيط بها ، وأخلصت لعملها الذى تكسب منه لقمة العيش ، فأقبلت عليه بمنتهى جهدها وعزيمتها ، ولكنها استطاعت على الرغم من كل هذا ، أن تجد فسحة من الوقت لأعمالها الأدبية . وكان الهدف الذى تسعى إليه طبيعياً لفتاة مثلها فقيرة طامحة ، ولكنها لم تحسن اختيار الوسيلة لبلوغه : فقد كانت ترى المال يسبغ على الناس قوة ونفوذاً ، ولذلك استقر رأيها على طلب

المال بقوته ونفوذه ، لا لتنفقه في أغراضها الخاصة ، بل لتحقيق السعادة لمن تحبهم أكثر من نفسها .

وكانت چو تتمنى دائماً ، أن تملأ البيت بوسائل الترف والراحة ، وتعطى بث كل ما تصبو إليه نفسها من فراولة في الشتاء ، إلى أرغن موسيقى تشبع بها هوايتها ؛ أما لنفسها فلم تكن تطلب إلا السفر إلى الخارج مع زيادة في الدخل تمكنها من الاشتراك في الأعمال الخيرية . وقد ظلت هذه أمانيتها على مر السنين ، وكانت تبني عليها قصوراً شاهقة في الهواء . وكانت المغامرة التي أتها بجائزة القصة ، قد فتحت لها طريقاً يقودها بالجد والاجتهاد إلى قصر أحلامها المنشود ؛ ولكن فاجعة القصة الطويلة التي منيت بها ، أضعفت شجاعته بعض الوقت ، ودفعته إلى الانكماش أمام الرأي العام ، ذلك العملاق الجبار الذي ترتعد له فرائص الرجال . وآثرت چو أن تهدأ قليلاً ، بعد التجربة الأولى ، التي انجلت عن فشل وخسارة ، ولكن طموحها الشديد لم يلبث أن تيقظ في نفسها ، فقامت تعالج عثراتها ، وتستأنف المسير في طريق آخر ظليل ، منحها القوة ، ولكنها أوشكت أن تخلف وراءها ما هو أثمن وأعظم من حقائب المال . عاودت چو كتابة القصص ، ولكنها جنحت إلى النوع المثير ، تمشياً مع مزاج القراء الأمريكيين الذين كانوا يفضلون هذا اللون التافه ، ولم تخبر چو أحداً بعزمها ، بل عكفت على الكتابة في صمت ، وأخرجت قصة مثيرة ، حملتها بنفسها إلى مستر داشوود . رئيس تحرير مجلة « البركان

الأسبوعى » . ولم تكن چو ذات خبرة بأخلاق الناس ، ولكنها أدركت بغريزتها النسوية أن الملابس الأنيقة أشد تأثيراً فى النفوس من الشخصية وأدب المعاملة . ولذلك تجملت فى ملابسها ، وارتدت أحسن ثيابها ، وحاولت أن تقنع نفسها ، وهى تصعد الدرج القذر المؤدى إلى مكتب المجلة ، بأنها ليست منفعة ولا عصبية ولا خائفة . وواصلت الصعود بشجاعة ، حتى وصلت إلى غرفة مشوشة النظام ، مغبرة الجو بدخان السجائر ، وكان يجلس فيها ثلاثة رجال ، مدوا أرجلهم على الموائد بحيث أصبحت كعوب أحذيتهم أعلى من رءوسهم . ولم يحرك أحدهم ساكناً حين ظهرت چو ، فاستبد بها القلق ، وترددت قليلاً عند عتبة الباب ثم قالت فى ارتباك ظاهر : « عفواً أيها السادة ، إني أبحث عن مكتب مجلة البركان الأسبوعى ، وأريد مقابلة مستر داشوود » .

وعندئذ فقط هبطت أعلى الأقدام عن المائدة ، ونهض أكثر الجالسين تدخيناً ، وبعد أن وضع سيجارة بين أصابعه بعناية ، تقدم نحوها يحياها بوجه جامد لا يرم إلا عن رغبة شديدة فى النوم . وأحست چو بضرورة الدخول فى الموضوع بسرعة ، فقدمت له مخطوطات القصة ، وراحت تتكلم بنجل شديد ، فتتعر العبارات على شفيتها . قالت وقد نسيت معظم الخطبة التى كانت قد أعدتها لهذا الموقف :

— كلفتنى صديقة لى بأن أقدم لكم هذه القصة ، على سبيل التجربة فقط ، ويسرها أن تعرف رأيكم فيها ، ويسعدها أن تكتب لكم غيرها ، إذا أعجبتكم .



وفيما هي غارقة في خجلها وتلعثمها ، أمسك داشوود بالخطوط في يده ، وأخذ يقلب صفحاته بأصابعه القادرة ، ويلقي على صفحاته الناصعة ويتأمل ما كتب فيها ، بنظرات فاحصة ، وكانت الأوراق منمرة ومكتوبة على وجه واحد بطريقة صحفية منظمة ، وليست مربوطة بشرط كما يفعل المستحدثون دائماً ، قال :

— ليست هذه أول تجربة على ما أعتقد !

قالت :

— لا ياسيدى ليست هذه أولى تجاربها ، فقد كتبت أكثر من مرة ، ونالت إحدى قصصها الجائزة الأولى فى مجلة « العلم » .

قال داشوود ، وهو يتأمل چو من قمة رأسها إلى أخمص قدميها :

— أنالت الجائزة حقاً ؟ ؛ حسناً ، اتركى لنا القصة إن شئت ،

ولدينا فى الواقع كثير من هذا النوع ، بل أكثر مما نحتاج إليه ، ولكنى سألقى نظرة على قصتك ، وأبلغك رأيى فى الأسبوع القادم .

ولم تجد چو فى شخصية مستر داشوود ما يشجعها على أن تترك القصة له ، ولكن الموقف اضطرها إلى ذلك ، فحيثه وانصرفت ، وقد ارتفع رأسها كما اعتاد أن يرتفع عند ما تتضايق أو تغضب وكانت تحس فى تلك اللحظة بالشعورين معاً ، وذلك لأن نظرات الرجال وابتساماتهم ، جعلتها تعتقد أنهم يستهينون بقصتها ، ويعتبرونها فكاهة تافهة ، وزاد من حرجها أن ودعها رئيس التحرير بضحكة ساخرة تلتها همهمة خافتة . وعادت إلى البيت ، وهى نصف معترمة ألا تعود إلى هذه المجلة مرة أخرى . وأخذت تسرى عن نفسها بأشغال الإبرة ، وجعلت تشتغل بسرعة وقوة ، فلما انقضت ساعتان ، كانت قد استعادت هدوءها ، وأخذت تضحك مما حدث ، وتطلع فى مرح إلى موعد الأسبوع القادم .

وحين ذهبت إلى المجلة فى المرة الثانية كان داشوود وحده ، وكان أكثر يقظة من المرة الماضية ، ولم يكن مشغولاً بتدخين سيجارة ، بل كان أكثر انتبهاً وملاحظة لدواعى الأدب . فابتهجت چو بذلك ،

ووجدت في حديثه الثاني ترضية عن لقائه الأول . قال داشوود في لهجة رجال الأعمال — رجال الأعمال قلما يتحدثون بلفظة أنا أبداً :

— سنأخذ هذه القصة إذا لم تعارضى في بعض تغييرات قليلة . إنها طويلة جداً ، وستتحسن بعد أن تحذف منها الفقرات التي علمت عليها .

ولم تعرف چو مخطوطها إلا بصعوبة كبيرة ، فقد كانت أوراقه مطبقة مشوهة ، وصفحاته مملوءة بالإشارات والعلامات . فانتابها ما ينتاب الأم حين يطلب إليها أن تقطع أطراف وليدها ، ليتفق طوله مع طول المهدي الحديد ، وألقت نظرة على الفقرات المطلوب حذفها ، فأدهشها أن تجدها الفقرات التي ضمنها تأملاتها وأفكارها ، والتي صاغتها بعناية ، لتحفظ بها توازن القصة . قالت :

— ولكن ينبغي أن تكون للقصة مغزى يا سيدى ، وقد حرصت على أن أجعل المذنبين يندمون ويتوبون .

ونسيت چو أمر صديقتها التي كلفتها بتقديم القصة نيابة عنها ، وراحت تتكلم بلهجة المؤلفة المحنكة ، فانفرجت سمات الوقار الذي يلزم رؤساء التحرير عن مستر داشوود وقال لها باسماء :

— إن الناس يقرأون القصة طلباً للتسلية ، لا الموعظة ، والعظات الأخلاقية لا تجد لها سوقاً في هذه الأيام .
ولم يكن قوله صحيحاً تماماً . فسألته :

— وهل تظن أن التغييرات المقترحة تحسنها ؟

قال داشوود فى رقة وتلطف :

— نعم ، لأن الفكرة جديدة ، والصياغة جيدة ، واللغة حسنة ، وأشياء أخرى .

قالت چو ، وهى لا تكاد تعرف كيف تعبر عن نفسها :

— وما الذى ؟ . . وما هى المكافأة . . ؟

قال داشوود بلهجة من يتدارك أمراً تافهاً نسيه ، ورؤساء التحرير ينسون التواقة دائماً :

— أوه نعم ، نحن ندفع ما بين خمسة وعشرين دولاراً وثلاثين للقصص التى من هذا النوع ، والدفع بعد النشر عادة .

وكانت چو فيما مضى ، تتقاضى دولاراً عن العمود الواحد ، فسرّها أن يرتفع ثمن القصة إلى خمسة وعشرين دولاراً ، فقالت راضية :

— حسناً ، تستطيع أن تأخذها .

ثم عادت تسأله ، وقد شجعها نجاحها :

— وهل أخبر صديقتى أنك على استعداد لشراء قصة أخرى ، إذا كان لديها واحدة أحسن من هذه ؟

قال :

— لن نعد بشيء ، ولكننا سننظر فى أمر ما تقدمه لنا . . واطلبي إليها أن تختصر فى قصصها ، وتكثر من المسليات ، وتتجنب المواعظ .

وسكت برهة ثم أضاف بغير مبالاة :

— وبأى اسم تحب صديقتك أن تنشر قصتها ؟

واحمر وجهه چو رغماً عنها ، وقالت :

— بدون اسم إذا سمحت ، فهي لا تحب أن ينشر اسمها ، وليس

لها اسم مستعار .

قال مستر داشوود ، وفي نفسه شوق إلى معرفة الكاتبة الجديدة ،

التي تؤلف القصص :

— ليكن ما تريد ، وسنشر القصة في الأسبوع القادم ، فهل

تأتين لتسلم النقود ، أو نرسلها إليك ؟

وحسمت چو الأمر قائلة :

— بل سأمر عليك . . أسعدت صباحاً .

وما كادت تنصرف حتى قال مستر داشوود ، وهو يضع رجله فوق

المكتب : « فقيرة ومتكبرة كالمعتاد ، ولكنها كاتبة لا بأس بها » .

وألقت چو بنفسها في لجة الأدب المثير طبقاً لتعليمات مستر داشوود ،

واتخذت من مسز نورثيرى مثلاً تحتذيه ، ولكنها استطاعت أن تصل

شاطئ الأمان ثانية بفضل المساعدة القيمة التي قدمها إليها صديق .

كانت چو — ككل الكتاب الشبان — تختار شخصيات قصصها

ومكانها من خارج البلاد ، فكان قطاع الطرق واللوردات والغجر والراهبات

والدوقات الذين يظهرون على مسرح مؤلفاتها ، من الأجانب دائماً ،

ولكنهم كانوا يلعبون أدوارهم بدقة على قدر الإمكان . ولم يكن قراؤها يهتمون بالتوافه الأخرى كقواعد اللغة والوقفات والاحتمالات ، وكان داشوود يرحب بكتاباتها ، ويسمع لها بأن تملأ أعمدة مجلته بأقل ثمن ممكن ، ولكنه حرص على إخفاء السر الحقيقي في ترحيبه هذا ، فلم يذكر لها أن أحد كتابه البارزين تركه سعيًا وراء أجر أعلى عرضته عليه مجلة أخرى .

وسرعان ما اندمجت چو في عملها الجديد ، وأقبلت عليه باهتمام شديد ، فامتلاً كيسها بالنقود ، وازداد الرصيد الذي تجمععه من أجل رحلة تسافر فيها أختها بث إلى الجبال في الصيف القادم . . وكانت چو راضية بحالها كل الرضا ، لا يعكر عليها سوى أنها لم تخبر أهلها بمشروعاتها ، وكانت تشعر أن والدتها لن توافق على هذا العمل ، لذلك آثرت أن تمضي فيه أولاً ، ثم تسألها المغفرة بعد ذلك . وكان من السهل عليها أن تحتفظ بسرها ، لأن قصصها كانت تنشر بلا اسم ، ورغم أن مستر داشوود علم بحقيقة هذا الاسم ، لكنه وعدّها بالصمت ، ولدهشتها حافظ الرجل على وعده .

وظنت چو أن هذا العمل لا ينطوى على أضرار ، فهي تكتب بإخلاص ، وما فكرت قط أن تخط حرفاً يشعرها بالخزي والحجل ، وكانت تسكن وخزات الضمير بتمثل اللحظة السعيدة ، التي تكشف فيها للأسرة عن مكاسبها ، وتزيح الستار عن سرها المكتوم ضاحكة .

وقد رفض مستر داشوود أى نوع من القصص ، اللهم إلا المثيرة لعواطف الناس ، وأصر على أن تكون المناظر مخزنة مفجعة ، وهو ما لا يتأتى بغير التنقيب فى مصائب الحياة وحوادثها فى البر والبحر ، والعلوم والفنون ، وسجلات البوليس ومستشفيات الأمراض العقلية . وسرعان ما تبينت چو أن تجاربها البريئة لم تمكنها إلا من نظرات قليلة خاطفة إلى النواحي المفجعة فى الحياة ، فعكفت على سد هذا النقص بهمة فائقة . وفى غمرة حماسها لإيجاد مادة قصصية طريفة ، لتبرزها فى صورة مبتكرة — إن لم تكن بالغة الإتيقان — ، راحت تنقب فى جميع الصحف عن الحوادث والجرائم والوقائع ، وأثارت حول نفسها الشبهات فى المكتبات وهى تسأل عن مؤلفات فى السموم ، ثم عكفت على الوجوه التى تصادفها فى الطريق ، والشخصيات التى تمر بها ، تدرسها بدقة واهتمام . . ولم تقف عند هذا الحد ، بل ذهبت إلى أبعد منه ، فانغمست فى أتربة التاريخ بحثاً عن قصص قديمة تقدمها إلى قرائها ، وأقحمت نفسها فى دراسة كل ضروب الهوس والخطيئة والتعاسة ، بقدر ما سمحت لها ظروفها ، وكل غرضها من ذلك ، أن تعثر على حقائق وعبر تعينها على بلوغ مأربها فى كتابة القصص المثيرة . وخيل إليها أنها قد نجحت فيما تريد ، ولكنها كانت تخشى فى أعماق نفسها ، بأنها أقدمت على استباحة حمى المقومات الأساسية لشخصية المرأة ، إذ كانت تعيش فى عالم منحط . ورغم أنه كان عالماً خيالياً ، إلا أنها تأثرت به ، وتركته يستولى بحقائقه الخطيرة على

عقلها ومشاعرها ، ويمسح بمعاناة الحشنة براءتها الجميلة ، ويكشف لها قبل الألوان عن مساوى البشرية ، وهى الجانب الأسود من الحياة ، الذى سرعان ما يتكشف لنا جميعاً .

وبدأت چو تحس بهذا الجانب الأسود دون أن تراه ، فإن انصرافها إلى وصف عواطف الآخرين ، والتعمق فى سبر أغوار مشاعرهم ، كان يحملها على التأمل والتعمق فى دراسة نفسها ، ويدفعها إلى تحليل عواطفها وإحساساتها ، وتلك تسليية سقيمة لا تلجأ إليها العقول الفتية السليمة إلا مكرهة . والخطايا تجلب وراءها دائماً العقاب الرادع ، وقد نالت چو نصيبها من العقاب عند ما آن الألوان .

ولست أدري ما إذا كانت دراستها لشكسبير هى التى عاونتها على قراءة الشخصية ، أم تكون قد اندفعت إلى ذلك بوحى الغريزة النسوية الذواقة لكل ما فى الحياة من معانى الأمانة والشجاعة والقوة . ومهما يكن من شىء فقد استطاعت چو — وهى تخلع على أبطالها الخياليين كل كمال تحت الشمس — ، أن تكشف بطلا حياً آثار اهتمامها على الرغم من نقائصه الإنسانية . وكان الأستاذ باير قد نصحها فى معرض الحديث بأن تدرس الشخصيات البسيطة الصادقة المحبوبة ، أينما وجدتها ، وقال لها إن هذه الدراسة أفضل مران للكاتب . وأخذته چو عند كلمته ، والتفتت إليه فى هدوء ، وبدأت تدرس شخصيته ؛ ولو علم الأستاذ بما أقدمت عليه ، لأخذه العجب كل مأخذ ، فقد كان الرجل متواضعاً

جداً حتى في غروره .

وكان السر في محبة الناس له أول ما يحير چو في أمره ، إذ لم يكن الرجل غنياً أو عظيماً ، أو صغيراً أو وسيماً ، حتى تجتمع القلوب حوله ، ولكنه كان جذاباً يقبل الناس على معرفته ، ويطمئنون إلى صحبته ، وكان فقيراً ، ولكنه كان يبدو دائماً سخيّاً . . . وكان أجنبيّاً ؛ ولكنه كان صديقاً للناس كلهم . . . وكان كهلاً ، ولكنه كان يفوق الشباب مرحاً وفتوة . ولم يكن وسيماً ؛ ولكن عيون الأصدقاء تراه دائماً جميلاً جذاباً .

وكانت چو تراقبه ، عسى أن تكتشف السر في محبة الناس له ، وأخيراً قررت أن روح الخير في نفسه ، هي التي صنعت المعجزة : فقد كان يطوى صدره على آلامه ، ولا يلقى العالم إلا بوجهه باش مستبشر ، وكان جبينه العريض عامراً بالغضون والتجاعيد ، ولكن يبدو أن الزمن ترفق به ، لعطفه وحنانه على الآخرين . وعلى العموم كان أقرب إلى القديس منه إلى الإنسان العادى ، فالغضون المنتشرة حول فمه ، تبدو كأنها ذكريات حلوة لحسن صناعته وجمائله ، ونظراته خالية من القسوة والمرارة ، وقبضة يده القوية أبلغ من العطف والكلام . وحتى ملابسه بدت كأنها تساهم في إبراز شخصيته السمحة ، فصداره القفصاّض يُوحى بقلبه الكبير ، وسترته العتيقة تنم عن روح اجتماعية ، وجيوبه الكبيرة المهذلة تدل بوضوح على أن الأيدي الصغيرة تدخل فيها خاوية وتخرج منها عامرة . وأحذيته هي الأخرى كان رفيقة سخية ، وبنيقته لم تكن أبداً

منشأة ولا جافة شأن بقية الناس . قالت چو لنفسها : « هذا هو السر ! »
وهكذا اكتشفت أن طيبة القلب وصفاء الروح ونقاوة الشخصية ،
تجمل صاحبها ، وتضفي عليه حسناً واحتراماً ووقاراً ، حتى إذا كان
صاحبها هذا هو الأستاذ الألماني الذي يلتهم طعامه بشراهة ، ويرتق
جواربه بنفسه ، ويحمل اسم باير !

وكانت چو تقدر طيبة النفس حق قدرها ، ولكنها كانت تحترم
الثقافة أيضاً ، ولذلك تضاعف تقديرها له ، عند ما اكتشفت مبلغ
تضلعه في العلوم والمعارف ، وخبرت بنفسها كنوزه الذهنية الوفيرة . ولم
يكن من طبع الأستاذ أن يتحدث عن نفسه ، ولذلك لم يكن أحد يعرف
بمكانته الرفيعة بين قومه ، ولا بتقديرهم العظيم لعلمه ونزاهته واستقامته ،
وظلت هذه الحقائق مجهولة لأهل البيت ، حتى جاء أحد مواطنيه لزيارته ،
وذكرها مع معرض الحديث مع مس نورتون . ومن مس نورتون عرفت
چو هذه الحقائق التي لم يشأ مستر باير أن يذكرها مرة واحدة ، فازداد
تقدير الفتاة له وتضاعف إعجابها به ، وأحست بالفخار لأن صديقها
كان أستاذاً نابغاً في برلين قبل أن يصير مدرساً فقيراً في أمريكا .

وأناحت الظروف لحو أن تعرف في صديقها موهبة أخرى أحسن من
الثقافة ، وجاء ذلك بطريق المصادفة ، فقد كانت مس نورتون على صلة
وثيقة بالأوساط الأدبية الكبيرة ، وكانت تعطف على چو الطموح
وصديقها الأستاذ باير ، وتضفي عليهما مكرمات كثيرة ، ومن ذلك أن

صحبتهما ذات ليلة إلى إحدى الندوات الأدبية المختارة ، التي عقدت تكريماً لبعض المشاهير من الأدباء .

وذهبت چو وفي عزمها أن تنحني احتراماً لهؤلاء العظماء ، الذين قدسهم بكل ما في نفسها من حماسة الشباب وفورته ، ولكنها اكتشفت أنهم كغيرهم من عامة الناس ، فأصيب تقديسها لعبقرياتهم بصدمة عنيفة لم تشف منها إلا بعد وقت طويل . وتصوروا مبلغ استيائها واستنكارها حين تطلعت بإعجاب وخجل إلى شاعر عظيم ، طالما خلبت أبياته الرائعة لبها ، وجعلتها تظن أنه مخلوق أثير يقات - على حد قوله في أشعاره - « بالروح والنار والندى » . . . فإذا بها تراه يلتهم طعامه في نهم مخجل أزال عن وجهه معاني الشعر والخيال . وحين تحولت عن هذا المعبود ، الذي سقط من عليائه محطماً ، روعتها اكتشافات أخرى بددت أوهامها وخیالاتها ، وقضت على احترامها للآلهة المزعومة : إذ رأت كاتباً قصصياً شهيراً يتردد بانتظام بين قنيتين من الشراب ، كأنه « بندول » الساعة . وكان القصصى الشهير يغازل علناً كاتبة معروفة ، وتلك تنظر شزراً إلى أخرى أخذت تنتقدها وتسخر منها ، بعد أن قهرت جهودها في الاستيلاء على قلب الفيلسوف العظيم الذى جلس يحتسى الشاي متناوياً . وكان بين الحاضرين مشاهير العلماء ، ولكنهم نسوا حيواناتهم اللافقريّة ، وأهملوا العصور الحجرية والجليدية ، وأخذوا يتحدثون عن الفنون ، وهم فى شغل شاغل بالتهام الحار والمثلجات . أما

الموسيقار الشاب الذى كان يطرب المدينة بأنغامه السحرية ، فقد انصرف إلى الحديث عن الخيول ؛ وكان أقرب الحاضرين شبهاً بال مخلوقات البشرية العادية نبيل إنجليزى جاء الندوة ليشترك فيها .

وقبل أن ينتصف الليل بقليل ، أحست چوبالانهيوار ، فجلست فى ركن من القاعة تجمع شتات نفسها ، وسرعان ما انضم إليها مستر باير ، وقد بدا قلقاً على غير عادته . ولم يلبث عدد من الفلاسفة أن جلسوا إلى ندوة أدبية ، وجعلوا يتناقشون فى أمور لم تفهمها چو ، ولكنها حرصت على الإصغاء إليها ، فأصابها أحاديثهم عن الموضوعية والشخصية بصداع شديد فى رأسها ، خيل إليها معه أن العالم تمزق إرباً إرباً ، ثم أعيد تكوينه على أسس جديدة أفضل ، كما يدعى المتحدثون . وكان النقاش يدور حول وجوب سيطرة العقل دون الدين ، ولم تكن چو تعرف شيئاً عن الفلسفة أو الروحانيات ، أو غيرها من الجوانب الشائكة ، فأحست وهى تستمع إليهم بانفعال غريب بعضه مبهم وبعضه مؤلم ، وبدأت كأنها معلقة بين السماء والأرض ، تضطرب بين الزمان والمكان كريشة فى مهب الريح . واستفاقت لنفسها ، ونظرت إلى الأستاذ تتبين وقع هذه الأحاديث عليه ، فوجدته يحملق فى وجهها فى تعجب شديد ، وهز رأسه ، وأشار إليها أن تنصرف ، ولكنها كانت حينئذ مبتهجة بحرية الفكر التى تنتهكها الفلسفة النظرية . وكانت المقدمات لافتة للنظر ، فتشبث بمقعدها ، لتتابع حديث المتحدث الفيلسوف ، وترى على ما سيعتمد بعد

أن هز المبادئ ، وقضى على جميع المعتقدات القديمة .

وبدا الشك واضحاً في وجه الأستاذ باير ، ولكنه تباطأ في عرض آرائه وأفكاره ، لا لأنها لم تكن منسقة ولا منسجمة ، بل لأنها كانت مخلصه صادقة ، وليس من اليسير أن يدلى بها على مسمع من الشبان المأخوذين بأساليب الفلاسفة البراقة . وقطب جبينه في صمت ، لأنه كان يخشى أن يتأثر بعض الشبان المتحمسين بهذه الصواريخ المحرقة ، فيخرجوا من أحاديث الفلاسفة بنفوس خاوية وقلوب فارغة .

واحتمل الأستاذ الموقف قدر ما يستطيع ، ولكن حين دعى لإبداء رأيه ، انفجر في حماسة وأمانة ، يدافع عن الدين بكل ما أوتي من فصاحة الحق ، فأضفى الإيمان على لغته الإنجليزية الركيزة نغماً موسيقياً ، وأفاض على وجهه العادي جمالاً . واحتدم النقاش بينه وبين الفلاسفة ، واشتدت مهارتهم في محاورته ومداورته ، ولكنه لم يكن يرضى بالهزيمة مختاراً ، فصمد للدفاع عن آرائه بعظمة وجلال . وأحست چو ، وهو يتحدث ، أن ميزان الأمور عاد إلى سيرته الطبيعية الأولى ، وأن المعتقدات القديمة استعادت مكانتها الخالدة فوق أطلال الحديد ، وأن الله ليس قوة غاشمة ، والخلود حقيقة لا خرافة . وشعرت چو أن الأرض تثبت تحت قدميها ، وأنها استعادت توازنها ، ولم تعد مثل ريشة في مهب الرياح ؛ وحين توقف عن الكلام مغلوباً على أمره دون اقتناع ، لم تصفق له چو ولم تشكره ، ولكن موقفه العظيم زاد احترامها له .

كانت تعرف كم كلفه هذا الموقف من جهد لا يرغب فيه ، فلولا ضيقه بما سمع ، ما وقف وما تكلم . وبدأت چو تدرك أن كمال الشخصية أثنى من الثراء والجمال والجاه ، وأنه إذا كانت العظمة — كما عرفها أحد الحكماء — هي الصدق والإخلاص والاحترام ، فصديقتها فريديك باير ليس طبيباً فحسب ، ولكنه عظيم أيضاً .

ونما إيمانها بعظمته يوماً بعد يوم ، فكانت تقدر ميزاته حق التقدير ، وتعتز باحترامه لها ، وتود أن تكون خليقة بصداقته . وحين بلغت هذه الرغبة بنفسها غايتها ، أوشكت أن تفقد كل شيء في لحظة خاطفة : فقد حدث ذات مساء أن جاءها الأستاذ ، يعطيها درساً في الألمانية ، فدخل الحجرة وعلى رأسه قبعة من الورق ألبتها له تينا ، ونسى أن يخلعها .

ونظرت إليه چو ، وقالت في نفسها : « من الواضح أنه لا ينظر في مرآته قبل أن يغادر غرفته » . وابتسمت وهو يقول لها :
— أسعدت مساء يا آنسة .

ثم جلست في تؤدة واتزان ، غير آبهة بالمفارقة المضحكة بين موضوع الدرس وبين لباس الرأس ، إذ كان معتزماً أن يقرأ لها قصيدة الشاعر شيللر عن « موت وولنشتاين » .

ولم تقل شيئاً أول الأمر ، وقررت أن تتركه حتى يكتشف القبعة بنفسه ، فيضحك عالياً كما اعتاد في مثل هذه المواقف . ولم تلبث

قصيدة شيللر أن شغلتها عن القبعة ، فاندجبت فيها بروحها وفكرها ، ثم انتهى الشعر ، وبدأ الدرس ، وكانت چو مرحة في تلك الليلة ، وزادتها قبعتها مرحاً على مرح ، فراحت تنظر إليه بعينين عامرتين بالبهجة والسرور وتوقف الأستاذ عن الدرس ، وقال لها بدهشة :

— مس مارش ، أى شىء يضحكك في وجه أستاذك ؟ ألا تحترمينى حتى تسلكى معى هذا المسلك ؟
قالت چو :

— وكيف أحترمك يا سيدى ، وقد نسيت أن تخلع قبعتك ! ؟
ورفع الأستاذ يده إلى رأسه ، وتحسس القبعة في وقار ، فلما أدرك ما حدث ، خلع القبعة ، وامسكها بيده لحظة ، ثم قهقه ضاحكاً وقال :
— لقد وضعتها العفريته تينا على رأسى ، فجعلتنى أضحوكة لك .
إنه أمر بسيط على كل حال ، ولكن اعلمى أنك ستلبسينها إذا لم تحسنى درسك اليوم .

ولكن الدرس لم يستأنف مرة ثانية ، إذ التقى نظر مستر باير بصورة مطبوعة على ورق القبعة ، فقال باستياء واضح :

— وددت لو لم تأت هذه المجلات إلى البيت ، فهى ضارة بالأطفال ، ولا يصح أن يقرأها الشباب . إنها مجلات تافهة لا خير فيها ، ونفسى تضيق بمن يحدثون هذه الإساءات والأضرار .

وتطلعت چو إلى الصحيفة التى صنعت منها القبعة ، فرأت فيها صورة

سخيفة، تتألف من خيول وحشية ورجل شرير وأفعى... فقلبت الصفحة، ولكنها لم تفعل ذلك نقمة على الصورة، بل خيفة أن تكون الورقة من مجلة «البركان الأسبوعي» التي تكتب فيها قصصها. وزالت مخاوفها عند ما تبين لها أن الورقة ليست من المجلة المذكورة، وعادوها اطمئنانها الكامل حين تذكرت أنها لا تضع اسمها على قصصها، ومن ثم فلا يحتمل أن ينكشف أمرها. ولكنها في الواقع نمت عن سرها بنظرة من القلق التي ارتسمت في عينيها، وبالحمرة التي كست خديها، وكان الأستاذ — على ما يظهر به من شرود الذهن — يدرك من الأمور أكثر مما يظن الناس، ويعرف بأن چو تكتب للصحف، وطالما قابلها في دور المجلات ولما لم تحدثه بالموضوع من تلقاء نفسها، اختار أن يسكت، على الرغم مما يشتعل بين جوانحه من رغبة في الاطلاع على ما تكتب. وخاف في تلك اللحظة أن تكون الفتاة قد تورطت في كتابات تخجل من الإفصاح عنها، فأقلقه هذا الخاطر، ولكنه لم يقل لنفسه كما يقول معظم الناس: «هذا شأنها الخاص، وليس لي دخل فيه»... بل تذكر شيئاً واحداً في هذا المقام، هو أنها شابة فقيرة تعيش بعيداً عن رعاية أهلها وإرشادهم، وأحس بدافع يدفعه إلى مساعدتها، وكان دافعاً طبيعياً سريعاً كالذي يجعلك تمد يدك لإنقاذ طفل على وشك السقوط في الماء. وجالت كل هذه الأفكار بذهنه في لحظة واحدة، ولم يظهر لها أى أثر على وجهه، ولكن في الوقت الذي قلبت چو فيه الصحيفة، وعادت إلى إبرتها تطرز

من جديد ، قال لها بجذ وهدهو :

— نعم ، أنت محقة في إبعاد هذه الأوراق عنك ، فما يصح أن تقرأها
شابة فاضلة ، إن موضوعاتها تكتب لتسلية نوع خاص من الناس ، ولو
كان الأمر بيدي ، لفضلت أن أعطى أولادى باروداً يتلهون به ، فضرره
أقل من هذا اللغو الشرير .

قالت چو ، وهى تطرز فى سرعة مضاعفة :

— إنه لغو فارغ فحسب ، ولكن ليس كل ما يكتب شراً كما تعتقد ،
وما دام الجمهور يطلب هذا اللون ، فلا ضرر من كتابته . إنى أعرف
أناساً محترمين يكسبون عيشاً شريفاً من كتابة ما يسمى بالقصص المثيرة .
قال :

— إن الوسكى مطلوب أيضاً ، ولكن مثلك ومثلى لا يرضى ببيعه ،
ولو عرف الناس المحترمون كم يضررون غيرهم بما يكتبون ، ما اعتبروا كسب
عيشهم شريفاً ، فليس من حقهم أن يضعوا السم فى الحلوى ، ثم يطعموا
به أولاداً صغاراً . وأفضل هؤلاء أن يشتغلوا بكنس الشوارع ، من أن
يعيشوا فى رخاء عن هذا الطريق القذر الوضيع .

وكان مستر باير يتكلم بحرارة وإيمان ، وبعد أن كور الورقة فى يده ،
ألقى بها فى نار المدفأة ، فجلست چو صامته ، وقد أحست بأن اللهب
انتقل إلى خديها ، وظل وجهها متوهجاً بنيران الحجل ، حتى بعد أن
تحولت القبة إلى دخان تسرب من المدخنة بسلام .

قال الأستاذ ، وهو يعود إلى مقعده مرتاح النفس :
 — بودى لو أستطيع أن ألقى كل المجلات الضارة في النار ، لتلقى
 مصير هذه الورقة .

وطافت برأس چو صورة النيران وهي تتغذى بقصصها الكثيرة ،
 وثقلت على ضميرها في تلك اللحظة ، وطأة المال الذي كسبته بكدها
 واجتهادها ، ولكنها قالت وهي تعزى نفسها : « ليست قصصى من الطراز
 الذى يعنيه ، فهى حقيقة تافهة ، ولكنها لا تضر » . وتناولت كتابها ،
 وقالت للأستاذ بوجه ينم عن رغبة في الدرس :

— ألا نستأنف القراءة يا سيدى ، أننى على استعداد ، وسأكون عند
 حسن ظنك كمالاتاً ونظاماً .

قال الأستاذ :

— أرجو ذلك .

ولم يزد حرفاً واحداً ، ولكنها استشعرت من الكلمتين معانى كثيرة ،
 وخيل إليها أنها ترى « البركان الأسبوعى » مطبوعة على جبينه العريض
 العطوف بأحرف بارزة .

وما كادت چو تعود إلى حجرتها ، حتى أخرجت أوراقها ، وأعادت
 كل قصة من قصصها بمنتهى العناية والدقة . ولما كان مستر باير ضعيف
 النظر ، فقد كان يستعمل فى بعض الأحيان نظاراته ، وقد جربت چو
 هذه النظارات مرة ، وابتسمت حين رأت كيف تكبر الحروف الدقيقة ،

ويبدو أنها استعانت في مراجعة قصصها هذه الليلة بنظارات الأستاذ العقلية والخلقية ، فتجسمت لها أضرار هذه القصص التعسة بشكل يملأ النفس زراية واستنكاراً . قالت لنفسها : « إنها لغو وعبث ، ولكنها ستصير أسوأ إذا مضيت في هذا الطريق ، فكل قصة أكثر استثارة من سابقتها ، والأخيرة أفظعها كلها . لقد طلبت المال على غير هدى ، فأذيت نفسي وجلبت الأذى للآخرين ؛ ولست أشك في ذلك ، فأنا لا أستطيع أن أقرأها دون أن يملكني خجل رهيب مما حوت . ترى ماذا أفعل لو رأى أهلى هذه القصص ، أو وقعت في يد مستر باير ؟

ودار رأس چو لمجرد التفكير في هذا ، فقامت إلى أوراقها تحملها ، ثم أسلمتها كلها طعمة للنيران ، وكانت غداءً دسماً ارتفعت له السنة اللهب حتى بلغت المدخنة . قالت تحدثت نفسها وهي ترى النيران تلتهم قصصها الواحدة بعد الأخرى : « نعم ، هذا خير مكان لمثل هذا اللغو المثير ، وخير لى أن أحرق البيت من أساسه ، من أن أترك الناس ينسفون أنفسهم بهذا البارود الذى أقدمه لهم . »

وجلست چو على الأرض فى هدوء واتزان بعد أن ذهب إنتاجها الفكرى ، ولم يبق من مجهود ثلاثة شهور إلا رماد تذرور الرياح ، وحفنة من المال جاءت عن طريق تأليف سخي . وأخذت چو تفكر فيما هى فاعلة بكسبها الحلال ، قالت لنفسها : « لم أحدث ضرراً كثيراً بعد ، ومن حق أن أحتفظ بهذا المال ، لأستعين به على الزمن . »

ثم قالت بعد تأمل وتفكير طويل : « وددت لو لم يكن لى هذا الضمير المزعج ، فإنه يغرينى بالخير ، ويؤنبنى على الشر ، وبذلك يعوقنى عن النجاح . آه لو لم يكن والدائ متشددين فى مراعاة المقاييس الخلقية ! » ولكن چو لم تسترسل مع هذه التأملات طويلا ، وحدث الله على وجود أبيها وأمها ، وأشفقت من كل قلبها ، على من ليس لهم رعاة يرشدونهم ويوقظون الوازع الطيب فى نفوسهم ، ويحسنون تنشئتهم على مبادئ كريمة قد تبدو فى سن الصغر قيوداً وأغلالا ، ولكنها تتحول فى مرحلة النضج إلى أقوى أساس فى بناء الشخصية الكاملة .

وكفت چو عن كتابة القصص المثيرة ، بعد أن أقنعت نفسها بأن الأجر الذى تتقاضاه عليها لا يساوى الجهد الذى تبذله فيها ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض ، شأن مثيلاتها من الفتيات الطيبات ، فعكفت على دراسة مؤلفات الكاتبات العظيمات ، ثم أنتجت قصة كان أولى بها أن تسميها رسالة أو موعظة ، لما حوته من تبشير بالفضائل الخلقية . وكانت چو منذ البداية تشك فى إمكان نجاحها ، بعد أن عجز خيالها الحبيب عن تلبية مطالب أسلوبها الجديد ، وعندما انتهت من كتابة القصة ، طافت بها عدة أسواق ، ولكنها لم تجد من يشتريها ، مما أقنعها بصدق ما قاله مستر داشوود من أن المواعظ الخلقية لا تجد من الناس رواجاً وإقبالا .

وأعملت چو قلمها فى كتابة قصص للأطفال ، وكان من السهل أن

تبيعها لو لم تستول عليها النزعة التجارية ، وتطلب الكسب من ورأها .
 وكان الرجل الوحيد الذى قبل أن يعطيها ما تراه مناسباً ، سيداً متمزناً ظن
 أنه بعث لتبشير العالم بمذهبه الخاص . ومع صدق رغبة چو فى الكتابة
 للأطفال ، لم تقبل ما اقترحه عليها من أن تلقى بالأبطال الصغار العاصين
 إلى الدببة تهش لحومهم ، أو إلى الثيران الهائجة تصرعهم ، لا للذنب
 إلا أنهم تخلفوا عن المدرسة يوماً فى الأسبوع . لا ، لم يرض لها ضميرها
 بهذا ، وكذلك لم يرض لها منطقها بأن تكفى الطيبين بعلم الدنيا كلها ،
 فتؤثرهم فى حياتهم بالفطائر اللذيذة ، وفى موتهم بجناات النعيم . ومن ثم لم
 تثمر تجربتها الحديدية ، ولم تأت بنتيجة ما ، فوضعت چو قلمها جانباً ،
 وأغلقت محبرتها ، وقالت بخضوع واستسلام : « إننى لا أعرف شيئاً ،
 ويجب أن أنتظر حتى أعرف ، وإذا لم يكن فى استطاعتى أن أنتج خيراً
 من هذا ، فأكرم لى أن أكنس الطرقات ، فأقل ما يقال فى ذلك العمل
 أنه مهنة شريفة . »

وأثبت قرارها هذا أنها استفادت كثيراً من كبوتها الثانية .
 وبينما كانت تطوى صدرها على هذه الثورات الداخلية ، ظلت
 حياتها الخارجية كثيرة المشاغل خالية من الأحداث كالمعتاد . وكانت
 تنتابها الكتابة أحياناً ، فلا يشعر بها إلا الأستاذ باير ، الذى كان يرقبها
 خفية ، ليرى أثر توجيهه فيها ، ومبلغ استفادتها به . وصمدت چو لهذا
 الامتحان العصيب ، فاطمأن الأستاذ واغتبط ، وبالرغم من أنها لم تشر

إلى الموضوع بكلمة واحدة ، فقد عرف بثاقب فكره أنها كفت عن الكتابة ، وكانت الشواهد على ذلك أن أصابعها خلت من بقع الحبر ، وأنها أصبحت تقضى أمسياتها كلها في بهو البيت ، وأنه لم يعد يقابلها في دور الصحف . كما أنها عكفت على الدراسة بصبر وجلد ، وشعر بأنها مشغولة الذهن بأشياء مفيدة وإن لم تكن سارة .

وحرص الأستاذ على مساعدتها ما استطاع ، وأصبح صديقاً مخلصاً لها ، وقد سعدت چو بهذا كل السعادة . فقد هيأت لها صحبته دراسات جديدة مفيدة إلى جانب اللغة الألمانية . وهكذا ألقت القلم جانباً ، وعزفت عن الكتابة ، وبذلك وضعت أساساً قوياً لقصة حياتها الخاصة .

ومضى الشتاء الطويل بهيجاً ، ولم تفارق چو مسز كيرك إلا في شهر يونية ، وعندما آن أوان رحيلها ، أسف نزلاء البيت جميعهم على فراقها ، واستبد الجزع بالأطفال ، ولم تنجح الحيل في تلهيتهم . أما الأستاذ ، فقد انتصب شعره فوق رأسه ، إذ كان من عادته أن يجذبه العنف عندما ينتابه القلق .

وحين أبلغته چو نبأ رحيلها ، حزن كثيراً ، وقال في أسى ظاهر :
— ستعودين إلى بيتك ؟ ما أجمل أن يكون للإنسان بيت يعود إليه .
وكان في عزمها أن ترحل في الصباح مبكرة ، لذلك ودعت أصدقاءها في الليلة السابقة ، وحين جاء دوره قالت له في حرارة :

— عدنى بأن تأتى لزيارتنا ، إذا حدث وسافرت يوماً إلى ناحيتنا ،

ولن أغفر لك إذا نسيت ، فإنى أود أن يتعرف أهلى إلى صديقى .

قال وفى عينيه شوق وتلهف :

— أحقاً ما تقولين ؟ وهل آتى لزيارتكم ؟

قالت ولم تنتبه إلى نظرته :

— نعم ، تعالى فى الشهر القادم ، فحينئذ يكون لورى قد تخرج فى

الكلية ، فنستمتع بوقتنا معاً .

سألها بلهجة متغيرة :

— أهذا صديقك الحميم الذى تتحدثين عنه فى بعض الأحيان ؟

قالت :

— نعم إنه صديقى تيدى ، وأنا فخورة بصداقته ، وأود أن أعرفك به .

ورفعت چو رأسها ، ولم يكن يدور بخلدتها إلا السرور الذى خالجهما

لفكرة لقاء صديقها القديم ، ولكن شيئاً غريباً فى وجه مستر باير وفى

نظراته ، أعاد إلى ذاكرتها أن لورى قد يكون أكثر من صديق حميم .

ولما كانت حريصة على إخفاء الأمر ، فقد جهدت فى ستر ما يدور

بخلدتها ، ولكن حمرة الحجل تسربت إلى جبينها على الرغم منها ، وكلما

حاولت مقاومتها ، ازداد وجهها احمراراً ، ولولا أن تينا كانت تجلس على

ركبتها ، ما انتهى الموقف بسلام .

ولحسن الحظ تحركت تينا لعناقها ، فأتاحت لها لحظة تخفى فيها

وجهها المتقد ، راجية ألا يكون الأستاذ قد لاحظ انفعالها . ولكن رجاءها

لم يتحقق ، فقد رأى الأستاذ خجلها ، لذلك استعاد هدوءه ، وقال في جد ووقار :

— أخشى أنى لن أجد الوقت لزيارتكم ، ولكنى أرجو لصديقك كل نجاح وسعادة ، وليبارككم الله جميعاً .

ثم شد على يدها بحرارة ، وحمل تينا على كتفه وانصرف .
وما أن استغرق الأطفال فى النوم ، حتى جلس الرجل طويلاً إلى جانب نيران المدفأة ، وقد بدت فى عينيه مظاهر الإرهاق والسأم ، وأفعم قلبه بمشاعر الحنين إلى الوطن ، وطاف به خيال چو ، وهى تجلس أمامه فى خجل والطفلة على حجرها ، فأسند رأسه إلى يده ، كأنما ناءت به الأشجان . وظل على هذه الحال برهة ، قام بعدها يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً ، كمن يبحث عن شىء فقدته . قال لنفسه : « إنها ليست لى ، وليس من حقى أن أتعلق الآن بالأمل » ، وأردف ذلك بزفرة انخلع لها قلبه ، كأنما كان يعنف بها نفسه على صبوة لم يستطع كبتها . ودلف إلى الصغيرتين النائمتين فقبلهما ، وأمسك بجليونه الذى قلما كان يستعمله ، وجلس يدخن فى صمت ، وهو يقلب فى كتاب أفلاطون .

لقد تصرف كأحسن ما ينبغى ، وعالج الموقف برجولة ، ولكن ما أظن أنه وجد فى الطفلين السعيدين أو فى غليونه أو حتى فى أفلاطون المقدس ، عزاءً يعوضه عما تآقت إليه نفسه من الزوجة والولد والبيت . وفى الصباح الباكر كان فى المحطة يودع چو ، وبذلك جعلها تبدأ

رحلتها المنفردة بذكريات سعيدة عن الوجه المألوف ، الذى ابتسم لها
مودعاً ، وبباقة زهور البنفسج أهداها إياها ، فكانت خير أنيس بوحشتها ؛
وأفضل من هذا كله أنه أتاح لها فرصة التفكير السليم فى ضوء إرشاده
وتعاليمه .

قالت لنفسها :

— حسناً ، قد ذهب الشتاء ، ولم أكتب شيئاً أو أكسب مالا ،
ولكنى اكتسبت صديقاً خليقاً بأن أحفظ به ، وسأحاول أن أحفظ به ،
وأحرص عليه مدى الحياة .

* * *

DATE DUE

AUB. LIB.



818:A355LA:v.3:c.1

السعيد، امينة

نساء صغيرات

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030701

